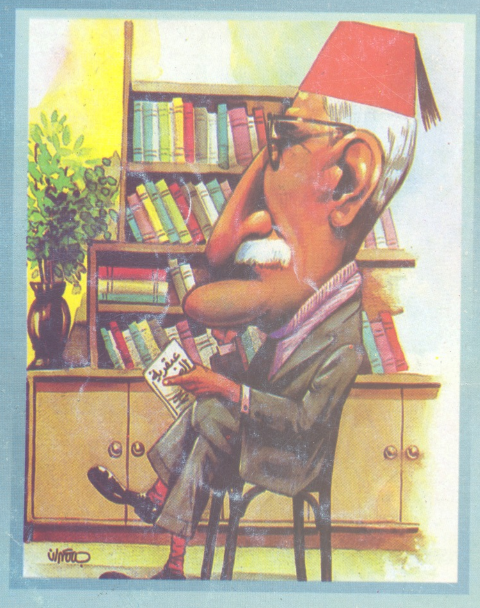
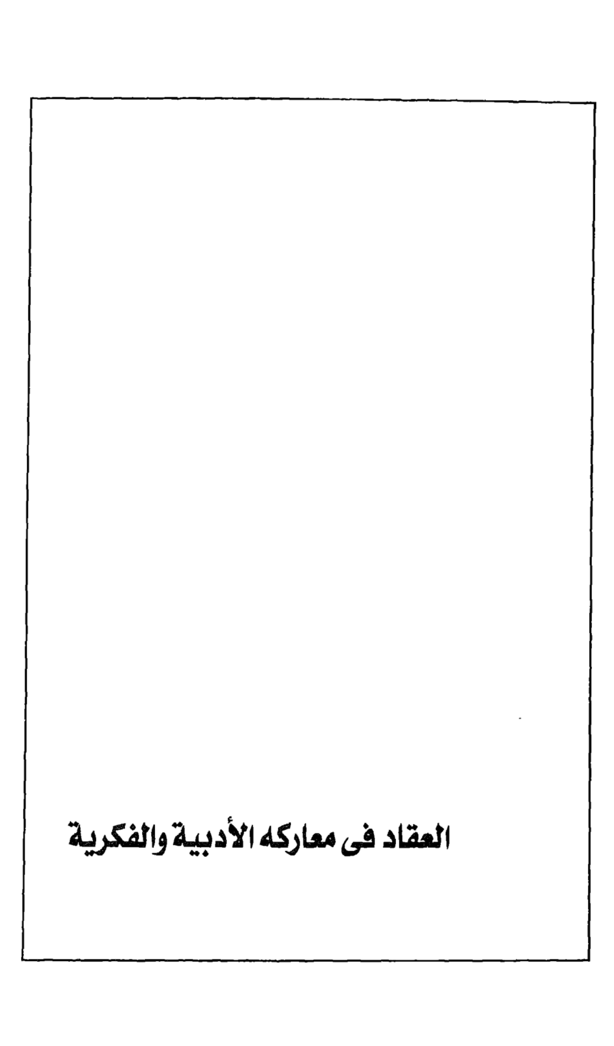
مهرجان القراءة للجميع 2002
مكتبة الأسرة

سامح كريم



العقاد في معاركه الأدبية والفكرية

مهرجان القراءة للجميع
مكتبة الأسرة
٢٠٠٢
الأعمال الفكرية



العقاد فى معاركه الأدبية والفكرية

العقاد

فى معاركه الأدبية والفكرية

سامح كريـــم



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

سلسلة الأعمال الفكرية

العقاد في معاركه الأدبية والفكرية
سامح كريم

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ :
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «**مكتبة الأسرة**» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

تقديم

العقاد فارس المعارك الادبية . .

لو ان هذا العصر ـ الذي عاش فيه العقاد ـ القى بهذه الكلمة على رجاله . . لكان العقاد في مقدمة من تتسم حياتهم بهذه الصفة في عالمنا العربي .

ذلك أن حياة العقاد . . في دنيا الادب والفكر . . كانت سلسلة من المعارك ، فما يكاد ينتهي من معركة الا ليبدأ في معركة جديدة ولهذا لم تعرف هذه الحياة التي امتدت الى ما بعد الخامسة والسبعين سكونا ولا همودا . وكيف تسكن أو تهمد حياة رجل وضع أمامه هدفا جليلا حصر كل همه في بلوغه .

والهدف كان في الانتقال من عصر الى عصر . . الانتقال من عصر التخلف والجهل الى عصر التقدم والعلم . عصر السذاجة في النظر والتطبيق الى عصر يسوده العقل بدقته وموضوعيته . شأنه في ذلك شأن قادة الفكر في الغرب والشرق من سقراط وديكارت والجاحظ وابي العلاء المعري . . وغيرهم من الرجال الذين كانت الرسالة عندهم ليست هي في ان يزيدوا المعرفة معرفة من جنسها . . بل الرسالة كانت عندهم هي ان يغيروا من نوع المعرفة وينقلوها الى أسلوب جديد او بمعنى آخر رسالتهم ان ينقلوا الفكر من طراز قديم متهالك الى طراز جديد نابض بالحركة والحياة .

ولهذا لم يبالغ العقاد أو يسرف في القول حين سئل عن الفرق بينه وبين برنارد شو ،

وأيهما الافضل قال : برنارد شو واقف على اكتاف خمسة أجيال أو ستة اجيال من الثقافة الاوربية على العموم والثقافة الانجليزية على الخصوص . وانا قائم على قدمي لأن ثقافتنا الحديثة لا ترجع الى اكثر من جيلين » .

هدف العقاد كان ايجاد صبغة جديدة لثقافتنا وفكرنا الحديث وهذا الهدف شغله طوال حياته وخاض من اجله العديد من المعارك ولاقى من اجل الوصول اليه العديد من الصعوبات والعقبات وتعرض للكثير من محن الحياة ومصائبها .

والحق ان العصر كان في حاجة الى العقاد وبعض أفراد جيله الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التنوير العقلي والوجداني . كان العصر في حاجة الى رجال لا يعيشون الحاضر بعقل الماضي ولا يترجمون الواقع والحقيقة بلغة الوهم والخرافة رجال نقول عن الواحد منهم عند وفاته : « لقد شيعنا عصرا بأكمله ممثلا في هذا الذي نودعه اليوم ».

ولا عجب ففي العصر الذي ظهر فيه العقاد والذي امتد من الربع الاخير من القرن التاسع عشر الى ما بعد خمسينات القرن العشرين . . كانت مصر تموج بالاحداث على كل المستويات السياسية والاجتماعية والفكرية .

هذه الاحداث وخاصة في بداياتها جعلت الكثيرين يتحولون من مجرد أدباء وشعراء الى كتاب ومفكرين . لهم نظرياتهم ومواقفهم . . فافرزت العقاد والدكتور طه حسين والدكتور هيكل وغيرهم ، ودارت اكبر المعارك الفكرية والادبية نتيجة لهذه الاحوال التي تمر بها البلاد . . فلم تكن هزيمة التيار الوطني باحتلال الانجليز لتصرف المفكرين الوطنيين عن المعنى العارم الذي بدا يغزو عقولهم ونفوسهم وضمائرهم .

ولم يكن هذا الفكر الذي اتجه الى التحرر من القيود المفروضة عليه لينسب اليه قصورا جديدا هو عدم تطعيم العقل المصري بكل ما هو جديد ونافع وليقوم بعملية الاخصاب بين الفكر الاوربي البالغ كمال تطوره وبين العقل المصري وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه .

ولم يكن هؤلاء الذين نذروا انفسهم للفكر وفي مقدمتهم العقاد بعاجزين على أن يجعلوا جهودهم نافعة وغنية وزاخرة ومليئة بالاحلام العريضة .

ولم يكن العقاد ـ وقد فتح عينيه مبكرا على هذه الاحداث الجسام في وطنه ـ بمعزل عن المعركة . . وقد امتلك القدرة على التفكير والتعبير وأن يكون له موقف من كل ما يحدث في وطنه .

لم يكن العقاد وقد كان يتسم بشخصية تجعله يقدم المعارك الرهيبة حيث يحجم غيره عن ان يشارك ويساهم بقلمه في الاحداث التي يضطرم بها الوطن .

لم يكن على العقاد وقد شب هكذا مبارزا يستمد شجاعته من نخوته وابائه ، إلا أن يتقدم الصفوف معلنا رأيه على الملأ وفي مواجهة أي انسان حتى ولو كان هذا الانسان ملك البلاد .

ولم يكن العقاد وهو الذي لا يحمل لقبا مدنيا يحميه ، ولا لقبا علميا يتستر وراءه ، ولا جاها ولا مالا يعزه . ليتملق او يتافق اي اتجاه من الاتجاهات . . فهو يحارب الشيوعية ويحارب الرأسمالية ويحارب الاستعمار كما يحارب التبشير ويحارب الالحاد كما يحارب أدعياء الغيرة باسم الدين ويحارب الصهيونية كما يحارب النازية . . ويتخذ من هذه جميعا مواقف . ويرى أن ما يفعله هو الحق . . والحق وحده كما يراه علميا ونفسيا وخلقيا .

هذه وغيرها صفات تتسم بها شخصية الفارس .

ولهذا استحوذ على احترام قرائه واعجابهم الشديد لصلابته وقدرته على قهر خصومه وثباته في موقفه وكأنه يرى الموقف أرضا صلبة يعش عليها حيا او ميتا .

ودراسة المعارك الادبية التي اشترك فيها العقاد لها اهمية خاصة . . نظرا لأنها بدأت مع بدايات هذا القرن واستمرت حتى منتصفه ، وهي فترة تتسم بالاحداث السياسية كما تزخر بالأحداث الادبية .

ولذلك ، فإن دراسة المعارك الادبية والفكرية التي كان العقاد طرفا فيها . . هي في حقيقة الامر دراسة للفكر المصري بصفة عامة .

وسيهتم هذا الكتاب بجانب منه هو الجانب الادبي .

والآن ما هي الخطة المتبعة لرصد هذه المعارك الادبية التي اشترك فيها العقاد . . وكان فارسها الاول ؟

للاجابة عن هذا السؤال . . نتوقف لحظات لنلتقي بالعقاد الانسان . . وكيف كان هو نفسه موقفا ضد كل ما في الادب والفكر من عجز وضعف وتخلف وسذاجة ، بل والاكثر كيف كانت حياته كلها موقفا باهرا داخل هذه المعارك المتصلة التي اشترك فيها . . والتي لم تنته الى ان فارقته هذه الحياة .

في بحثنا عن العقاد الانسان . . نحن مضطرون لدراسة سيرة حياته ولن تكون هذه الدراسة تقليدية . . ولد سنة كذا وتوفي سنة كذا . . وانما ـ وهذا ما تفرضه شخصية العقاد على الباحث ـ تكون دراستنا لسيرته هي من استلهام مواقفه . منذ كان صبيا فتح عينيه منبهرا الى ان اصبح شيخا متأملا . . ولا تكتمل دراستنا لسيرة العقاد الانسان من مواقفه دون تأمل مواقفه من نصف المجتمع . . او المرأة ، فقد قيل عن العقاد انه عدو المرأة . . فهل هو حقا عدو لهذه المرأة . . ؟ ربما تجيب عن هذا السؤ ال الصفحات التالية .

بعد هذا التمهيد الذي كان لا بد منه . . نخوض مع العقاد معارك حول القضايا الثقافية . . في التجديد ، في حرية البحث والفكر ، في التراث ، في العامية ، في الرجعية . . ومن خلال هذه القضايا نتبين مواقف العقاد . .

وتقودنا هذه القضايا الى دراسة مواقف العقاد من الاتجاهات الادبية الحديثة وموقفه مثلا من الشعر الحديث والقصة والنقد وكيف أن هذا الموقف الذي اتخذه ولم يغيره ظل ثابتا شامخا .

بعد هذا تتجسد أمامنا المعارك حيث تبرز الاطراف الأخرى المقابلة للعقاد . . وفي تسجيلنا لهذه المعارك الادبية والفكرية التي كان العقاد فارسها . . فاننا نسجل لجانب هام من تاريخنا الادبي الحديث .

صحيح ان هذا الكتاب سجل لعدد كبير من المعارك مع اجيال مختلفة . . سابقة على العقاد ومعاصرة له وتالية بعد ذلك . . إلا أن هناك بعض المعارك التي لم يتم تسجيلها لعدم توافر المادة اللازمة .

وفي مقدمة هذه المعارك الادبية نذكر على سبيل المثال لا الحصر . . معاركه مع بعض أفراد جيله وفي مقدمتهم استاذ الجيل احمد لطفي السيد وجورجي زيدان واسماعيل مظهر والدكتور محمد غلاب .

ومعاركه مع بعض افراد الجيل التالي له وفي مقدمتهم رشدي صالح ويوسف السباعي واحسان عبد القدوس والدكتور لويس عوض وغيرهم .

ونلتقط انفاسنا بعد خوض هذه المعارك لنقرأ معاً وثيقتين هامتين يتردد ذكرهما على صفحات هذا الكتاب . . وهما : الاولى نص أول حديث صحفي يجري مع وزير وهو الحديث الذي أجراه العقاد مع زعيم الامة سعد زغلول حينما كان وزيراً للمعارف ،

والثانية نص الكلمة التي ألقاها العقاد في عيد المعلم عام ١٩٦٠ أمام الرئيس جمال عبد الناصر .

وعبر رحلتنا مع العقاد ارجو ان اكون قد اصبت الهدف بما قدمت من مادة تدور حول المعارك الادبية وهو لقب لم اخلعه عليه . . وانما هو صفة اتسمت بها شخصيته وموقفه ضد كل ما في الحياة من عجز وضعف .

القاهرة ٢٤ نوفمبر ١٩٧٨

سامح كريم

القسم الاول

* العقاد الانسان
* سيرته من مواقفه
* مواقفه من المرأة

سيرته من مواقفه

العقاد واحد من المفكرين القليلين في العالم . . هؤلاء الذين تتبين سيرة حياتهم من خلال مواقفهم . فالذي يدرك المواقف العقادية اصبح من اليسير عليه أن يعرف حياة العقاد تلك التي امتدت من ٢٨ يونيو ١٨٨٩ حتى ١٢ مارس ١٩٦٤ .

فمن خلال هذه المواقف نتبين العقاد رجل الحق والمبدأ والرأي والعقيدة ، ومن خلاله نستكشف العقاد رجل الارادة الصلبة والعزيمة القوية والصبر الجميل ، والمعاناة الطويلة والجدية الشامخة . ومن خلالها أيضا يبدو العقاد رجل الخلق . الذي يحكم سلوكه وازع ديني واجتماعي ، ورجل السياسة الذي يرى المبدأ ارضا صلبة يقف عليها حيا أو ميتا ، ورجل الفكر الذي يحمل مسؤ ولية التنوير العقلي والوجداني ، ورجل الحرية الذي يرى أن الانسان من حقه ان يكون سيد نفسه ومصيره ومستقبله ..

ولذلك يمكن القول بأنه من خلال مواقف العقاد تبرز سمات روحه ، وقسمات شخصيته ، وملامح حياته فنراه رجلا واحدا في اقواله وأفعاله .

لكن من أين تبدأ هذه المواقف والى أين ؟

إنها تبدأ من هناك . . مع بداية حياة العقاد نفسه في أسوان هذه المدينة الخالدة . . التي ظل العقاد يهمس بحبها طوال حياته ويوصي ان يكون فيها بعد مماته . . وكان يريد ان يستنشق عبير هذا البلد العظيم حيا او ميتا .

اسوان هي بعينها التيار الخفيض المهموس في شخصية العقاد ، وهي الضراوة التي تجدها في طبائع أبناء صعيد مصر ، وهي الطيبة التي تنطوي عليها شمائلهم ، وهي الصلابة والاصرار والقسوة والاحتمال ، هي البكائيات الساذجة والمواويل الحلوة والسخريات

اللاذعة ، هي قبل كل ذلك وبعده قدرة الانسان المصري على البذل والعطاء . . او كما يقول عنها العقاد[1] ولدت فيها بمشيئة القدر ، ولو أنني ملكت الأمر لولدت فيها بمشيئتي لأنها الموطن الذي يستفاد منه خير ما اثرته لنفسي من النظر الى الحياة . . فليس مما أحبه لنفسي ان يحصرني الحاضر في نطاقه ولا أن يحويني الخير الارضي في حدوده أدعو الى الانسانية في الادب وأنظر الى العالمية في المستقبل ، وأحب مصر والشرق ولكني لا أحب ضيق الافق في عصبية وطنية أو شرقية .

وفي اسوان رأيت التقاء التاريخ الماضي ، بالحاضر الذي نعيش فيه . فالمتحف فيها والبيت يتقابلان والتاريخ فيها يرزق ويتنفس الهواء لأنه ماثل شاخص في الاحياء ، والحياة فيها تتسربل بقداسة التاريخ العريق . . لأنها صورة منه تتجدد مع الأجيال . . وفي أسوان رأيت التقاء المشرق والمغرب ، ودرجت وأنا أشهد الحضارة الاوروبية في كل جنس من أجناسها وكل ناحية من أنحائها .

في هذه البلدة التي اختارها القدر مسقطا لرأس العقاد واهداه منها ملامحها وسماتها ومميزاتها فتح الطفل عينيه فماذا رأى ؟

لقد رأى اخوة اشقاء وغير أشقاء . ووجد أباً صالحاً يؤدي صلاة الصبح ويجلس على سجادة الصلاة من مطلع الفجر الى ما قبل الافطار ليتلو سورا خاصة من القرآن الكريم ، كما كان يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها . . أب عرف عنه الأمانة والاستقامة ، وحب الخير للناس ، وأم صالحة تصلي هي الأخرى ، وتؤدي الصلاة في مواقيتها ، وترث عن اجدادها من الأتراك حب الصمت والاعتزال والأمانة والاستقامة وحب الخير .

الأب والأم يتفقان في امور كثيرة لعل ابرزها التقوى . . وهنا يبرز موقف للعقاد من مواقفه المبكرة ، فوالده يطلب منه المواظبة على الصلاة في أوقاتها قبل العاشرة من عمره . . وهذا من اثقل ما يعانيه الطفل ، خاصة يقظة الفجر في الشتاء . فماذا كان يفعل العقاد وما هو موقفه ؟ انه يقول[2] وصبرت على هذا الجهد العنيف مرتين أو ثلاث مرات او أربع مرات ثم تمردت دفعة واحدة وقلت لمن جاء يوقظني اذهب عني فلست بالمستيقظ ولست بالمصلي اليوم .

---

(١) « انا » للعقاد صفحة ٤٤

(٢) « انا » للعقاد ص ٣٣

وسمع أبي ما قلت فصاح : ماذا تقول ؟ اتقول انك لا تصلي » ووثب الى عصاه فذهب بي الاصرار مذهبه وقلت : « نعم ».

ويقرر العقاد ان هذا الموقف لم يتخذه لنفوره من الصلاة ولا من الفرائض الدينية : « بل كنت اخف الى المسجد بعض الوقت وانشد على المئذنة أناشيد الجمعة الاولى وظللت انشدها بعد ذلك وانظمها ولا اذكر للمؤذن انني نظمتها لئلا يستصغرها ويرفض انشادها ولكن الشدة صدمتني . . لأنها كلفتني ما لا أطيق قبل الأوان وجاءتني في معرض الاكراه والالزام وهي عبرة تساق للاستفادة منها في هذا المقام ».

وموقف آخر من امه . . يمكن استخلاصه من صاحبه العقاد حيث يذكر انه رفض ارتداء ملابس العيد الجديدة عندما اعتقد ان والدته تسيء معاملته . انه يقول[٣] فلما دخلت منزل جدتي (أم أمي) وهي ضريرة سمعت الأطفال يعجبون لأنني لم ألبس جديدا في العيد فقربتني الجدة العطوف اليها وسألت : في شيء من اللهفة : ما الخبر يا ولدي ؟ لماذا لم تلبس ثوبك الجديد ؟ الم يحضروا لكم ثيابا جديدة ؟ بلى . . انهم قد احضروها ولكنني أبيت أن آخذها من يد بنتك . . لانها تشتمنا وتزعق فينا .

فابتسمت وهي تعرف بنتها حق المعرفة وصاحت بنتي ؟ وكيف كانت القصة ؟

فأعدت عليها القصة مرددا كلمات السخط التي أغضبتني . فسألت أكان أحد من الجيران عندكم في تلك الساعة ؟ فحسبت انها تطلب شهودا على الواقعة وقلت لها : كثير . . فلانة . . وفلان .

فلم تمهلني أن اتم اسماء جاراتنا اللاتي تعرفهن وجعلت تربت على كتفي وتقول : وأنت العاقل يا عباس تقول هذا ؟ إن أمك لا تبغضك ولا تدعو عليك ولكنها تصرف الفطرة . .

وحتى اسمه « عباس » هذا شكل منه موقفا . . لقد حاول احد المعلمين في المدرسة ان يدعوه باسم عباس حلمي وقد كانت العادة الشائعة أن لا يدعى التلاميذ في المدارس المصرية بأسماء آبائهم انما يلقبون بألقاب مثل حلمي وصبري ولطفي وشكري . . فكان لا بد وأن يدعى العقاد بعباس حلمي خاصة وأن الجالس على عرش مصر في ذلك الوقت هو

---

(٣) « انا » للعقاد ص ٥٣

الخديوي عباس حلمي . وهنا اعترض العقاد على هذا الاسم مؤكدا أن اسمه الذي لا يتغير هو عباس محمود العقاد وليس أي شيء آخر ويذكر أنه سمي باسم (عباس) تبركا باسم عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس لأن خديوي مصر كان بهذا الاسم .

كذلك نلمس نزعة الوقار المتأصلة في نفسه من أنه رفض في سن مبكرة أن يرتدي البنطلون القصير حيث يقول[4] « وحسبي ان اذكر انني لم البس قط بنطلونا قصيرا وأصررت كل الاصرار على رفضه مع فرحي بالملابس الجديدة المجهزة لدخول المدرسة مع زملائي واقربائي . وقد كنت من أصغر التلاميذ سنا في السنة الاولى الابتدائية . وكانوا جميعا بالبنطلونات القصيرة ما عداي فقد أصبح ايجاد البنطلون الطويل لمن كان في مثل سني مشكلة تجارية في المدينة الصغيرة ، لو لم يسعفني طول القامة الذي جعلني اطول من لداتي بنحو سنتين » .

كذلك نستظهر موقفا له في سلوكه هذا . . لقد كان يفضل الجلوس مع أصدقاء أبيه وهم شيوخ فيما بين الأربعين والسبعين حيث يمر الوقت في أحاديث حول السياسة والأدب وغيرهما ويقرر العقاد بأن هذه الجلسات أفادته حيث يقول[5] وقد أفادتني هذه الجلسات كل فائدة تاتي من التوقر قبل سن الوقار وقلما يخلو من بعض الاضرار .

ولكن فائدتها الكبرى كانت ولا ريب معرفتي بالقاضي احمد الجداوي رحمه الله . فانه كان من الادباء الفقهاء الذين عاصروا السيد جمال الدين الافغاني وأخذوا عنه دروس الحكمة والغيرة القومية ، وكان قوي الذاكرة واسع المحفوظ من المنظوم والمنثور ، حتى يصل الى القول بأن معرفته بهذا الرجل كانت من الدواعي التي حفزته للمطالعة والاقبال على الكتب والدواوين .

وفي هذه الجلسات التي كان يحضرها ويفضلها على غيرها مع أترابه ممن في مثل سنه سمع عن الشيخ محمد عبده كأكبر شخصية اسلامية في ذلك الحين حتى إذا زار مدرسته طرحت عليه كراسة انشاء العقاد كأحسن نموذج للكتابة في شيء صغير ، فأعجب به الشيخ محمد عبده اعجابا شديدا ، وقال وهو يربت على كتفيه « ما اجدر هذا أن يكون كاتبا بعد » .

ولعل هذه الكلمة من الشيخ محمد عبده كانت بمثابة السحر في حياة الصبي بعد ذلك

---

(٤) « انا » للعقاد ص ١٢٣

(٥) « انا » للعقاد ص ٣٢

فقد فتحت عينيه على هذا العالم الذي ليس له نهاية وهو عالم الفكر والأدب والفن وأصبح من دأبه أن يفكر في أن يكون كاتبا . . فنراه في سن مبكرة وهو تلميذ يصدر صحيفة باسم « التلميذ » محاكاة لصحيفة « الأستاذ » التي كان يصدرها عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية . . وعنها يقول[٦] وأفتتحها بمقال عنوانه (لو كنا مثلكم لما فعلنا فعلكم ، معارضة لمقال النديم المشهور (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) يعني بها الاوروبيين .

واقترنت بهذه الظروف رغبة ملحة في القراءة والكتابة بل في النظم والنثر المسجوع بعض الاحايين .

ولأجل ان يحقق امله في ان يكون كاتبا كان عليه اولا أن يتقن لغة اجنبية وثانيا أن يعرف طريقة للقراءة . فعن اتقان احدى اللغات الاجنبية اختار الانجليزية حيث كانت أسوان قبلة للأجانب يزورونها من كل صوب وحدب لما فيها من آثار خالدة وكانوا بطبيعة الحال يؤثرون في الحياة هناك ، وتهيأت الفرصة للعقاد لكي يتقن الانجليزية خاصة ، وأن المواد الدراسية كانت تدرس بهذه اللغة هذا من ناحية . وظروف مدينة أسوان كبلد سياحي يتصل بالسائحين الأجانب والصحف الانجليزية وكبار الموظفين الذين يفدون على المدينة لاقامة المشروعات الهندسية مثل خزان أسوان كل هذا يسر له اتقان هذه اللغة من ناحية اخرى . فقرأ في الأدب الانجليزي وأتيحت له الفرصة لكي يقف على أحدث ما أخرجته المكتبات الانجليزية فتوافرت له من جراء ذلك حصيلة أدبية كبيرة حتى انه قال عندما نصحوه بتعلم اللغة الانجليزية[٧] وعجبت وعجب زملائي من هذه النصيحة لأنني كنت من المتقدمين في هذه المادة على الخصوص ، وكنت أقرأ فيها بعض الكتب الادبية وأنا في السنة الرابعة الابتدائية .

وأما عن القراءة . . فقد أدمنها في سن مبكرة . . انه يحدثنا عن مطالعاته الأولى فيذكر مجموعة من أعلام الفكر الأوربي ممن القوا ظلالهم الهائلة على القرن التاسع عشر ولم يكن غريباً على هذا الصبي النهم للقراءة أن يحاول اقتناء مكتبة خاصة . وهنا يحدثنا[٨] على أن الرزق الذي يتيسر للضروريات لا يتيسر لشراء الكتب عن سعة . وأحمد الله أن شراء

---

(٦) « انا » للعقاد ص ٧٠

(٧) نفس المرجع ص ٥٨

(٨) « انا » للعقاد ص ٤٩

الكتب عن سعة لم يكن لازما في ايام صباي للاطلاع على أوائل المعرفة الادبية بل على المعرفة الادبية في مراحلها المتقدمة فلا أحسب أن المكتبة التي اشتريتها بنقودي في صباي زاد ثمنها على خمسين قرشا أو نحو الخمسين .

ولم يكن مصروفي يزيد على خمسة مليمات في اليوم إلا ليدرك خمسة قروش في الاسبوع ، اتسلمها كل يوم خميس فلا أشتري بها مأكولا أو فاكهة ولا أذهب بها الى ملعب البهلوان إن كان بالمدينة ملعب فاذا كان معي ثمن الكتاب اشتريته لساعته والا أعطيت العطار قرشين بعد قرشين حتى يتم الثمن المطلوب . .

وعندما انتهى تعليمه المنهجي باتمام المرحلة الابتدائية دخل جامعة كبرى من أوسع أبوابها . . ودخلها ليكون استاذا وليس طالبا تلك هي جامعة الحياة .

والحياة في كتابات العقاد تعني ارادة الحياة . . تعني لذة المصادمة مع عقباتها وأفكارها وتياراتها . . والانتصار عليها واشتهاء مجدها الذي يبقى ؛ مجد الفكر ومجد العلم ومجد الفلسفة والفن . حتى انه عندما سألوه متى تنفض يديك من اشتهاء الحياة ؟ قال : « عندما أفقد المجد ولذة القراءة والكتابة فاني افقد شهوة الحياة » .

واشتهاء الحياة في كتابات العقاد يرتبط أشد الارتباط بالثقة بالنفس ، فهو لا يتصور أن يحب الحياة اذا اقعده المرض عن القراءة والاطلاع . لقد ظل يداوي نفسه بيد ويلتقط القلم ويكتب بيد أخرى . . ذلك أنه اقتحم الحياة يفتش فيها عن مكان ولم تكن الحياة سهلة بالنسبة له ، ولم يكن الطريق ممهدا أمامه .

لقد نشأ والحياة تعطي لبعض الناس فتغدق في العطاء ، وتفتح أبواب العلم المنهجي امام عشرات من ابناء جيله . . يدرسون في المدارس النظامية والجامعات ويسافرون في بعثات الى حواضر الدنيا . . ولكنها معه كانت تقبض يدها فلا يتم تعليمه ، ويكتفي بهذه الشهادة المتواضعة « الابتدائية » تلك التي تؤهله للدخول الى الوظائف من ابوابها الضيقة ، فيشتغل بأعمال صغيرة لا تناسب طموحه واستعداده موظفا في القسم المالي بمديرية الشرقية ، ومدرسا في مدرسة متوسطة لا تدفع له راتبه طوال شهور تسعة ، وناظرا

---

(٩) الاخبار ١٤/ ٣/ ٦٤ رشدي صالح

لبعض الوقت ، وصاحب مرتب متواضع يتراوح بين الخمسة جنيهات والستة فاذا كان في أسوان جعل من وقته مسرحا للقراءة الغزيرة ، واذا عاش في القاهرة حاول أن يتعلم مهنة التلغراف وأنفق اكثر دخله على الكتب ووجد ان دخله الصغير يكفيه وزيادة ، ولم يكن اذن ضائقا لقلة الدخل بل كان مشغولا بانتزاع مكانة لائقة به .

وكان عليه في القاهرة أن يصادم الحياة ويصدمها . . وأتيحت له فرصة الاشتغال بالصحافة فأقبل على عمله الجديد يريد أن يصنع شيئا جديدا له قيمته ووزنه .

وكان عليه أن يستقيل من وظائف الحكومة ويهجرها ، الى غير رجعة . وقد فعل ذلك وكتب مقالاً عنوانه الاستخدام رق القرن العشرين ، فكان أول موظف مصري استقال من وظيفة حكومية بمحض اختياره ، فقد كانت الاستقالة من الوظيفة والانتحار في مستوى واحد من الغرابة وخطأ الرأي عند الناس إذ كان الشرف منوطا بالوظيفة الحكومية وكانت كلمة القائلين « ان خدمة الميري شرف » مثلا سائرا في كل طبقات الامة .

وقد بلغ نفوره من الوظيفة الحكومية أنه قال[10] « فلا أنسى حتى اليوم أنني تلقيت خبر قبولي في الوظيفة الاولى التي اكرهتني الظروف على طلبها كأنني أتلقى خبر الحكم بالسجن أو الاسر والعبودية اذ كنت أؤمن كل الايمان بأن الموظف رقيق القرن العشرين » .

ويذكر العقاد من جملة عيوب الوظيفة ومآسيها في رأيه ما يبرر منه هذا الموقف خاصة وأنه كان فقيرا محتاجا لراتبه وهو يذكر في هذا الصدد تجربتين مع الوظيفة .

التجربة الاولى[11] : كانت الرسائل تسمى يومئذ بالافادات وكانت للافادة صيغة مكررة لا تختلف عن الديباجة والتقفيلة كما كانوا يسمونها ، وكان من نماذجها ترتيب الالقاب من « حميتلو » الى « رفعتلو » الى « سعادتلو » الى « عطوفتلو » .

فاذا قلت صاحب الحمية او صاحب العطوفة بدلاً من حميتلو او عطوفتلو بطلت الافادة ووجبت اعادتها من جديد .

وكذلك تبطل الافادة اذا ختمتها بعبارة غير عبارة التقفيلة المعهودة وهذا ما لزم عرفناكم به افندم .

---

(١٠) « انا » للعقاد ص ٧٦

(١١) « انا » للعقاد ص ٧٧

وكان من البديهي ان تعاد أي افادة يكتبها العقاد . . وهو امر جعل العقاد يتخذ موقفا من الباش كاتب الذي يرد اليه افاداته باستمرار فيقول له موجها الكلام لهذا الباش كاتب[١٢] « يا أيها الحمار الأزعر امثلك يصحح الكتابة العربية . . وأنت لا تعرف منها غير الهجاء وكتابة العرض حالات ؟ »

ولم يصدق الرجل أذنيه ، وظن أنه أمام مجنون لا يؤمن أن يبطش به ويعتدي على حياته . . فقفز من كرسيه الى خارج الحجرة ينادي الفراشين والموظفين المساعدين .

والتجربة الثانية في عالم الوظائف حين كان يعمل بقسم تدوين الملكيات الزراعية . . أيام فك الزمام فكان ينفذ عددا من العقود ينجزه كل يوم ، ولا يزيد عليه ولو تراكمت الاوراق على المكتب كالتلال .

لهذا ولغيره من أسباب أولها شعوره بأنه مؤهل لعمل غير ذلك وأنه معد لأن يكون كاتبا كان موقفه النفور من الوظائف الحكومية . والعجيب أن هذا الموقف استمر حتى كانت وفاته . فلم ينضم الى وظيفة من الوظائف .

وكان عليه أن يختار الصحافة مهنة له . وفي اختياره لهذه المهنة تبرز عدة مواقف فبعد ان ينضم الى اسرة الجريدة التي كان يرأسها أحمد لطفي السيد . . يكتشف أن الحزب الذي يصدرها (الأمة) يضم بين صفوفه طائفة كبيرة من الاقطاعيين المصريين ذوي النزعة الارستقراطية فأحس كأن أسوارا كبيرة تحول بينه وبين أسرة تحرير « الجريدة » فيتركها ليشترك في تحرير صحيفة « الدستور » التي كان يرأسها المؤرخ والعالم محمد فريد وجدي . وتفانى في عمله الصحفي بالدستور .

ورب سائل يسأل وكيف يرضى العقاد العمل في صحيفة تعد مع صحيفة اللواء لسان حال الحزب الوطني ؟ كيف يقبل العمل في ظل حزب كان يرفضه شكلا ومضمونا ؟

والرد هو :[١٣] صحيح ان الدستور تعد بجانب اللواء لسانا ثانيا للحزب الوطني . ولكن صاحبها محمد فريد وجدي امتاز بحرية عقلية واسعة جعلته يصطدم احيانا بمصطفى كامل كما جعلته يفسح للعقاد ذلك الشاب الثائر أن يخالفه في بعض آرائه وبعض مبادئه

---

(١٢) المرجع السابق ص ٧٨

(١٣) مع العقاد للدكتور شوقي ضيف .

السياسية . . خاصة مبدأ السيادة العثمانية على مصر دون غضاضة .

ومن المواقف التي فسح فيها للعقاد مع مخالفتها لرأي الحزب الوطني حديث اجراه مع سعد زغلول وزير المعارف حينئذ دار حول ما كان يعزوه الحزب الوطني ومحررو اللواء الى سعد من تخليه عن اتمام مشروع الجامعة المصرية بوحي من الانجليز وقصر الدبارة وكان العقاد يحب سعد زغلول ويجله لمواقفه الوطنية وعلى رأسها تعريب التعليم في المدارس ، وجعل اللغة العربية لا الانجليزية لغة المواد المختلفة فقصده في اوائل شهر مايو سنة ١٩٠٨ واجرى حديثا معه حول تلك التهمة نشره في صحيفة الدستور وفيه نفى سعد زغلول التهمة نفيا تاما . . وأظهرت الايام براءته . وقد كان هذا الحديث اول حديث صحفي يجري مع وزير مصري[١٤] .

وبدأت مواقفه الجادة تبرز شيئا فشيئا . . فها هو يضمر للخديوي عباس بغضا شديدا تظهر اثاره حين رآه يحاول بعد وفاة الشيخ محمد عبده استئصال نهضة الاصلاح في الازهر حتى اذا استفحلت نقمة الازهريين عليه تحدث مع طائفة منهم وأقسم انه يغار على هذا الاصلاح غيرة شديدة . حينئذ غضب العقاد لما يعلم مقدماً من كذبه وسوء نيته ودبج مقالا طويلا آثر ان لا ينشره في صحيفة الدستور حتى لا يحرج صاحبها المعروف بآرائه الدينية المستقلة ، ونشره في صحيفة الاخبار . وثارت ثائرة الخديوي وحاشيته اذ دار المقال على ان الحكام لا يحتاجون الى القسم واليمين المغلظة لانهم يثبتون نياتهم بالأفعال لا بالأقوال . وكاد يقدم حينئذ للنيابة بحجة عيبه في الذات الخديوية الا انهم تراجعوا خشية أن يكون ذلك مجالا لاثارة القضية الازهرية على ألسنة الصحف وفي اطوار التحقيق والمحاكمة والدفاع .

وتتوقف صحيفة الدستور بسبب الضيق المالي ويتعطل العقاد عن العمل وينضب معين رزقه . ولكنه لا يمد يده الى احد ولا يفرط في مبادئه او مواقفه ويبيع كتبه ليقتات من ثمنها . وتتفاقم ازمته ويحل به ضيق شديد ، يجعله لا يتمكن من تسديد ايجار مسكنه في القاهرة . يضاعف من هذه الازمة وذاك الضيق ان المرض يداهمه فلا يجد بدا من مبارحة القاهرة الى بلدته اسوان ولكن المرض يشتد به حتى يظن نفسه انه قد اصبح فريسة لمرض الصدر وكان في حقيقة الإمر فريسة للفقر والجوع .

---

(١٤) انظر نص الحديث في نهاية هذا الكتاب

ويعود مرة ثانية الى القاهرة محاولا بارادته وعزمه أن يصرع هذه الافكار السوداء التي تسيطر عليه . . فيشترك في تحرير مجلة البيان ويقدم فيها ترجمات قيمة استرعت اليه أنظار الكاتب المشهور « محمد المويلحي » مدير قسم الادارة بديوان الاوقاف فيختاره مساعد كاتب بالمجلس الأعلى للأوقاف وتتيسر له امور الحياة شيئا فشيئا ويبدأ في الكتابة والنشر .

لكن أبواب الرزق تغلق امامه من جديد بسبب هذا الموقف !! فبينما كان يعمل في الأوقاف اكتشف اختلاسات الخديوي لاموال الاوقاف الخيرية فهاله الامر ولم يسكت فكتب في الصحف بدون توقيع يقترح الاقتراحات ورد الاختلاسات فضاقت به بطانة الخديوي . وهنا حاول الانجليز الاتصال به لاستخدامه ضد الخديوي حيث كانت علاقته بهم قد ساءت ، ومن عجيب الامر أن العقاد يعرض عن السكرتير الشرقي الانجليزي وينفر من مصانعته حيث لا يقبل على نفسه ان يكون مخلب قط حتى ولو كان ضد انسان خصم له . ورغم هذا . .
. . رغم موقف العقاد من الانجليز وبأنه لم يقبل استخدامهم له ضد الخديوي رغم كل هذا فان رجال الخديوي كادوا له واخرجوه من عمله بالاوقاف فعاد من جديد الى البطالة والحاجة والعوز .

لكن كيف اخرجوه من وظيفته ؟ لقد وسوسوا[١٥] الى احمد حافظ عوض الذي أصبح المحرر الاول لصحيفة المؤ يد أن يزين للعقاد الاستقالة من وظيفته التي لا تلائم مواهبه الادبية ليعمل معه محررا في صحيفة المؤ يد ولم يكد يحدثه في ذلك حتى حن الى عمله القديم في الصحافة فاستقال وهو لا يعلم ما ينتظره .

في هذه الآونة يبرز موقف جديد من المواقف العقادية الخالدة . . ففي غضون ١٩١٤ يقوم الخديوي برحلة في الوجه البحري يحاول ان يجمع بها الصفوف من حوله واصطحب معه احمد حافظ عوض ليكتب مشاهداته في الرحلة على صفحات المؤ يد وليصوغ ما يكتبه بعد ذلك في كتاب يسمى كتاب الرحلة الذهبي ، وتمهيدا لما سيحدث للعقاد بعد قليل تعهد له تحرير المؤ يد في أثناء غيبته بعد ذلك أن يقدم للعقاد رشوة كي يشارك في الكتاب الموعود ، وما يحمل للخديوي من مبايعات ومن ورود الثناء وهنا غضب العقاد لكرامته وترك المؤ يد الى غير رجعة مؤ ثرا عليها الجوع والمرض .

---

(١٥) مع العقاد للدكتور شوقي ضيف

ويعود الى أسوان مرة ثانية ويعكف على التأليف اياما ويبقى في بلده بعد أن توقفت معظم الجرائد والصحف بعد قيام الحرب العالمية الاولى واعلان الاحكام العرفية . . التي مضت تسجن وتنفي الوطنيين الى أوروبا او الى مالطة . . وكان ممن نفتهم كما يذكر العقاد[١٦] الى الجزيرة الاخيرة ناظر مدرسة المواساة الاسلامية بأسوان فخلفه العقاد في عمله تحديا للسلطة الغاشمة وعنف مدير اسوان وبطانته بالشعب ، عنفا شديدا ، وكانوا يلتقون مع سراة البلدة في نادي نقدوا فيه المباح الى ما لا يباح فكتب العقاد مقامة عنوانها « نادي العجول » نحا بها نحو الهجاء اللاذع . واستهلها بقوله على لسان المدير رئيس النادي : « ان العجل مدني بالطبع ونحن معشر العجول ـ قد ميزنا الله على بني آدم بضخامة الاجسام وصلابة القرون » وانتشرت هذه المقامة اللاذعة على كل لسان فغضب المدير ، واستعدى على العقاد مفتش الداخلية الانجليزي فحددت اقامته ، ووضع تحت مراقبة شديدة ، واخذ يكتب شكاوى كثيرة تصور ظلم المدير والمفتش وبغيهما وفسادهما الى جعفر والى باشا وكيل وزارة الداخلية ، وتحين له فرصة الهروب من هذه الرقابة الى القاهرة حيث يلتقي بجعفر باشا ليبلغه ما يقترفه كل من المدير والمفتش بأهل بلده فأمر جعفر باشا باحالة المدير على المعاش ونقل المفتش من اسوان بل والاكثر يسر للعقاد عملا في الرقابة على الصحف .

وكان من الطبيعي أن يستقر العقاد في هذا العمل الجديد الذي اختاره له صديق الادباء جعفر باشا والى بعد أن وقف على سوء حالته المالية وبأنه عاطل من كل شيء لكن كيف تصمت نفس العقاد وقد جبلت على ألاَّ ترى منكراً وتتركه ، انه يقص حكايته مع الرقابة التي استمرت اياما لا يزيد عددها على أصابع اليد والواحدة .

والسبب هو الموقف والتزامه ان لا تنشر عليه التنبيهات بان اخبارا تنشر وكان ينبغي ان لا تنشر واصطدم به الرقيب الانجليزي . ويصف العقاد هذه الواقعة حيث يقول[١٧] : أجبت الرقيب العام الانجليزي بكلام فحواه أنني لا أفهم المقصود بالعطف معهم . ولكنني لا أبقى في هذا العمل . اذا كان يتطلب مني شعورا لا افهمه وله ان يتقبل استقالتي مشكورا على قبولها وهكذا عجزت بحمد الله عن مهمة الرقابة بعد أسبوع واحد . وكدت أعجز عنها بعد يومين أو ثلاثة .

---

(١٦) حياة قلم للعقاد صفحة ١٥٦ ـ ١٥٧
(١٧) حياة قلم للعقاد ص ١٦٢

وعاد من جديد الى البطالة ولم يجد أمامه عملا بعد تعطيل الصحافة وتقييدها . فاتجه الى التعليم بالمدارس الحرة مع صديقه المازني وفي هذه الاثناء يعرض عليه الدكتور صروف مراسلا حربيا في الخطوط الامامية في صحراء سيناء . فلما سمع هذا الاقتراح قال للدكتور صروف في حضور المندوب الانجليزي انني لا اكره ان ابث الطمأنينة في قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم اذا كان المصريون هم الذين يقومون باعباء هذا الدفاع أما ـ وهو كما يحدث الآن ـ من عمل دولة الحماية فليس من المعقول ان ارفض الحماية واقبل دفاعها .

وتنقطع عنه أسباب الرزق حيناً قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى فيأوي الى بيته الذي اختاره بحي الامام الشافعي متعمدا حتى يكون بعيدا عن القاهرة بتكاليفها فلم يكن يفد عليها الا مرة في الاسبوع هي يوم السبت وفي احدى هذه الزيارات يعلم أنه مطلوب للتحرير في صحيفة « الاهالي » بالاسكندرية فيوافق على العمل بهذه الصحيفة ولكن سرعان ما يتركها وهو المحتاج ماديا عندما شرعت في مهاجمة الرأي السياسي الذي كان يتشيع له ليعمل في الاهرام حيث تيسر له ان يدافع بقلمه عن القضية الوطنية .

ولعل أقسى فترة في حياته هي التي اعقبت خروجه على حزب الوفد فقد ذاق فيها الضيق المادي بصورة بشعة فلم يكن في يده المال الذي يشتري به اكثر من جريدة واحدة في اليوم . وتوقف بالطبع عن شراء الكتب . ويذكر احد اقاربه سيد العقاد كيف كانت حالة العقاد في هذه الفترة حيث يقول[١٨] اني طلبت منه خلال تلك الفترة اجرة السفر الى اسوان بمناسبة اجازة نصف السنة المدرسية . وكانت حوالي جنيه ونصف جنيه بالدرجة الثانية . فلم يعطني سوى جنيه واحد فقط لاسافر بالدرجة الثالثة على ان أرسله اليه من أسوان بعد ان آخذه من والدي . . ولا انتظر مدة الاجازة وهي اسبوع لاحضره معي .

ولقد حاول ان يخرج من هذه الازمة المالية بطريق شريف فأصدر جريدة يومية تدر عليه دخلا يعيش منه ، وتبنى هذا المشروع احد الاثرياء السودانيين وهو المرحوم ابراهيم عامر ، ولكن لم تستمر فقد حاربها الوفد حتى توقفت .

وعلى أثر حرب الجوع التي شنها حزب الوفد عليه وقف الى جانبه تلاميذه الذين كانوا يبيعون كتبه بأنفسهم ويعودون اليه بقيمتها المادية حتى لا يحتاج ولا يمد يده . ونفس هذا

---

(١٨) المساء ١٠/٣/١٩٦٦ .

الامر فعلوه مع كتابه « سعد زغلول » حيث اعلنوا ان ثمن الكتاب قبل الطبع أقل من ثمنه بعد الطبع بقيمة الثلث فاقبل المواطنون على شراء الكوبونات التي طبعت لهذا الغرض وفي اسبوع واحد بيع اكثر من ثلاثين الف كوبون فحصل العقاد على ثمن الطبع من الربح واعتمد عليه فترة من الوقت لا تقل عن سنة تقريبا .

وهكذا أمضى العقاد هذه الفترة ومثيلاتها من فترات الشدة والازمة بالنسبة له ، وما اكثرها في حياته . . فليس لديه ثروة كبيرة يرتكن عليها ، وليس له راتب ثابت . . . وانقضت هذه الفترة القاسية دون أن يعتمد على أي انسان أو يمد يده لأي جهة . ولعل مثل هذه الوقائع كانت تجعل العقاد يقول دائما[19] « إني احمد الله على شيء واحد . . هو أنه لم يلجئني للاحتياج الى احد في اي وقت من الاوقات فقبل أن تفرغ جيبي من النقود يكون الفرج في الطريق » .

وللعقاد موقف أيضا من المناصب . . فقد كان لا يرضى بمهنة القلم بديلا . . وتروي الدكتورة نعمات فؤاد قصة حول ذلك تقول فيها : « كان فريق من كبار رجال الصحافة اعضاء في مجلس الشيوخ ، وأريد الانعام عليهم بالباشوية لكن لما كان القانون يحرم الانعام برتب أو نياشين على أعضاء البرلمان . اشترط عليهم أن يستقيلوا من المجلس ليظفروا بالانعام السامي ثم يعاد تعيينهم في المجلس .

قبلت الاغلبية الاستقالة من عضوية المجلس لتظفر بالباشوية ومنهم خليل ثابت وانطون الجميل واخرون . . عضو واحد فقط رفض الباشوية هو العقاد .

وحدث عقب الافراج عن العقاد من السجن أن أوفد اليه القصر من يعرض عليه منصب مدير الادارة العربية في القصر بكافة مزاياها فرفض .

ثم بعد فترة عرض على العقاد منصب مدير دار الكتب فرفض ، وارتقى العرض الى مدير الجامعة فرفض .

وفي عهد تال عرضت عليه الوزارة في الائتلاف الدستوري السعدي فرفض .

عرض عليه أيضا وكالة الوزارة وعمادة كلية الآداب فرفض وقال انه لا يرضى عن قلمه بديلا .

---

(١٩) نفس المرجع السابق

وللعقاد موقف من الشهرة فهو ، وان كان يحب الشهرة والخلود إلا أنه لا يطلبها بثمن يهيض كرامته . وانه اذا احس بأن إنسانا يمتن عليه بشهادة يبذلها او شهادة يمنعها فلا نصيب له عنده غير التحدي الذي يذهب به الى الحائط ولتذهب الشهرة وليذهب الخلود معها الى الشيطان .

وعن التواضع يذكر العقاد أنه لا يزعم بأنه مفرط في التواضع ولكنه يعلم أنه لم يعامل إنسانا قط معاملة صغيرة أو حقيرة الا ان يكون ذلك جزاء له على سوء أدب .

ويعلم أيضا أنه يمقت الغطرسة على خلق الله ولهذا كان يحارب كل دكتاتور قدر استطاعته ولو لم تكن بينهما صلة مكان او زمان كما حارب هتلر ونابليون .

وله أيضا موقف من الصداقة حيث يقول[٢٠] من الصفات الحقيقية التي أعهدها في نفسي أنني لا اميل الى التوسط في الصداقة ولا في العدواة فلا أعرف إنسانا نصفه صديق ونصفه عدو وإنما أعرفه صديقا مائة في المائة أو عدوا مائة في المائة ولا تهمني مع ذلك عداوته اذا حفظها لنفسه ولكنه اذا تعقبني بها وابى الا ان يكشف عنها فهي الحرب التي لا توسط فيها كذلك . اما كاسر واما مكسور . . الا ان يريحني احتقاره من عناء هذا وذاك .

ومن صفات العقاد التي تعتبر موقفا من الحياة والاشياء ان الشك عنده كان قويا ، وعلة ذلك عنده معالجة التفكير المنطقي في كل شيء فليس أسهل في المنطق من فتح أبواب الاحتمالات ، أما اغلاقها - او الجزم بنصها فلا يكون الا ببرهان قاطع والبراهين القاطعة قليلة .

والكبرياء عند العقاد يفسرها الناس تفسيرات عدة . . وهو لا ينكر هذه الكبرياء بل يبررها ويعللها بالقول « فقد اراد الله - وله الحمد ان يخلقني على الرغم مني متحديا . . تحديا خصوصيا لكل تقليد من التقاليد السخيفة التي كانت ولا تزال شائعة في بلادنا » .

ومن امثلة الكبرياء عند العقاد ما يقصه حافظ محمود حيث يقول[٢١] أذكر انه وانا كنا مدعوين للخطابة في حفلة كان بقية الخطباء فيها بين رئيس وزراء ووزير سابق وأعد برنامج الحفلة بالترتيب الرسمي فرئيس الوزراء يسبق رئيس مجلس الشيوخ ورئيس

---

(٢٠) « انا » للعقاد صفحة ٢٨

(٢١) عمالقة الصحافة ص ٤٣

لمجلس النيابي يسبق الوزير وعضو مجلس الشيوخ وهو العقاد يسبقني وبهذا الترتيب جاء سمه واسمي آخر الأسماء . . .

ويومئذ سمعت رنين التليفون في بيتي قبل السادسة صباحا فاذا بالمتكلم هو العقاد . وهو في ثورة عارمة بعد ان اطلع من فوره على برنامج الحفلة في الصحف وإذا به يطلب الي أن أنذر منظمي هذه الحفلة اذا هم لم يعدلوا برنامجها بحيث يكون اسمانا قبل الاسماء الأخرى فإننا نحن الاثنين لن نشترك في هذه الحفلة . .

هذا العقاد المستعلي العنيف كان هو هو العقاد الذي يذوب رقة مع اصدقائه وتلاميذه . . حدث مرة أن التقى بي وهو يأخذ طريقه الى داخل احدى دور السينما بينما كنت انا وقفا في الطابور الطويل امام شباك التذاكر فاذا به بعد التحية يقول لي : « مالك هكذا متأخر » . . . وبعد ان دخل وجلس دقيقتين خرج اليّ ليصحح ما كان لا يحتاج للتصحيح من عبارته اذ قال : اقصد أنك متاخر في ترتيب الواقفين أمام شباك التذاكر فقط اما كلمة ـ متأخر ـ على اطلاقها فلا يمكن ان تطبق عليك » .

والعقاد كان يتحدى التشاؤم في كل صورة من الصور التي اصطلح الناس عليها . فاحتفظ مثلا فوق مكتبه بتمثال للبومة المضطهدة واتخذ دارا بمصر الجديدة رقمه ١٣ ، وحين قرر بناء منزله باسوان شرع في بنائه يوم ١٣ مارس بل وقسم مكتبته الى ١٣ قسما . وكتب عن ابن الرومي المقرون دائما بالشؤم .

لكن من الغريب حقا أنه دفن في اسوان يوم ١٣ مارس فهل انتصر عليه التشاؤم في آخر المطاف ؟

وموقف العقاد من الناس يحدده في خطتين خطة اتبعها فيما يصيبه من الناس ، وخطة اتبعها فيما يصيب الناس منه فاستراح كثيرا من تبديد شعوره في غير طائل وعرف كيف يكون الاقتصاد في انفاق ثروة الحياة وخطيته فيما يصيبه من الناس فهي أن يتناول طباعهم واخلاقهم جملة واحدة ولا يفرق بينهم على حسب اختلاف الاشخاص والافراد .

ويفسر العقاد ذلك حيث يقول[٢٢] « كان الخلق الواحد في مبدأ الأمر يسبب لي الالم وخيبة الرجاء . . عشرات المرات بل مئات المرات وكنت في كل مرة أشعر بصدمة المفاجأة

---

(٢٢) علمتني الحياة ص ٢٧ .

كأنني اكتشف شيئا جديدا لم اتوقعه من قبل .

ثم تعودت مع الزمن أنه أجعل للناس جميعا حسابا واحدا في رصيد المكسب والخسارة . فهبطت الخسارة كثيرا على الأقل . . وهذا في حد ذاته مكسب معدود .

تعودت أن اجمع الاخلاق الى انواعها وأن اضع كل نوع منها تحت عنوانه : في الناس انانية . . في الناس صغار . . في الناس سخافة . . في الناس نقائض وغرائب . . وهكذا وهكذا . . الى آخر هذه المعلومات التي توارثناها نحن أبناء آدم وحواء فليس فيها من جديد .

فاذا أصابني من الناس شيء مكدر رجعت به الى عنوانه فوجدته مسجلا هناك ولم يفاجئني بما لا انتظر : في الناس انانية . . في الناس صغار . . نعم . . نعم . وماذا في ذلك ؟ الم تعلم هذا من قبل ؟ بلى علمته مرة بعد مرة . . فما وجه الاستغراب ولماذا الالم والشكوى ؟

وراقبت نفسي طويلا فوضعت نفسي في القائمة . . وتعودت أن اقول لها كلما اصابها ما يكدرها : وانت أيضا كذلك ، فلا محل للحساب والعتاب .

اما خطتي فيما يصيب الناس مني فهي ان اسأل نفسي كلما شعرت بسخطهم او انتقادهم « هل الامر يعتبني ؟» وبعبارة اخرى : « هل يضيرني ان افقد رضاهم وهل يعنيني ان افقده ؟

فاذا كان في الامر ما يضير أو ما يعيب فالأمر يعنيني . ولا بد من معالجته بما أستطيع والا فلا وجه للتعب والاكتراث وعولت دائما على المقياس العملي لأن الجري وراء النظريات لا ينتهي الى غاية . . فكنت أضع امامي على الدوام خمسة أو ستة من الذين أعرف أنهم من اصحاب الحظوة عند الناس وأن الناس لا يسخطون عليهم ولا ينتقدونهم فأتساءل : هل يسرك أن تكون مثلهم وأن تحصل على الرضى كما حصلوا عليه ؟

ـ وكان جواب هذا التساؤل نافعا لي على الدوام لأنه يحدد لي العمل اللازم أو يعفيني من كل عمل ويبين لي في معظم الأحوال أن ثروة الرضى والثناء عملة زائفة او عملة صحيحة على أحسن الوجوه . . ولكن الاستغناء عنها غير عسير » .

ويروي لنا واحد من اخلص تلاميذ العقاد هو الاستاذ انيس منصور بعض القصص التي تبدو أنها مواقف للعقاد . والتي سجلها على صفحات آخر ساعة حيث يقول[٢٣] وكان

(٢٣) رجل عظيم من اسوان اخر ساعة

العقاد يعتز بالفكر ويرى أن المفكر هو أعظم مخلوقات الله . وأن الله قد أعطاه الموهبة أو الصفة التي رفعته عن الحيوان للانسان ولذلك يجب أن يرفع رأسه وأن يرتفع . وكان العقاد عاليا عملاقا وكان الذي يزور العقاد يشعر أنه قد أضيف اليه بضعة أمتار عن سطح الارض عن رؤوس الآخرين ولذلك تعذب العقاد ولم يحن رأسه وجاع ولم يمد يده . . باع كتبه ولم يبع نفسه . .

قال لي ابراهيم عبد الهادي باشا منذ يومين : إن العقاد كان نموذجا للاباء والكبرياء وانه تعذب كثيرا بسبب ذلك . ولكنه ظل في حياته الخاصة والسياسية والادبية الرجل العظيم الاحترام لنفسه ولغيره .

وكان العقاد قاسيا على نفسه . . فهو لم يكن موظفا ولكن له كل ما للموظفين فهو يصحو في ساعة معروفة ويجلس الى القراءة والى الكتابة ساعات . وبعدها ينزل من مصر الجديدة الى القاهرة ويتردد على المكتبات المعروفة . وبعد ذلك يذهب الى بعض اللجان ثم يعود الى بيته في ساعة محددة يأكل المسلوق وينام . ويبدأ القراءة والكتابة ثم يتمشى ليعود الى بيته ليستمع الى الموسيقى ويأكل وينام وهو الذي وضع هذه القواعد لنفسه والتزم بها .

وهو يطلب من الناس أن يحرصوا على القواعد والآداب والاصول تماما كما يفعل هو .

وأنا أعرف أن للعقاد نوادر محرجة ومضحكة أيضا ولكنه لم يرها كذلك ففي احد الايام جاءه الحاج عبد الرحمن السقاف من سنغافورة يطلب ترجمة مؤلفات العقاد الاسلامية ونشرها في الشرق الاقصى مقابل عشرة الاف جنيه استرليني . وفرح العقاد بذلك وأبدى الحاج عبد الرحمن رغبته في زيارة العقاد . وتحددت الساعة الخامسة بعد الظهر . وأنا أعرف جيدا ماذا يحدث في بيت العقاد في هذه الساعة فقبل هذا الموعد بعشر دقائق تماما ينادي العقاد خادمه ويطلب اليه أن يعد عصير الليمون والقهوة وأن ينتظر . ثم يرتدي العقاد بدلته وطربوشه ويدخل غرفة الانتظار قبل الموعد بدقائق . وينتظر ثم يقول لابن أخيه عامر العقاد: انتظر السيد فلان انه سوف يجيء في الخامسة .

وجاءت الخامسة ولم يحضر الرجل . ومضت خمس دقائق طويلة ولم يحضر الرجل وبدأ الضيق على العقاد ولما كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق نادى العقاد بصوته العالي يقول : اغلق الباب اذا جاء هذا الرجل الهلفوت فقل له ان الأستاذ نزل الى الشارع .

أما هذا الرجل الهلفوت فلم يكن هلفوتا . وانما هو من كبار الشخصيات العربية في

سنغافورة ومن اكثر الناس حبا للعقاد . ثم انه جاء الى مصر من ألوف الاميال ومن الممكن أن تكون المواصلات وإشارات المرور وجهله ببيت العقاد قد عوقته بعض الشيء . ولكن هذه الأعذار لا يقبلها العقاد . لأنه شديد الحرص على مواعيده مع الناس ومواعيد الناس معه . .

وفي الخامسة والربع جاء الرجل القادم من سنغافورة ودخل ومد يده للعقاد يقول : آسف يا استاذ . . فالمواصلات . . الخ وقال العقاد غاضبا : نعم هذه مسألة موجبة للأسف .

وهو رد عنيف ولكن الذي في نفسه اعنف من ذلك .

واحس الرجل القادم من بعيد أن العقاد قد ضاق به فاستاذن وخرج .

وفي اليوم التالي طلب العقاد في التليفون احد المسؤ ولين في المؤتمر الاسلامي وقال له : يا استاذ لقد جاءك الرجل من آخر الدنيا ولا يعرف بيتك . وجاء يشتري كتبك تقابله أسوأ مقابلة ؟ وثار العقاد وهو يقول : وهل تتصور ان رجلا لا يحترم مواعيده نقيم له حفلة تكريم ؟

وعندما مرض العقاد وكان لا يتقاضى مرتبا ثابتا ولم نعرف كيف نعين العقاد على مرضه وذهبت إلى الاستاذ مصطفى أمين أحكي له ظروف العقاد . فأرسل اليه مصطفى امين خطابا يقول له فيه : انه شرف عظيم لمؤسسة أخبار اليوم أن يكون العقاد كاتبها وان اخبار اليوم قررت ان تعين العقاد بمرتب سهري وان تدفع له مرتبه مقدما وتتمنى له الشفاء وتنتظر مقالاته كما تنتظر رؤيته بشوق عظيم واحترام أعظم .

واخذت الخطاب الى العقاد في بيته ولكن العقاد اعتذر عن الفلوس وعن الكتابة .

وعندما ثقل المرض على العقاد زاره ابراهيم باشا عبد الهادي وجلس على طرف السرير وترك مجلة امريكية ولما مد العقاد يده يرى المجلة تساقطت منها مئات الجنيهات وصرخ العقاد يقول : خذوا هذه المجلة والفلوس واعطوها لدولة الباشا مع الشكر .

وعندما أعددت حديثا للعقاد في التليفزيون دفع له التليفزيون مائتي جنيه ونشرت « الاخبار » ان « الاستاذ العقاد قد تقاضى مبلغ ٢٠٠ جنيه عن حديثه في التليفزيون » .

وغضب العقاد جدا وطلبني في اليوم التالي وهو يقول : وهل كثير هذا المبلغ على رجل

مثلي امضى من عمره ستين عاما في القراءة والكتابة . . هل كثير على العقاد في بلد كهذا ان يتقاضى هذه الأجرة مرة في عمره . . ان احقر راقصة تتقاضى هذا المبلغ في هزة او هزتين . .

فقلت في دهشة : ولكن احدا يا استاذ لم يقل شيئا من ذلك . لا أحد بل إن الناس جميعا أسعدهم ان يسمعوك وان يروك . .

- يا سيدي إن الفلوس لا تهم العقاد . . ولم تشغل العقاد

- ولكن من الذي قال ذلك ؟

- اقرأ جريدة « الاخبار » يا مولانا . . انها نشرت الخبر ووضعت في نهايته علامة تعجب . علامة تعجب من ماذا ؟ بل إن هذا هو الشيء الذي يدعو الى العجب .

وتعبت في اقناع العقاد أننا نسرف في وضع علامات التعجب بلا مناسبة حتى لم تعد هذه العلامات الا عادة او مجرد بديل عن النقطة الواحدة إننا نستخدم النقط الكثيرة هكذا . . فكأن هذه النقط هي علامات تعجب انكسرت عندما وقعت على السطر .

وقبل ذلك عندما صدرت مجلة « الشهر » التي رأس تحريرها الاستاذ أحمد الصاوي محمد . وكنت مع حسن فؤاد وعبد السلام الشريف وكل هيئة التحرير فيها وكان يملك هذه المجلة الاستاذ حامد العبد زوج السيدة لطفية العبد فطلبت من العقاد أن يكتب لنا مقالا طويلا . وسألني : كم يكون طوله ؟ فقلت له : عشرون صفحة قال : وهو كذلك يا مولانا .

وكان يستخدم كلمة مولانا « لكل الناس وعليك ان تفسرها على هواك : احتراما واحتقارا . وسلمني المقال في الموعد المحدد واسعدنا المقال ان يكتبه العقاد . وان لم يكن قد اسعدني كل ما جاء في المقال ففي ذلك الوقت كنت ادعو للفلسفة الوجودية واقوم بتدريسها في الجامعة . وأصدرت منها اول كتاب سهل في اللغة العربية وبعت منه اكثر من مائة الف نسخة في سنة ١٩٥١ . .

وقررت المجلة أن تدفع للعقاد ثلاثين جنيها عن المقال ورأيت ان هذا المبلغ قليل جدا وخشيت أن اعطيه للعقاد فيغضب وخشيت أيضا ان أبعث به مع احد الاصدقاء فيغضب اكثر . فذهبت للسيدة لطفية العبد وطلبت منها ان ترفع مكافأة العقاد لانه العقاد . .

ولانه شرف عظيم لنا جميعا ان يكتب العقاد . . وامسكت القلم وغيرت في الرقم فجعلته خمسة وثلاثين جنيها وقابلت الاستاذ العقاد وأعطيته الشيك ووضعه في جيبه وسألني ان كان عندي مانع في ان ارافقه الى البنك فقلت يسعدني يا استاذ .

وسرنا معا وذهبنا الى البنك وأمسك العقاد الشيك ووقعه واعطاه لصراف البنك وقلب الرجل في الشيك واحمر وجهه ثم تواري وعاد يتصبب عرقا وهو يقول : مع احترامي العظيم لك يا أستاذ ولكن الشيك فيه تغيير والسيدة التي غيرت في الشيك لم توقع مرة أخرى بجوار هذا التغيير . . طبعا حضرتك الاستاذ العقاد وكلنا معجبون بك ولكنه الروتين يا استاذ .

وغضب العقاد ولم أجد رأسي فوق كتفي وبسرعة امتدت يد العقاد وتحول الشيك الى قطع تشبه ريش عصفور.أبيض انفجرت فيه قنبلة . . وافترقنا عند باب البنك ولم أعرف بالضبط ما الذي حدث وذهبت فورا الى السيدة لطفية العبد ورويت لها ما حدث ولا اعرف ان كانت السيدة قد اهتزت لما اقول ولا بد انها اشفقت تماما على هذا الشاب الصغير الذي اصيب في عزيز لديه . . واقترحت ان تعطيه خمسين جنيها بلا شيك . ووافقت ثم ترددت اذ خشيت ان يظن العقاد ان هذه الأموال قد جمعناها من جيوبنا نحن الذين نحبه . . او أنها كانت أكثر او كانت أقل . ووافقت السيدة على كتابة شيك آخر ذهبت به الى العقاد في بيته . . وكانت الساعة التاسعة مساء وكان الاستاذ نائما فحمدت الله وتركت الشيك وانا مطمئن ان الاستاذ لم يغضب الى درجة تمنعه من النوم المبكر .

ولعل اهم وجه في مسيرة العقاد الانسان أنه اول نموذج عرفته مصر لما يمكن ان نسميه الاديب المتفرغ والادبي من رفاعة الطهطاوي الى طه حسين لا نكاد نجد اسم علم واحد من الاعلام كان يكسب قوته من فكره وأدبه الا اذا كان من تلك الطبقة المترفة التي اغناها مالها عن العمل في اي نوع كان . وعامة من نعرف من اعلام الفكر والادب كانت لهم صفة أساسية اخرى كالأستاذية في الجامعات أو التدريس في المدارس والمعاهد او المحاماة او الطب او العسكرية او العمل في وظائف الدولة البيروقراطية او الفنية او الادارية وكان الادب والفكر في حياتهم شيئا هامشيا مهما أصابوا فيه من مجد او مكانة . العقاد وحده هو نموذج الكاتب العصامي الذي شق طريقه في الحياة بقلبه وأبى ان تكون له صناعة أخرى غير صناعة القلم يعتمد عليها في رزقه . ولا شك ان تاريخ الأدب العربي القديم حافل بأسماء اعلام الشعراء المتفرغين الذين كانوا يكسبون قوتهم بشعرهم ولكن عامتهم كانوا يكسبون قوتهم بالمدح والهجاء . ويوالون القبائل وأهل السطوة ليتفرغوا الى نظم الشعر في

فنونه الأخرى . ولكن العقاد بحكم تكوينه النفسي والعقلي ، وبحكم شموخه وتعاليه وعناده وصلابته واستقلاله في الرأي لم يكن يوالي الأحزاب السياسية لمجرد الارتزاق ، حتى يتفرغ للفكر والأدب وإنما كان يواليها على أساس عقائدي صائب أو خاطىء ولكنه عنده الاساس في كل ولاء وقد استطاع العقاد أن يثبت للعالم العربي كله ان الكتابة مهنة ووظيفة في المجتمع لا تقل شرفا عن المحاماة أو الطب او الهندسة او الأستاذية أو أية مهنة أخرى . وقد كان الناس ينظرون في أيامه الى الاديب على انه (ادباتي ، ويلحقونه بطائفة المداحين والهجائين التي تعيش طفولية على غيرها من الطوائف . وهذا هو السر في ان أدباء الجيل الماضي والاجيال السابقة عليه بما فيهم الفحول كانوا يجزعون امام زراية المجتمع بالادباتي ويجزعون أمام مصير الادباتي فكانوا لا يمارسون الأدب كوظيفة في الحياة بل يمارسونه كنشاط مكمل حتى جاء العقاد . وشق بقلمه هذا الطريق الجديد الوعر الذي سبق لأدباء اوروبا وامريكا ان شقوه من قبل باقلامهم . فضرب المثل لكتاب الاجيال الجديدة باخلاصه لذات ألادب وبشجاعته وصبره على المكاره . حتى أصبحت الصحافة والأدب والفن بل والفكر أيضا وظائف معترفا بها في مجتمعنا المتطور . ولم يكن العقاد بفضل موهبته وتوافره على العمل وشموخه وتعاليه ليرضى بمكان للاديب او للمفكر دون الرأس والقمة العالية في المجتمع ومن هنا كانت جهوده وصراعاته وصداماته مع الاشخاص او الأحزاب أو اجهزة الدولة لا تخرج عن ان تكون محاولات للبحث عن مكان « الأديب » و« المفكر » و« الكاتب » في كل هذه التنظيمات والحركات الاجتماعية ومحاولات لاثبات ان الأديب أو المفكر او الكاتب الذي يقود الناس بقوة الفكر والعلم لا يقل مكانة وخطرا عن السياسي الذي يقود الناس بقوة الفعل والتطبيق . ولقد نجح العقاد فيما سعى اليه .

نختتم رصدنا لمواقف العقاد بما كتبه الدكتور لويس عوض في جريدة الأهرام تحت عنوان « صورة من سيرة العقاد » مؤصلا كيف استطاع العقاد بعصاميته الفذة وإرادته الصلبة ان يجعل الكتابة والادب والصحافة مهناً معترفاً بها في المجتمع .

وهكذا نرى من هذه المواقف التي رصدناها على سبيل المثال لا الحصر ان للعقاد موقفاً تجاه النفس وتجاه الاخرين من داخل النفس حيث يملك الموهبة والقدرة وتجاه الاخرين حيث قدم للمكتبة العربية ثروة ثقافية هائلة فترك على صفحة حياتنا الثقافية بصمات لا تنمحي .

وإذا كان للعقاد موقف تجاه النفس ، وتجاه الاخرين ممن يمثلون في نظره سلطة او قوة . .

فما هو موقفه من نصف المجتمع أعني من المرأة .

هذا ما تعالجه الصفحات التالية

مواقفه من المرأة

قد لا يكتمل تسجيلنا لمواقف العقاد في الجانب الشخصي من حياته كإنسان بغير رصد مواقفه من نصف المجتمع . من المرأة . . تلك المواقف التي جعلت من العقاد عدوا للمرأة في بعض الاحيان .

والغريب أن العقاد وقد وصفوه بأنه عدو للمرأة . . قد اهتم بهذه المرأة اهتماما لم نر له مثيلا عند واحد من أبناء جيله . لقد غطى هذا الاهتمام صفحات ثلاثة كتب للعقاد هي « المرأة في القرآن » و « هذه الشجرة » و« المرأة ذلك اللغز » الى جانب العديد من المقالات والأبحاث والدراسات والقصائد الشعرية المتناثرة على صفحات كتبه الأخرى ودواوينه .

ذلك أن الرجل الذي لقبوه بعدو المرأة احب المرأة . . وشرب كأس الحب الى النهاية . شربها نعيما غدقا . . وشربها لهيبا محرقا .

إن حكاية العقاد مع المرأة تشبه الى حد كبير الحكاية التي يرويها الزمان عن الاساطير والتي تقول انه مما يؤثر عن الأساطير أن الرب حين منح الرجل المرأة برم بها وشقي معها . فشكا الى ربه منها . . فاستعادها الرب اليه .

فلما رأى الرجل الحرمان من المرأة لم يطقه ولم يصبر على بعدها . فذهب الى ربه يطلب المرأة ثانية فقال الرب : الم تقل انك شقيت بها وانك لا تطيقها ؟

قال الرجل : ولكنني لا استطيع البقاء بغيرها انها الشر الذي لا بد منه .

حقا لقد هرب العقاد بجلده من الزواج . حتى لا يتقيد بالمرأة في حياته ولكنه لم يستطع ان يهرب من حب المرأة . . حيث اوقعه كيوبيد الشقي في شراكها اكثر من مرة . فلم يخل قلبه من حب حتى آخر لحظة في حياته حتى انهم وجدوا بجواره على فراش الموت ابياتاً من الشعر تؤكد ان هذا القلم الجبار يتحول في يد صاحبه الى قلب ينبض بأجمل العواطف وأرق الاحاسيس لأنه يعبر عن حب دفين للمرأة .

وما كتبه العقاد عن المرأة . . يدل دلالة قاطعة . . على أنه فهمها بوضوح او انه عرف الاف النساء وليس واحدة منهن اواثنتين او ثلاثاً ولم تكن علاقته بالمرأة هي مجرد دراسة أو بحث . . فلم تكن علاقة العقاد بالمرأة كعلاقة عالم يدرس « حالة » في معمل ، او باحث

عن الحقيقة في بطون الكتب . . ولكن كانت علاقته بها . . هي نفس علاقة المحب العاشق . . الذي عرف البكاء قلبه قبل ان يعرف عينيه وعرفت الجروح كبرياؤه قبل ان تعرف جسده وعرف الالم جوانب في نفسه قبل ان يعرف مواضع في جسمه .

وتعذب العقاد من جراء حب المرأة . . حتى كأن هذا العملاق قد وقع عقدا بين قلبه وبين العذاب فضاق بعشقها وتألم من فراقها ، وشقي بهجرها . . وذاق عذوبة القرب وتجرع مرارة الحرمان .

ويحكي صديقه ونجي سره محمد طاهر الجبلاوي[1] قصة لا تخلو من دلالة حيث يقول : « كنت أسير مع العقاد ذات مرة في الطريق عقب حفلة تكريم قد أقيمت له فرأيت بعض الناس يشيرون اليه بالبنان فلفته الى ذلك لينتبه فقال : الا يدري هؤلاء الناس ان الرجل الذي يشيرون اليه هو اشقى رجل في الحياة .

وكانت قد المت به ازمة عاطفية اثارتها المرأة فاكتوى بنيرانها فترة من الزمن . . ومثل هذه الازمات العاطفية . . التي كانت تصيب العقاد بين آن وآخر . . جعلت بعض نقاد الادب ودارسيه يربطون بينها وبين عنف مواقفه بصفة عامة . لقد ربط انيس منصور بين حب العقاد لسارة وما اصابه بعد ذلك من جرح عميق وبين موقفه من المرأة حيث قال[2] وسارة هي المسؤولة عن كل ما اصاب المرأة من قلم العقاد . . فالعقاد يراها تافهة . . ويراها عاشقة للقوة والشباب . . ويراها لا تقدر الرجل ويرى أن المرأة ضيقة الأفق . . وان أفقها لا يتسع لأكثر من ثلاثة او اربعة اشخاص هم : ابوها وزوجها وأخوها وابنها . . فهذه هي الدنيا بالنسبة للمرأة . . ويرى العقاد ان حياة المرأة تتلخص في سطر واحد . . كل حياة المرأة من اولها لآخرها هي : انها تضع الاحمر والابيض وتعرض نفسها في الشارع او النافذة وتنتظر الرجل . . »

سارة هي المسؤولة عن كل ما جاء على لسان العقاد من معاني الخيانة للمرأة . . فهو الذي قال : « خنها . . خنها . . ولا تخلص لها ابدا تخلص الى اغلى غواليها . . »

بل وهذا هو المدهش بعينه ان هذه الازمات العاطفية التي كانت تسببها له المرأة كان لها تأثيرها على مواقفه السياسية . ان العقاد يعترف بذلك للاديبة جاذبية صدقي في حديث

---

(١) محمد طاهر الجبلاوي - من ذكرياتي في صحبة العقاد ص ١٥٩

(٢) انيس منصور - يسقط الحائط الرابع ص ١٧٣

له[٣] انه كان يستخدم مع (مي) - اذا تشاجرا - طريقة واحدة لا يغيرها حتى تجيء اليه هارعة هي نفسها تستسمحه وتبدؤه الحديث ويزول الخصام .

كان ينشر مقالا ملتهبا ثوريا يهاجم به الحكومة القائمة في اندفاع ويتهور حتى تخشى عليه (مي) من الاعتقال والسجن فتهرع اليه وترتمي عند ركبتيه تقبل يده ضارعة وتستحلفه أن يكف عن ايذاء نفسه . . حينئذ فقط . . وحبيبته في موقف الضعف والذل يكف عن مهاجمة الحكومة . .

واضاف العقاد - الحديث للأديبة جاذبية صدقي - وهو يهتز : كم من مرة ظلمت اسماعيل صدقي وعبد الخالق ثروت والوزارة النسيمية لا لشيء الا لكي تجيئني (مي) تبدؤني الحديث وننهي خصامنا . . ورغم ان كلا التفسيرين فيه بعض المبالغة ولكنها مقبولة على أي حال . . حيث ان موقف العقاد من المرأة عامة . . لم يكن ليصدر لمجرد انتهاء قصة عاطفية بينه وبين سارة بل صدر عن عقيدة مستقرة ملازمة لصاحبها . . اشتركت في صنعها تجربة حياته واطلاعه الموسوعي وعناصر مزاجه وشخصيته وعوامل نشأته وتربيته الاولى .

وسنرى مواقفه السياسية من صدقي أو من نسيم باشا او من عبد الخالق ثروت او من غيرهم في الجزء السياسي من كتابنا « مواقف ضد الرصاص » أنها كانت مبنية على قناعة لها مقدماتها وأسبابها ومبرراتها وعواملها الفكرية والسياسية والاجتماعية . حيث تتصل بالكيان الاجتماعي والحرية والديمقراطية التي كان يعشقها العقاد وليس لمجرد انه يريد العودة الى محبوبته « مي » بانهاء الخصام واذابة المشاكل .

على الرغم من هذه المبالغة في كل من التفسيرين وربط كل منهما بمواقف العقاد من المرأة أو من بعض الساسة إلا أن هذا في حد ذاته يحمل الكثير من اهتمام العقاد وتقديره للمرأة . . انها نتيجة ايجابية ولا شك تحسب للمرأة وليس عليها . تلك التي جعلت مفكرنا الجبار ، يكون وجهات نظر اجتماعية واخرى سياسية بتأثير منها .

والعقاد كان يصرح في مناسبات كثيرة بانه ليس هناك عداوة او كراهية بينه وبين المرأة . كان حريصا على اعلان ذلك . انه يجيب على سؤال ما هو سر العداء التقليدي بينه وبين المرأة قائلا[٤] : « ابدا ليس هناك عداء . . المسألة انني اضع المرأة في مكانها حسب فهمي لها . . على ضوء امكانياتها الطبيعية والنفسية . »

---

(٣) مجلة القلم السودانية عدد سبتمبر ١٩٦٧ ص ٢٤

(٤) مجلة اخر ساعة ٥ يوليو ١٩٦١

وموقف العقاد الذي اعلنه قبل وفاته بثلاث سنوات هو نفس موقفه الـذي اعلنـه عام ١٩١٢ . . حيث طالب بتعليم المرأة تعليما عاما لا نسويا حيث قال[٥] لا ينبغي ان يقتصر الغرض من تربية البنت على تعليمها كيف تكون زوجة الا اذا كنا نعلم الفتى في المدارس ليكون زوجا . . والواجب ان نعنى اولا بتعليمها ما تنشأ به امـرأة قادرة على النهـوض بنصف أعباء الهيئة الاجتماعية . فان العشرة الزوجية ليست حرفة يتلقى الطالب اسرارها في دور التعليم ، ولكنها عمل كسائر اعمال الحياة يحسنه الانسان او لا يحسنه بمقدار ما له من الحذق والاختبار .

ويطالب بتحرير المرأة فيقول : « اين هو الرجل الذي يفهم الحرية وهـو يسـكن الى شريكة في الحياة مستعبدة واين هو الرجل الذي ينعم بثمرة الحرية وهو وليد أمة مقيدة . . وأين هو الرجل الذي تحيا نفسه وقد مات فيها الجانب الذي خلقت المرأة لتحييه . . »

ويقول مؤكدا استقلال المرأة وحريتها وبانها كائن اجتماعي مساو للرجـل في الحقـوق والواجبات[٦] « لا اعلم لماذا يسوغ للرجل ان يستحوذ على اكثر من أربع نساء ولا يسوغ للمرأة ان تطمع في اكثر من ربع رجل ان لم يكن اقل . . »

ويقول ايضا موضحا مهمّة المرأة ودورها في الحياة « ان اكثرنا يظن ان المرأة من متممات زينة البيت فكما ان في البيت متاعا وأثاثا من كل صنف . كذلك يحسن ان تكون فيه واحدة او اكثر من صنف النساء وان بعضهم ليغير زوجته مرارا ولا يغير ملاءة سريره . »

اذن العقاد ليس عدوا للمرأة كما يتبادر الى الذهن وان ما يقوله لم يخرج عن كونه فهماً لطبيعة المرأة ونفسيتها لا اكثر ولا اقل . وان تطرف في الحكم القاسي عليها . . فمرجع ذلك عارض من العوارض الانسانية التي سرعان ما يزول حكمها بزوال هذا العارض . فموقفه الحقيقي اذن ناتج عن فهمه لطبيعة المرأة وإمكانياتها .

فهو يرى مثلا ان الاغراء والاغواء خصلتان من خصـال الانوثـة فيهما المرأة تتعـرض وتنتظر . والرجل يطلب ويسعى . والتعرض هو الخطوة الاولى في طريق الاغراء فان لم يكف فوراءه الاغواء بالتنبيه والحيلة والتوسل بالزينة والايحاء وكل هذا معناه تحريك ارادة الرجل ثم الانتظار .

---

(٥) خلاصة اليومية والشذور ص ٣٩

(٦) نفس المرجع السابق .

وهنا يصل العقاد الى نتيجة هامة وهي ان ارادة المرأة تتحقق بأمرين : النجاح في ان تراد والقدرة على الانتظار . ولهذا كانت ارادة المرأة سلبية في الشؤ ون الجنسية على الاقل ان لم نقل في جميع الشؤ ون وكلمة لا سابقة لكل نية تمتحن بها المرأة ارادتها وصبرها .

كذلك يقرر العقاد أنه ليس للمرأة ان تريد غير هذا النوع من الارادة لأسباب عميقة في اصول التركيب والتكوين .

وموقف الجنسين من الاستجابة لمطالب النوع يهدينا الى حكمة هذا الفارق عن طريق قريب . فالذكور من جميع الحيوان قد أعطيت القدرة - بتركيبها الجسدي - على اكراه الاناث للاستجابة لمطالب النوع طائعات مقسورات .

ولا يتأتى ذلك للاناث على حال من الحالات الجسدية فغاية ما عندهن من وسيلة أن يهجن الرغبة في الذكور وان يجعلنهم يريدون ولا يستطيعون الامتناع عن الارادة .

فهذا الفارق ملحوظ في اعمق اعماق التركيب الجسدي في كل من الجنسين منذ نشأ الفارق بين ذكر وأنثى في عالم الحيوان .

وحكمته ظاهرة كل الظهور لانها هي الحكمة التي توافق بقاء النوع وارتقاء الافراد-جيلا بعد جيل . فالاغواء كاف للانثى ولا حاجة بها الى الارادة القاسرة .

بل من العبث تزويد الانثى بالارادة التي تغلب بها الذكر عنوة . لأنها متى حملت كانت هذه الارادة مضيعة طوال شهور الحمل بغير جدوى على حين ان الذكور قادرون اذا ادوا مطالب النوع مرة ان يؤ دوه مرات بلا عائق من التركيب والتكوين وليس هذا في حالة الانثى بميسور على وجه من الوجوه .

ويؤ كد العقاد ان اكراه الانثى على تلبية ارادة الذكر لا يضير النوع ولا يؤ ذي النسل الذي ينشأ من ذكر قادر على الاكراه وانثى مزودة بفتنة الاغراء فهنا تتم للزوجين احسن الصفات الصالحة لانجاب النسل . . من قوة الابوة وجمال الامومة ، ويتم للنوع مقصد الطبيعة من غلبة الاقوياء الاصحاء القادرين على ضمان نسلهم في ميدان التنافس والبقاء .

وعلى العكس من ذلك . . لو اعطيت الانثى القدرة على الاراذة والاكراه لكان من جراء ذلك ان يضمحل النوع ويضار النسل لانه قد ينشأ في هذه الحالة من اضعف الذكور الذين ينهزمون امام الاناث .

---

(٧) راجع انيس منصور يسقط الحائط الرابع ص ١٧٥ .

ان مصلحة بقاء النوع في ان يتكفل الذكور بالارادة والقوة وان تتكفل الاناث بالاغراء والتلبية ذلك ان فوارق البنية بين الذكور والاناث بهذا الشكل . . جعلت السرور في كل من الجنسين قائما على هذا الاساس العميق في الطباع فلا سرور للرجل في اكراهـه على مطلب النوع ، بل هو منغص له مضعف من لذة حسه اما المرأة فقد يكون استسلامها لغلبة وقوة الرجل باعثا لسرورها بل لعله يكون مطلوبا لذاته كأنه غرض مقصود .

وليس العدل مفقوداً في هذا التوزيع . . الارادة والقـوة للـذكور ، والاغـراء والتلبية للاناث . ولنضرب مثلا بأشهر الحمل التي ـ قيل ـ انها جنت على المرأة حين خصتها بالالم وجعلت الارادة من نصيب الرجل . حتى في هذه الحالة نجد هناك عدلا طبيعيا فقد أتاح لها الحمل مزية فطرية لا تتاح لزوجها بأي حال من الاحوال . وهي ضمان نسلها بغير دخل أو شك او ارتياب . فكل من ولدت المرأة فهو وليدها الذي يستحق عطفها وحنانها وليس ذلك شأن الآباء فيمن ينسب اليهم من الابناء .

وما من أم تسأل عن الم الحمل إلا يتبين من شعورها أنها تستعذبه ولا تتبرم به وأنها قد تشعر بغبطة من الألم لا يعرفها الرجال الذين يثورون على الآلام .

وعلى هذا يعتز الرجل بأن يريد المرأة . ولا تعتز المرأة بأن تريده . ويحدد العقاد ادوات الاغراء . والاغواء لدى المرأة فيرى أن الاداة البالغة هي قدرتها على الرياء والتظاهر بغير ما تخفيه .

فهذه الخصلة قد تسمو فيها حتى تبلغ رتبة الصبر الجميل والقدرة على ضبط الشعـور ومغالبة الاهواء وقد تسفل حتى تعافها النفوس كما تعاف اقبح الختل والنفاق .

فمن أسباب هذه القدرة على الرياء او هذه القدرة على ضبط الشعور أنها قد ربضت زمناً على اخفاء حبها وبغضها . . لانها تخفي الحب انفة من المفاتحة به والسبق اليه ، وهي التي خلقت لتتمنع وهي راغبة وتخفي البغض لانها محتاجة الى المداراة كاحتياج كل ضعيف الى مداراة الاقوياء .

ومن اسبابها ان الانوثة سلبية . . هي دائما في موقف الانتظار . فليس من شأن رغباتها ان تسرع الى الظهور والتعبير .

ومن أسبابها أيضا ان مغالبة الآلام قد عودتها مغالبة الخوالج النفسية ما دامت في غنى عن مطاوعتها والكشف عنها .

ومنها ان اصطناع الزينة الذي استقر في كيانها . إنما هو اصطناع لكل ظاهر يحس بالابصار والاسماع او يحس بالضمائر والأفهام على اعتبار ان الزينة التي تعني التجمل تفيد في اللغة معنى التزين لمرأى العيون كما تفيد التزين لمرأى النفوس .

وفي حديثه عن جمال المرأة . . يفرق العقاد بين الجمال والغريزة الجنسية . . وهو بذلك يختلف مع رأي جماعة الاطباء والعلماء الطبيعيين الذين يمثلهم « ماكس نوردو » الذي يرى ان الجمال وليد الغريزة الجنسية حيث يقول : « كل اثر ينبه في الدماغ ـ بأي شكل من الاشكال ـ مركز التناسل سواء اكان هذا التنبيه مباشرا أم آتيا من تداعي الفكر ، وتساوق الخواطر ، فهو الأثر الجميل . وصورة الجمال الاول في نظر الرجل هي المرأة في سن النضج الجنسي والاستعداد لتجديد النسل أي المرأة في عنفوان الشباب والصحة .

ففي محضر هذه المرأة يختلج مركز الغريزة النوعية من نفس الرجل بأقوى الاحساسات وأشدالخواطروتثيررؤ ية(الظاهرة) وتصورها عنده أقوى بواعث السرور التي يمكن أن تستفاد من مجرد النظر أو التصور وقد تعود الطبع ان يقرن بين صورة المرأة ، وفكرة الجمال فيغريه السرور الذي يستمده من ذلك بأن يصور كل ما يروقه أو يرى فيه معنى من معاني الجمال في صورة امرأة . فالامة والشهرة والصداقة والمحبة والحكمة وغيرها وغيرها إنما تمثل للحواس في هيئة مؤنثة . ولكن لا أثر لكل ذلك فيما تدركه المرأة وتتصوره لأن رؤ ية شخص من جنسها لا تحرك بأي شكل من الاشكال مركز النسل من غريزتها ولا تجد المثل الاعلى للجمال الا في الرجل اما ما يشاهد من أن المرأة تكاد تقيس الجمال كله بمقياس الرجل فسببه أن الرجل لتفوقه عليها في القوة يستطيع أن يوحي اليها برأيه . وأن يسيطر على افكارها التي تخالف فكره . ومع هذا نرى في الواقع فكرة الجمال عند الجنسين تتقارب ولا تتماثل كل التماثل ولو أتيحت للمرأة القدرة على الاستقلال بالنظر وتحليل ما تشعر به ووصف ما يدور بوجدانها لاثبتت منذ زمن بعيد أن مذهبها في الجمال يختلف من وجوه اساسية شتى عن مذهب الرجل فيه » .

يختلف العقاد وهذا الرأي الذي تبطله ملاحظات وجيزة لأنه أقرب الآراء التي قيلت في تعليل الجمال الى البطلان . .

فلا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال لأن الغريزة الجنسية نفسها تستعين بالجمال لتمييز امر ة من امرأة وتفضيل أنثى على انثى .

ولا يمكن ان تكون الغريزة الجنسية هي الجمال لان الغريزة الجنسية واحدة والجمال حتى في الجارحة الواحدة اشكال والوان .

ولا يمكن ان تكون الغريزة الجنسية هي الجمال لأن الغريزة الجنسية هي واسطة تجديد الحياة ولن تكون الحياة نفسها خلوا من الجمال قبل ما يساورها من طلب التجديد .

ولا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال لأن حظ الاحياء من الجمال أو من الفطنة له ليس على مقدار حظهم من الغريزة الجنسية .

ولا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال اذ المرأة ليست بالجميلة لأنها امراة . وانما هي امرأة ثم يضاف اليها وصف الجمال .

وبعد أن يفرق بين الجمال والجنس يرى أن جسم المرأة جسم تابع وليس بالجسم المستقل الذي لا ينظر في تكوينه الى غيره .

جسم الرجل الجميل . . جميل التكوين لذاته لا لأنه منظور فيه الى مخلوق آخر يتوقف عليه . اما جسم المرأة ففيه الثديان وفيه الرحم الذي يحمل الجنين وفيه تركيب الحوض الذي يختلف به قوام المرأة وقوام الرجل في نماذج الجمال مع اختلافهما بالكتفين والصدر والتنفس تبعا لذلك الاختلاف ومع اختلافهما تبعا لذلك الاختلاف أيضا بما تحت البشرة من طبقة دهنية لا شك انها مفضلة في جسم المرأة لحماية الجنين .

ويقرر العقاد ان هذه التبعية واجبة في ملاحظة جسم المرأة والحكم عليه .

ويذكر العقاد ثلاثة نماذج للجمال لعلها هي النماذج الانسانية التي تستحق العناية بها عند كل بحث فيه . وهي النموذج العصري ونموذج العرب ونموذج اليونان .

فالنموذج العصري يميل الى التخفيف من جسم المرأة ويبالغ فيه وتؤدي به المبالغة أحيانا الى الخطأ والعجلة ونسيان الفروق الطبيعية في سبيل المظاهر الصناعية فيكاد أن يسوي بين قوام المرأة وقوام الرجل وهي تسوية تقرب به من التشويه لاهمالها النظر الى وظائف الاعضاء بين الرجل والمرأة .

وهناك الذوق العربي حيث كان العرب يستحسنون من جمال المرأة الوضاحة والهيف والرشاقة والخفر ويشيدون بهذه الشمائل في كل ما روي عنهم من غزل البداوة وكانوا يحبون مع ذلك أن تكون المرأة بارزة النهود والأرداف وهو ذوق لا يخرج عن سواء الفطرة . كما يثبته لنا حب الجمال وعلم وظائف الاعضاء فهم في ذلك اصح ذوقا من اساتذة التجميل المعاصرين الذين أوشكوا ان يسووا بين قامة المرأة الجميلة وقامة الرجل الجميل في استواء الأعضاء فمما يعيب المرأة عضويا او ـ فزيولوجيا أن تكون رسحاء ضئيلة الردفين

لأنها خلقت بحوض عريض ملحوظ فيه تكوين الجنين . فاذا كانت صحيحة البنية سوية الخلق وجب أن تكتسي عظام فخذيها وعجيزتها وان يمتلىء فيها هذا الجانب من جسمها والا اشار هزاله الى آفة في تكوين الجسم لا توافق حاسة الجمال وكذلك يستحسن الخصر الدقيق في المرأة لان ضخامة المعدة قد تؤذي الجنين وتضغط عليه في الرحم وتشير الى التزيد في الطعام فوق ما تستدعيه وظائف الحياة في جسم الانسان .

اما الذوق اليوناني فقد نظر الى التكوين المتين وميزه على التكوين الرشيق فكان وسطا بين المثل الأعلى لجمال المرأة عند العرب والمثل الأعلى لجمالها عند المعاصرين .

وقد تلتقي الأذواق . اذا تركنا المثل الأعلى جانبا . ونظرنا الى الامثلة الشائعة في عصور الحضارة عند هذه الامم جمعاء .

فالترف وحب الظهور بالوفر والراحة قد حبب الى العرب نماذج البضاضة والرخاصة فوصفوا لنا أحيانا مثلا من الجمال الكسل المتثاقل الذي يعاب في الذوق السليم .

واليونان قد حفظوا لنا تماثيل رشيقة لجسم المرأة لأنهم مزجوها بالرشاقة الغلامية التي كانوا يحمدونها في اجسام فتية الرياضة والعاب الفروسية .

ومجامع الصور المشهورة في العصر الحاضر لا تستغني فيما تعرضه بين حين وحين . عن نماذج العرب ونماذج اليونان .

والجسم الجميل في رأي العقاد غير الجسد اللذيذ وغير الجسم الصحيح وغير الجسم القوي وغير الجسم النافع لان الجسم قد يكون نافعا أو قويا أو صحيحا أو لذيذا وهو في كل ذلك غير جميل .

ويذكر أنه قيل لبعض الحكماء : ان فلانة كبيرة البطن ضخمة الثديين فقال : « نعم حتى تدفىء الضجيع وتروي الرضيع » . . فهذا وصف صادق للجسم النافع ولكنه لا يستلزم جمال الجسم الموصوف كما يقال ان هذا الكساء يدفىء صاحبه ويعيش سنوات ولا يستلزم ذلك جماله فيما يكون به جمال الكساء .

وشعور المرأة بالجمال محدود وقد تكون تابعة فيه او خاضعة للايحاء والشهرة سواء من الجماعات او الأفراد . . شعورها بالجمال ـ عموما ـ لم يبلغ مرتبة الابداع والخلق والتفنن التي بلغها الرجل حتى في الالوان التي تقترب من طبيعة المرأة اكثر من الرجل هكذا يقرر العقاد ويقول ، فيندر جدا في النساء من تبدع الجمال في فن من الفنون سواء كان الشعر او التصوير او الموسيقى او التمثيل .

وقد تبرع المرأة في التمثيل لأنه يوافق عندها سليقة الرياء والتظاهر ونـدر في كبـار الممثلات من تجاوزت دور المحاكاة والتقليد الى الخلق والانشاء .

ونفس الشيء نجده بالنسبة للعزف والغناء . وهما صناعة نسائية فلم يتجاوز حظ المرأة في الغناء طبقة الاداء الحسن الى طبقة الخلق والابداع .

ويقال في صناعة التطريز ما يقال في صناعة الغناء والموسيقى على التعميم . . فقد شغلت بها المرأة من عصور البداوة وثابرت عليها في عصور الحضارة ولم تساو الرجال في هذه الصناعة .

وكذا الفنون الجميلة نجد أن الرجل نبغ فيها اكثر من نبوغ المرأة مع أن الحرمان من ممارسة هذه الفنون وقع على الاثنين بالتساوي في عصور الجهالة الأولى الا ان تفوق الرجل كان اكثر من تفوق المرأة .

المرأة في رأي العقاد ـ لا تبتدىء شيئاً ولا تبتدع في صناعة من الصناعات أو فن من الفنون وإن طال عمرها فيه وانقطعت له احقابا بعد احقاب . فإذا شاركها الرجل في الطهو أو الخياطة او النسيج او التزيين او التجميل ـ وهي صناعاتها الخاصة بها ـ كان له السبق بالتجويد والافتنان واستطاع في هذه الصناعات نفسها أن يستأثر بإقبال المرأة وثقتها دون من ينافسه فيها من النساء .

ومنذ القدم كانت المرأة تنوح وتبكي وتطيل الرثاء والحداد على الاموات ولكنها لم تنظم في الرثاء قصيدة واحدة تضارع قصائد الفحول من الشعراء الذين لم ينقطعوا للرثاء ولم ينظموا فيه الا عرضا في الاونة بعد الاونة .

وقد عاش بعض الراهبات كمعيشة الرجال ألرهبان في القرون الوسطى بين الاديرة والمعاهد الدينية والعلمية وانقطع هؤلاء انقطاع هؤلاء للعبادة والتلاوة ونسخ الكتب وترجمتها والتفكير فيها فلم يعرف لامرأة راهبة فضل في القراءة او النسخ او الترجمة كالفضل الذي عرف لمئات من الرهبان وعزي إليه إحياء نهضة العلوم بعد القرون الوسطى .

ويذكر العقاد أنه من السخف أن يقال ان المرأة قد تخلفت في هذا المجال او ذاك لان الرجل قد حجر عليها وقيدها بما يرضي هواه دون ما يرضي ملكاتها واذواقها .

ويرى أن حجر الرجل على المرأة هو نفسه دليل على نقصها في القدرة البدنية والقدرة الذهنية وأنها بالقياس إليه في المرتبة التالية على كل حال .

ويقرر العقاد بان الفارق بين الجنسين من الفوارق التي يشهد بها التركيب كما يشهد بها الواقع المتواتر ومداه واسع لا ينحصر في مزايا القريحة ولكنه : يتخطاها الى الروح والاخلاق وليس لها اخلاق بل عادات وشعائر واحكام .

على أن هذه العادات والشعائر والاحكام تساير الغريزة الجنسية عند المرأة . ويضرب العقاد على ذلك أمثلة هي :

منذ القدم أمر الدين المرأة بالصيام عن الطعام في موسم من مواسمه المرعية فلم تصبر على الصيام كما صبر عليه الرجل ولم تزل تراوغ حكم الدين وهي في سن الشباب الى أن يتجافاها الجمال ويعرض عنها الرجال . إلا أن المرأة الحديثة تتجشم من الصوم ما لم يتجشمه كثير من النساك لاعجاب الاعين واجتذاب الاهواء وتجتنب الطعام اللذيذ والشراب الشهي لتجتنب السمنة التي يعافها الرجل في هذا الزمان وليس اجتناب الطعام والشراب بالأمر الهين عندها وهي حسية جسدية في ميولها ولذاتها . ولكن الظفر بالجمال والاستحسان عندها فردوس يهون في طلبه كل شيء .

كذلك الصلوات التي تنصلت منها ما استطاعت هي شيء هين بالقياس الى حركات الرياضة والتدليك ومتاغب الكساء الضيق والتلوين والتزويق ولكنها لا تثقل عليها كما تثقل الصلاة إذا كان وراء هذه المتاعب جزاؤها السريع من نظرة اعجاب او كلمة اطراء من الرجل .

والعقاد يرى ان التناقض خلة ـ لا مناص منها ـ في تكوين المرأة خاصة . لأنها خلة ملازمة للانوثة . في الزم لوازمها وهما الامومة والحب بشتى معانيه ..

اللذة والالم ـ مثلا ـ نقيضان في أي كائن حي ولكنهما يمشيان معا في احساس المرأة . فتجمع بينهما اضطرارا من خيث تريد أو من حيث لا تريد .

أسعد ساعات المرأة هي الساعة التي تتحقق فيها أنوثتها الخالدة وتلك ساعة الولادة في تلك الساعة يغمرها فرح لا يوصف ومع هذا هي اشد ساعات الالام والاوجاع في جسد الأم الطريح بين الحياة والموت .

واسعد ساعاتها ايضا ـ هي ساعة التسليم والخضوع للرجل الذي تحبه والشعور بالخضوع والتسليم مؤلم مذل لأي كائن حي . ولكن المرأة هي الكائن الحي الوحيد التي تسعد بهذا التسليم وذلك الخضوع لأنه يحقق انوثتها .

العقاد هنا يقرر ان المرأة هي ابداً بين نقيضين في أمومتها وفي حبها وذلك هو التناقض الذي لا حيلة لها فيه ويذكر أنه من الخطأ الفادح ان يمر بخاطرنا ان هذا التناقض من دهاء المرأة وتدبيرها او من ختلها وخداعها فهي مخدوعة به قبل ان تخدع سواها وهي في قبضته ـ اي التناقض ـ فريسة لا تملك ما تريده .

ويذهب العقاد بعد تحليل مدهش الى انه عند المرأة حالتان تضاعفان من ظهور التناقض فلا يخفى عندها كما يخفى عند الرجل .

احدى هاتين الحالتين طبيعة المراوغة التي وصفن بها اذ يتمنعن وهن الراغبات ، والأخرى هي طبيعة الاستغراق في الساعة التي هي فيها ونسيان ما قبلها وما بعدها فيبلغ العجب اشده بمن يراقبها ان يراها تنتقل بين أطوارها كما ينتقل الممثل بين ادواره ولا يخلط بينها او لا يستبقي من سوابقها بقية في تواليها .

وينتقل العقاد الى دراسة حب المرأة فيرى أنه يجتمع في هذا الحب كل ما تفرق من نقائض المرأة واسرار خلقها . . لأن الحب هو محور الوظائف الجنسية التي خلقت فيها نقائضها واسرارها .

فالمرأة لا تتناقض في خالجة من خوالجها كما تتناقض في هذه الخالجة الكبرى ، ولا تستوفي انوثتها في نزعة من النزعات كما تستوفيها وهي تستقبل بها رجولة الرجل الذي تهواه .

ومما يضاعف نقائض الحب أن المرأة في الحب . . نماذج كثيرة على حسب الطبيعة الغالبة عليها من طبائع الانوثة ..

فليس حب المرأة المشغولة بالأمومة كحب المرأة المشغولة بالزوجية او حب المرأة المشغولة بالعشق وعلاقاته او المرأة المشغولة بالمتعة الحيوانية أو المشغولة باللعب والعبث والتصدي لكل من تلقاه من الرجال .

ولا نهاية للشواغل التي تختلف بها أهواء النساء . ولا اهواء المرأة الواحدة . الا ان العقاد يردها الى نماذجها العامة فتتخلص لنا منها تلك النماذج الخمسة وهي : نموذج المرأة الام ونموذج المرأة العاشقة ونموذج المرأة الزوج ونموذج المرأة الشهوانية ونموذج المرأة اللعوب وكل نموذج يخالف الاخر في حبه واختياره للرجل الذي يوائمه في علاقته بمن يختار .

ولعل من دواعي الحيرة في تناقض النساء في حبهن أن غلبة نموذج من هذه النماذج على طبيعتهن لا يمحو فيها النماذج الاخرى .

فالمرأة اللعوب قد يراجعها عطف الامومة في بعض اطوارها والمرأة الأم قد تطرب للدعاية والعبث وتؤخذ بها والمرأة الشهوانية قد تضمر العشق حيناً من احيانها والمرأة العاشقة قد تركن الى الزواج الدائم والمرأة الزوج قد تعشق زوجها طويلا .

والسمة العامة في الحب هي التوحيد والاكتفاء بمحبوب واحد في حينه ولكن العقاد يرى غير هذا حين تحب المرأة غير رجل واحد . . وقد تحب عدة رجال ويعلل ذلك بان شخصية الرجل الواحد لا تنحصر فيها جميع المزايا التي تستهوي المرأة وقد تبرز فيها مزية واحدة كل البروز فلا يسع المرأة أن تغفل عنها وتضمر فيها المزايا الاخرى فلا تصبر عن نشدانها في شخصية اخرى .

وقد تشعر المرأة بالحاجة الى حب رجلين اثنين متناقضين . . احدهما تكبره . . وتكبر نفسها اذا علمت انها كبيرة في نظره والاخر تصغره ولا تبالي ان تكشف له صغائرها وتطلعه على مذلاتها وتستريح الى محادثته لانه من الجنس الآخر ولا تشعر بمثل هذه الراحة الى محادثة صديقة لها من جنسها .

والمزايا التي تستهوي النساء من الرجال لا تحصى في تعدد انواعها ودرجاتها فمنها الفتوة والجمال والشهوة واللباقة والظرف وعلو المكان وبسطة الجاه ومنها ما يرضي غرورها وما يرضى جسدها وما يرضي ذوقها وما يرضي فؤادها وكلها تتطلب الارضاء ولا تتلاقى في شخصية واحدة فلا يندر من اجل هذا ان تتعلق المرأة بأكثر من رجل واحد تعلقاً صحيحاً لا رياء فيه وتعينها على ذلك خليقة الاستغراق التي تهون عليها الانتقال من حال الى حال في حضور كل محبوب فلا ينكشف سرها الا بانتباه شديد لان المرأة قد تنكشف حين تبغض وتداهن من تبغضه ولكنها لا تنكشف حين تحب وتظهر المحبة وان اضمرت غيرها في اللحظة عينها .

والعقاد حين يفرق بين الحب المعبر والحب الكتوم يقدم وجهة نظر جديدة في الفن وعلاقته بحب كل من الرجل والمرأة . . فالحب المعبر ـ وهو حب الرجل ـ يتسامى بتعبيره أحياناً الى خلق الجمال في الفنون كما يصنع المغرم الذي ينشد القصيدة او يبدع التمثال او ينطلق بالغناء والحب الكتوم ـ وهو حب المرأة ـ قد يتوارى عن الانظار ويتغلف في الاسرار ويعمد الى الرقى والتعاويذ والى السحر الاسود ليستميل به من لا يميل .

وهنا يمكن القول بأن الفن الجميل شفيع حب الرجل والسحر الاسود شفيع حب المرأة لأن هذا مجذوب الى الخفاء وذاك مجذوب الى الضياء .

ثم ينتقل العقاد الى أخلاق المرأة فيرى ان المقياس الذي يرجع اليه في التفرقة بين أخلاق الرجال وأخلاق النساء هو إما « فردي روحي » او « نوعي جسدي » .

فكل ما هو فردي روحي او اختياري ارادي هو اقرب الى اخلاق الرجال .

وكل ما هو نوعي جسدي او اجباري فهو اقرب الى اخلاق المرأة . الاول مداره وحي الفهم والضمير ، والثاني مداره الغريزة والجسد .

عامل الاخلاق الاول عند المرأة هو الاحتجاز الجنسي وهو من الغريزة التي يتساوى فيها اناث الحيوان وليس من الارادة التي يتميز بها نوع الانسان .

المرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسي لأن الطبيعة قد جعلتها جائزة للسابق المفضل من الذكور تنتظر من يسبق اليها فتلبيه تلبية يتساوى فيها الاكراه والاختيار .

كذلك تصنع إناث الدجاج وهي تنتظر ختام المعركة بين الديكة او تنتظر مشيئتها بغير صراع وكما تصنع القطة وهي تتعرض للقط وتعدو أمامه ليلحق بها ، والعصفورة وهي تفر من فرع الى فرع ليدركها العصفور وتصنع الكلبة والفرس والأتان وهي مضطرة الى الاحتجاز الجنسي لانه الحكم القاهر الذي فرصته عليها وظائف الاعضاء .

والخلاف واسع بين الاحتجاز الجنسي وبين فضيلة الحياء التي تعرض فضائل الاخلاق الانسانية ومتى بلغ الاحتجاز الجنسي مبلغه الذي قصدت إليه الطبيعة فقد بلغت الاخلاق الانثوية غايتها ولم يبق منها ما يلتبس بالحياء في صورته ولا في معناه .

ويذكر العقاد أنه من ضلال الفهم أن يخطر على البال أن الحياء صفة من صفات المرأة وأن النساء اشد استحياء من الرجال وينقل ملاحظة شوبنهور التي تقول ان المرأة لا تعرف الحياء بمعزل عن تلك الغريزة العامة . وان الرجال يستحون حيث لا تستحي النساء . فيستتر الرجل امام الرجل ، ويستحي أن يتعرى امامه . ولا تستتر المرأة مع المرأة ولا تغطي عريها إلا لعيب جسدي تريد إخفاءه .

ومن مظاهر أخلاق الغرائز عند المرأة ـ كما يرى العقاد ـ أن النساء في الامم المهزومة يجهر بمخادنة الجنود الفاتحين . ولا يهتممن أن هؤلاء الجنود هم قاتلو الاخوة والازواج والاباء . لان الخضوع للغلبة الصق بطبيعة الأنوثة الفطرية او الحيوانية من جميع هذه الاواصر والآداب والأخلاق الانسانية .

ويذكر العقاد أيضاً ـ في مجال أخلاق المرأة ـ ان الغرائز المختلفة التي تعلل محاسن المرأة

تعلل أيضاً نقائصها التي تعاب عليها من بعض جهاتها وقد لخصها المتنبي متفقاً بذلك مع العقاد حيث قال « فمن عهدها ألا يدوم لها عهد » .

فهي تتقلب وتراوغ وترائي وتكذب وتخون وتميل مع الهوى وتنسى في لحظة واحدة عشرات السنين الطوال .

وهي مسوقة الى ذلك بالفطرة الجنسية التي خلقت فيها قبل نشأة الأخلاق بألوف السنين . فقد أغرتها الفطرة الجنسية بالميل الى الاقدر والاكمل من الرجال . لتنجب أحسن الابناء من أحسن الاباء .

هي ـ في العصور السحيقة ـ تسلم لظافر بعد ظافر وشجاع بعد شجاع كلما دارت رحى الحرب بين غالب ومغلوب ، وبين الشجاع القوي ومن هو أشجع منه وأقوى .

وهي ـ بعد ذلك ـ تسلم لأصحاب الأموال بعد أن اصبح المال هو مقياس القدرة والرجحان بين الرجال .

ويختم العقاد نظرته لأخلاق المرأة بما يشبه المصادرة حيث يقول : وسيطول التبديل والتعديل في العرف والتشريع والشمائل المحبوبة بين الناس كلما تطاولت الأجيال وسيقول كل ذي رأي قوله الذي يجوز فيه الجدال ويبقى حكم واحد لا تبديل له وقول واحد لا يجوز الجدال فيه وهو أن الاحتجاز قوام أخلاق الأنوثة وان المرأة التي تنساه هي حيوان ناقص في تكوينه وليس قصارى القول فيها انها فرد مقصر في حقوق المجتمع والأسرة وإن مساك الاخلاق جميعاً هو ضبط النفس والترفع عن مطاوعة كل عارضة من عوارض الأهواء .

وفي مجال حقوق المرأة يؤكد العقاد انه لا العقل ولا الخلق يمنع أن تظفر المرأة بما تشاء من الحقوق السياسية أو الحقوق الاجتماعية التي تتغير وتتبدل مع نظم الثورة ونظم المجتمع وأساليب المعاملات ـ فلها كل حق لا يخرجها عن واجبها الأول . لأنه واجبها الذي لا تحسن غيره ولا يحسنه غيرها وهو البيت والجيل الجديد .

وعندما نطرح السؤال عن مساواة المرأة للرجل في الحقوق السياسية وهل لها حقوق هذه المساواة او ليست لها هذه الحقوق ؟

تجيب صفحات العقاد أنه منذ البداية يطول الطريق قبل الوصول الى نتيجة أو اجابة عن هذا السؤال . لكن يمكن الوصول الى غاية قبل ذلك اذا سألنا : هل تفيدها هذه الحقوق ؟ وهل تساوي فائدتها فائدة الشمائل البيتية اذا توفرت عليها النساء ؟

العقاد يرى أن هناك حقوقاً للمرأة أفضل وأهم من حقوقها مثلا في الانتخاب . انها تصل بحقوقها هذه الى التوجيه والطلب والايحاء اكثر مما تصل بحقوقها في الانتخاب . وهذه الحقوق التي يراها العقاد جديرة بها هي حقوق الأم وحقوق الزوج وحقوق الخطيبة وحقوق الصديقة الموحية الى الذهن والعاطفة والخيال . فان كانت هذه الحقوق مشلولة في يديها ، فذلك هو إفلاس الانوثة الذي لا يعوضها عنه عوض قط يأتي من جانب التشريع وأصوات الانتخاب .

ويقرّر العقاد ان المرأة ستنال من حقوقها الصحيحة او المزعومة كل ما تستطيع المرأة ان تأخذه وكل ما يستطيع الرجال ان يمنحوه او ينزلوا عنه .

ولكن الحقوق التي تقوم على محو الفوارق بين الجنسين في تكاليف الأسرة والحياة الاجتماعية هي من بداية الامر ليست بحقوق كما يسميها المتحدثون لأن الحقوق لا تناقض طبيعة التكوين .

وهي بعد هذا ليست مما يملكه الرجال لينزلوا عنه طائعين او كارهين ، وليست مما تأخذه المرأة لأنها لا تزيد في الخلق ولا تنقص منه ما تشاء ، ومحو الفوارق قضاء بيد الطبيعة لا بأيدي الامم أو أيدي الحكومات ومجالس التشريع .

ويرى العقاد ـ في مجال حديثه عن حقوق المرأة أن قضية المرأة وحقوقها قد استغلتها المذاهب الاجتماعية الحديثة شر استغلال فأساءت الى المرأة وأضرتها اكثر مما أفادتها او احسنت اليها . وهل هناك إساءة وشر أكثر من أن تهدم الاسرة وتبطل مزية المرأة باسم المساواة بين النساء والرجال ؟

فمن ظلم الرجل الا تكون له مزية في الحقوق الاجتماعية وهو أقدر عليها من المرأة كيفما تقلبت الآراء .

ومن ظلم الرجل الا تكون رقابته على المرأة أوفى من رقابة المرأة عليه . لأنها اذا فرطت في حقوقه الحقت به نسلا غير نسله ، وهو اذا فرط في حقوقها لم يلحق بها نسلا غير نسلها ولم يخالف بذلك قوام خلقه الاصيل في جميع الذكور فان الذكر يؤدي فريضة نوعية لا تؤديها اذا اتصلت بأكثر من ذكر واحد الا ان تكون شهوة خائنة او تحللا من متانة الاخلاق .

ومن ظلم الرجل ان تنكر عليه العزيمة والارادة وما يتبعها من وجوب الطاعة في بعض الشؤون ان لم يكن معظم الشؤون . فتركيب خلقه هو تركيب المريد وتركيب خلق المرأة

هو تركيب الملبية او الموافقة للارادة الاخرى وما كمن في دخيلة الجنس منذ الازل هيهات ان تبدله صفحات الكتب أو نصوص الدساتير . ومن الجوانب التي اهتم العقاد بدراستها في المرأة هو عقلها فهو يجيب على سؤال ما المقصود بعقل المرأة قائلا : اذا كان المقصود بالعقل تلك الملكة التي تنشىء الثقافة وتبدع الفنون ، وتكشف حقائق العلوم وتدبر شؤون الامم فنصيب المرأة من هذه الملكة في كل ما عرفناه من التاريخ الانساني جد قليل . .

ولا يقال في تعليل ذلك ان المرأة لم تعط فرصتها من قبل لاظهار نصيبها من هذه الملكة . فان القول بأن الرجل هو الذي يعطي المرأة فرصتها أو يمنعها ، هو نفسه دليل على أن المرأة لا تملك الاستقلال بعقلها ولا ترجع فيه الى إرادتها وليس بحجة تناقض الواقع المتواتر بل هو حجة تؤيده وتضيف اليه .

ويذهب الى أن العقل ملكة لم ترزق منها المرأة نصيباً وافياً ولم يكن هناك سبيل الى اخفائه لو رزقته إلا أن يقال ان نصيبها من هذا العقل لا يبرز بغير مشيئة الرجل ومساعدته وهو نقيض الاستقلال الذي يثبت المساواة .

والعقل الذي يشير اليه العقاد . . هو ذلك العقل الذي يدير الشؤون العامة في الأمم . ولعل العقاد يعلن ذلك صراحة حين يضرب المثل باثنتين من النساء تولتا الشؤون العامة في بلادهما . أليصابات في انجلترا ، وكاترين في روسيا . . فرغم أن الاثنتين قد تولتا الحكم وكان لهما مساعدون ومعاونون من القادة والوزراء الرجال ، إلا ان عهدهما لم يسلم من عيوب الضعف والجماح اللذين تساوتا بهما مع أضعف الرجال ممن حفظتهم على العروش تقاليد الملك الموروث .

أما إن كان المقصود بعقل المرأة تلك الملكة التي تصرف وتدبر بها كيانها وتهتدي بها الى مصالحها الخاصة فهي موفورة النصيب من هذه الملكة بحكم الغريزة التي تلهم كل حي ما يحمي به كيانه خصوصاً إذا كان هذا الحي ضعيفاً .

ويفرق العقاد بين عقلية الرجل وعقلية المرأة ويرى أن الفارق بين العقلين هو نفس الفارق بين الارادة والابتكار ، وبين التلبية والمحاكاة . فكل صفة عقلية تتعلق خصائصها الكبرى بالارادة المبتكرة فهي للرجل وكل صفة عقلية تتعلق خصائصها الكبرى بالانفعال والمحاكاة فهي للمرأة .

ولا ينكر العقاد مساهمة المرأة في الثقافة الانسانية ولكن بنصيب يناسبها او يناسب المزاج الذي فطرت عليه .

فإن كانت بعض أنواع القصص والتمثيل تقوم على المحاكاة والانفعال ، وأن ألواناً من الغناء والعزف على الآلات الموسيقية تتم بالمحاكاة والتطبيق ، فلا نستغرب أن تبرع بعض النساء في كتابة القصص وفي التمثيل والغناء والعزف الذي يبتدع شيئاً ولكنهن لم يبرعن في الشعر .

ويضرب العقاد مثلا بثلاث شاعرات هن « سافو » و « الخنساء » و « مسز براوننج » .

يذكر ان سافو في الزمن القديم كانت شاعراً في الحقيقة أكثر منها شاعـرة . حتـى في سليقتها الانثوية لأنها كانت تشبب بالبنات فهي اقرب الى الرجولة في مشاعرها منها الى الانوثة .

والخنساء الشاعرة العربية التي لطمت خديها وشقت جيوبها وكانـت محنتهـا مع الحياة قاسية كبيرة ، لم تتفوق في فن البكاء والرثاء كما تفوق غيرها من الشعراء الرجال مثـل الشريف الرضي او ابن الرومي او المتنبي .

ومسز براوننج لم تبدع شيئاً قبل اتصالها بزوجها الذي تنسب اليه ولم يكن لهـا قبـل الزواج ولا بعده عمل من اعمال الشعر الفائق يضارع طبقة الشعر الذي نظمه الرجال في جيلها فضلا عن غيره من الاجيال .

وفي السياسة قد تشترك المرأة في المجالس النيابية أو في المناصب الوزارية ، ولكنها لا تفلح في هذه ولا تلك ، إذا كان العمل في المجلس أو في المنصب الوزاري محتاجـاً الى افضل صفات الرجال وهي الارادة والحزم وحسن الموازنة بين الامور .

العقاد يرى أن عقل المرأة لكي ينتج فلا بد وان يكون ذلك في ظل الرجل .

بعد هذا يعتقد بأن المرأة لن تغيرها هذه المفاضلة في الخصائص العقلية بين الجنسين لأنها لم تحرم ما يقابل هذه الخصائص في مجال الحس والعطف والبداهة الفطرية وحسبها من مزايا جنسها ما اشتملت عليه من كنوز غالية ترشحها لأمومة الانسانية وهـو فضـل جد كبير .

هذه مواقف العقاد من المرأة . . فهل يعني هذا انه كان يناصبها العداء ؟

وقد سبق ان ذكرنا ان رأي العقاد ومواقفه من المرأة ينبع من فهم خاص به وأن هذا الفهم لم يؤثر من قريب او من بعيد في حبه للمرأة . فالذي يرجع الى صفحات كثيرة من كتبه او

ما يذكره نقاده ودارسوه عن علاقاته العاطفية المتعددة . . يقتنع الى حدكبير بوجهة نظرناأن العقاد لم يكن أبداً عدواً . . انه يعرف الحب بانه ليس بالغريزة الجنسية لان الغريزة الجنسية تعم الذكور والاناث ولا يكون الحب تخصيصاً وتمييزاً .

وليس الحب بالشهوة لإن الانسان قد يشتهي ولا يحب وقد يحب وتقضي الشهوة على حبه .

وليس الحب بالصداقة لان الصداقة اقوى ما تكون بين اثنين من جنس واحد والحب اقوى ما يكون بين اثنين من جنسين مختلفين .

وليس بالانتقاء والاختيار . لأن الانسان قد يحب قبل أن يشعر بأنه أحب . وقبل ان يلتفت الى الانتقاء والاختيار .

وليس الحب بالرحمة لان المحب قد يعذب حبيبه عامداً او غير عامد وقد يقبل منه العذاب مع الاقتراب ولا يقبل منه الرحمة مع الفراق .

والحب كذلك يعرف جزءاً قبل ان يعرف كاملا شاملا مستجمعاً لكل ما ينطوي عليه .

ففي الحب شيء من العادة لان المحب يهون عليه ترك حبيبه اذا كان تركه لا يغير عاداته ومألوفاته واقوى ما يكون الحب اذا طال امتزاجه بالعادات والمألوفات .

وفي الحب شيء من الخداع لأن المرأة الواحدة قد تكون افضل المخلوقات في عين هذا الرجل وتكون شيئاً مهملا لا يستحق الالتفات في عين ذاك ثم تعود كالشيء في عين الرجل الذي فضلها من قبل على جميع المخلوقات .

وفي الحب شيء من العداوة لان المحب مكره على البقاء في اسر الحب عاجز عن الافلات من قيوده ويقترن الشعور بالاكراه والعجز دائماً بشعور النقمة والعداء .

وفي الحب شيء من الانانية ولو اقدم صاحبه على التضحية لأنه لا يترك محبوبه لغيره ولو كان في ذلك اسعاده ورضاه ولكنه قد يضحي بنفسه اذا اعتقد ان محبوبه لا يصير الى سواه .

وفي الحب شيء من الغرور ولولا ذلك لما اعتقد الانسان ان انساناً آخر يهمل الالوف من امثاله ليخصه وحده بتفضيله وايثاره .

وقد يخلو الحب من كل شيء الا من شيء واحد وهو الاهتمام . فصدق ان قيل لك ان

حبيباً يبغض حبيبه ويؤذيه وصدق ان قيل لك ان حبيباً يتقبل من حبيبه البغض والايذاء وصدق ان قيل لك ان الحب والازدراء يجتمعان وصدق ان قيل لك ان المحب يخون أو يقبل الخيانة من المحبوب . . . فاما إن قيل لك أن حباً يبقى في النفس بغير اهتمام فذلك هو المحال الذي لا يقبل التصديق .

وفي الحب شيء من القضاء والقدر . . فنحن لا نحب حين نختار ولا نختار حين نحب واننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت لان ميلاد الحياة واستمرارها وفقدانها اطوار من العمر تملك الانسان ولا يملكها .

وخلاصة القول ان الحب ـ في رأي العقاد ـ عواطف كثيرة وليس بعاطفة واحدة . . ففيه من حنان الابوة ومن مودة الصديق ومن يقظة الساهر ومن ضلال الحالم ومن الصدق والوهم ومن الاثرة والايثار ومن المشيئة والاضطرار ومن الغرور والهوان ومن الرجاء والقنوط ومن اللذة والعذاب ومن البراءة والاثم وهكذا .

وعلاقات العقاد العاطفية بالمرأة كمحب وكعاشق شغلت عشرات الصفحات لكل من نصدى للكتابة عن سيرته وشخصيته وفي مقدمة هؤلاء الكتاب انيس منصور وعامر العقاد حيث كانت كتاباتهما عن حياة العقاد الخاصة والعاطفية منها بمثابة الكشف عن سر مجهول .

لقد أحب العقاد الاديبة مي زيادة . . وكان يعرف ان في حياتها جمعاً من الرجال ، هذا يعرض عليها أخوته وذاك صداقته والثالث أبوته . عرف هذا جيداً ولكنه لم يتردد في حبها لأنه كان يعلم مقدماً أنه يكبرهم ـ علماً ومعرفة ـ وأنه سيفوز بقلبها إن عاجلا او آجلا .

وصارح العقاد مي بحبه وصارحته بحبها بالتلميح . وروت له في رسائلها وفي لقاءاتها ما تعانيه في حياتها من قيود وعذاب وكتب لها العقاد الكثير وكانت رسائله اليها من اجمل ما يكتبه الرجل حين يناجي حبيبته .

لكن العقاد أحب سارة « اليس داغر » في الوقت الذي كان يحب فيه مي زيادة « أو على الاقل في الفترة الاخيرة لحبه وبرر هذا قائلا انه يحب مي ويشتهي سارة » .

وتمضي الأيام والشهور سعيدة سعادة الاحلام كما يذكر العقاد في روايته سارة مع هذه المرأة التي اذاقته حلاوة الحب ونعيمه الى أن يكتشف أنها على علاقة بآخرين ويقع العقاد ضحية في براثن الشك الذي كاد ان يفقده عقله فلم يعرف النوم . . ولا الطعام ولا الشراب ولا القراءة ولا الكتابة وقرر أن يكتشف حقيقة هذه الخيانة بنفسه .

ويجوب العقاد الشوارع والطرقات باحثاً عن محبوبته التي ما عادت له الى أن رآها وقد نزلت من بيت له قصة في حياتها واستراحت نفسه عندما تأكدت . وعلى الرغم من أنها ترددت عليه بعد ذلك كثيراً ، وراسلته بعد السفر . إلا ان العقاد انصرف عنها وقرر أن يقف بكرامته فوق قلبه وخرج من هذه التجربة العنيفة كسير القلب مرفوع الكرامة .

ولم تضع قصته مع سارة هذه او « إليس داغر » حداً لحبه للمرأة او لم توصد قلبه امام أي خفقة قلب والا فلماذا يخفق قلبه بالحب وهو في الخمسين من العمر .

والحب في مثل هذا العمر قاسٍ . . إن الانسان يستكثر على نفسه وعلى قلبه أن يحب من جديد . وأن يجعل الحب العقاد يقف وراء الباب منتظراً الممثلة السمراء الشابة يستكثر على نفسه ان يتابع خطوات اقدامها على السلالم واحدة واحدة وعطرها الرخيص يسبقها الى أنفه ، يستكثر على نفسه أن يقف خلف النافذة ليطالع قدومها من بعيد في اول الشارع .

صحيح انها احبت العقاد بجنون ولكن اصدقاء العقاد كانوا يخشون على قلبه من شبابها خاصة وانها لا تعرف قيمة العقاد ولا تعرف ما الذي قد يصيب قلبه منها .

وفي بيت العقاد « ٦ » رسائل بخطها وصور لها معه وصور لها مهداة في عبارات من نار وفي رسائلها للعقاد تروي له كيف تعذبت وكيف دقت ابواب بيته وكيف اضطرت الى أن تذهب من الباب الخلفي وكيف ان يديها تمزقتا من الدق على الباب وكيف أنها تمزقت هي امام أعين الناس . . ولكن العقاد رفض . . رفضها بأجمعها واعتصم بعقله واحتمى بكرامته ورفض حبها .

وكان اسم هذه الفتاة السمراء : هتومه او مديحة يسري فيما بعد .

ولم يتوقف قلب العقاد عن النبض بعد الخمسين او الستين من العمر . لقدعرف هذا القلب العجوز عدداً من النساء . . عرف قصاصتين وشاعرتين وباحثة أخرى وكاتبة تصر على ان تلقب نفسها بالكاتبة الاسلامية وقيل انه ساعدها في تأليف كتاب عن السياسة وغيرهن كثيرات ممن لا يزلن أحياء بيننا وكلهن يذكرن العقاد كأستاذ وكأب وكصديق يعرف ما للعلاقات الانسانية من التزامات . . وكلهن بكين عليه يوم وفاته وخرجن لتوديعه الى مثواه الاخير .

القسم الثاني

القضايا الثقافية

* التجديد
* حرية البحث
* التراث
* العامية
* الرجعية

القضايا الثقافية المعاصرة

يقول فيلسوف التاريخ المعاصر أرنولد توينبي : ان الثقافة انما تزدهر حين تكون هذه الثقافة استجابة أو رد فعل في موقف أو في وضع يتسم بالصعوبة والأزمة ويحتاج الى أن يواجهه الناس والمفكرون على وجه الخصوص بجهد فكري لم يسبق ان بذل في أي وقت من قبل .

واذا صدقنا نظرية توينبي في الثقافة وهي لا شك صادقة حيث تمثل الخلفية التي لا بد ان نعرفها قبل الحديث عن الثقافة ـ فاننا نصل الى ان ازدهار الثقافة ينتج من اصطراع الافكار وبذل الجهود للدفاع عن افكار معينة امام تحديات العصر . ومصر في بدايات القرن العشرين كانت تتقاسمها افكار كثيرة متعارضة مختلفة نتجت عن هذه التيارات الثقافية التي اقتحمت حياتنا الثقافية عن طريق جهود بعض المخلصين من ابناء مصر . هؤلاء الذين بدأوا يعيدون صياغة الفكر صياغة جديدة مبنية على العقل أو عن طريق البعثات التي كانت تسافر الى حواضر الدنيا الجديدة أو عن طريق بعض المستشرقين المخلصين لرسالة العلم .

لقد حدث في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ما يشبه حركة التنوير التي حدثت في أوربا في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر . فالسمات الرئيسية لهذه الحركة هناك في أوربا او هنا في مصر . . هي ما جعل العقل الانساني . . حاكما لنا واماما لنا في امور الحياة .

بل إن هذا التشابه يجعلنا نقول دون اسراف . . ان عصر التنوير انتقل الى مصر . . وكانت مصر دائرة الحركة الثقافية في العالم العربي في هذه الفترة وتولى ريادة هذه الحركة الامام محمد عبده . فعلى يديه عاد الفكر الاسلامي والعربي الى ما كان ينبغي أن يكون عليه دائما . واصبحت الفلسفة الاسلامية تأملا روحيا في معنى هذه الحياة التي نحياها وتحقيقا لوعي الانسان لذاته وبحثا عن دعائم العمل والأخلاق،ولذلك رأينا الامام محمد عبده يلح على ان الخطوة الأولى في كل مسعى فلسفي هي تنبيه الوجدان وايقاظ الضمير

واثارة روح النقد تمهيدا للفهم ولذلك وجدناه في جميع أقواله ورسائله ومؤلفاته دائبا على مهاجمة « التقليد » اي تقبل آراء الغير دون المطالبة بالدليل ، ودون الالتفات الى حق كل شخص في استقلال النظر والفحص ، او في ان يفكر بنفسه لا ان يفكر له غيره .

فاذا كانت هذه هي المعاني التي بثتها الافكار عن التنوير ، والتي صاغها رائد الفكر المصري الشيخ محمد عبده صياغة جديدة . . صياغة نابعة من تراثنا وأصالتنا من جهة ، ومنفتحة على العالم من جهة أخرى ، فانه يمكن ادراك معاني الثقافة المعاصرة التي قامت بها مدرسة الامام في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وتابعها مفكرو هذه الامة ابتداء من سعد زغلول ممثلا لهذه اليقظة في المجال السياسي وقاسم امين في المجال الاجتماعي ومصطفى عبد الرازق في الجانب الفلسفي والعقاد وجيله ممثلين للمجال الادبي . . حتى اذا جئنا الى عشرينات هذا القرن ، وجدنا استمرارا واضحا لهذه الحركة « التنويرية » على أيدي كل من العقاد وعلى عبد الرازق وطه حسين ، الاول فيما استحدثه من كتابات تطالب بالتجديد في ميادين النقد والأدب والثاني في كتابه الاسلام وأصول الحكم ، والثالث في كتابه « في الشعر الجاهلي ».

ولا ننسى ان الثلاثة وغيرهم من أبناء جيلهم العملاق قد عاشوا هذه الفترة التي كانت مصر فيها تموج بالأحداث السياسية ، او تضطرم عاطفة وقلبا بالأفكار الثقافية الجديدة لأن هذه الفترة هي التي أعقبت ثورة ١٩١٩ تلك الفترة التي شهدنا فيها تيارات فكرية متصارعة في جوانب متعددة ، والوانا من الثقافات تؤكد وجهة نظر تويبني هذه .

من هنا برزت في الساحة الثقافية في ذلك الحين بعض القضايا الثقافية التي كانت على جانب كبير من الأهمية . . حيث انها كانت بمثابة الملامح الاساسية للثقافة المعاصرة . . ومن هذه القضايا التجديد في الادب والفن والنقد ، وحرية البحث والفكر والعودة الى التراث للاستفادة مما فيه من كنوز ومقتنيات والصدام بين عامية تريد ان تقضي على الفصحى وفصحى تريد ان تسيطر على الحياة في غير تزمت ، والصراع بين ما يسمى بالرجعية والتقدمية او بين قديم متهالك وجديد يريد أن يغطي صفحة الحياة الثقافية ، وغيرها من القضايا التي كان العقاد واحداً من اطرافها المبرزين فما هو موقفه من هذه القضايا ؟

التجديد :

التجديد عند العقاد وموقفه منه يتلخص في قوله[1] اذا اوجزنا . . قلنا ان التجديد هو اجتناب التقليد فكل أديب يعبر عن شعوره ويصدق في تعبيره فهو مجدد وان تناول أقدم الاشياء ، ويضرب العقاد مثلا على ذلك بالأرض متسائلاً هل هناك شيء في هذا العالم الارضي اقدم من الشمس ؟ إن الذي يصفها اليوم صادقا في وصفه غير مقلد في تصويره مجدد تمام التجديد وان لم يأت بكلام جديد . .

هكذا تجدد الشمس النهار وتجدد الارض الربيع ويجدو الشباب الامل والحب جيلا بعد جيل .

وليست الدنيا عتيقة بالية لأنها تجيئنا كل عام بربيع كالربيع الذي تقدمه ، وليس الاديب الشاعر عتيقا باليا لأنه يجيئنا بذلك الربيع كما جاءت به الدنيا في حينه موصوفا على الصورة التي عهدها آدم في جنة الفردوس ومن ثم عهدها أبناؤه في حياتهم على هذه الغبراء .

التجديد كما يراه العقاد هو اجتناب التقليد وهو أيضا اجتناب الاختلاق . والمختلق ، هو كل من يجدد ليخالف وان لم يكن هناك موجب للخلاف . إن الذي يمشي على يديه يأتي بجديد ويدل على براعة لا يستطيعها من يمشي على قدميه ولكننا قد نضع في يده درهما وقد نزج به في مستشفى المجاذيب ولا نمشي على الايدي من اجل تلك البراعة وذلك الاختلاف او الاختلاق .

والعقاد بين معاصريه مجدد بالدعوة يجهر بها ، مجدد بالنقد بدأ فيه ، مجدد بالنماذج يقدمها[2] .

والتجديد نلمسه فى شعره حين عبر عن عواطفه ازاء الأحداث التي كان لها رنينها وصداها في نفسه . ومع الشخصيات التي اتصل بها من قرب أو من بعد . فان شئنا قياس شعره باوضاع الشعر العربي عامة . فاننا نجد شعره وثبة تجديد في انماطه وموضوعاته واغراضه .

وحين جرى قلمه في الادب والنقد ، في السياسة والاجتماع فانفسح له مكان الصدارة

---

(١) راجع حياة قلم ـ للعقاد ص ٣٢٧

(٢) راجع محمود تيمور ـ مثال في عدد الهلال ابريل ١٩٦٧

بين الكتاب الذين خرجوا بالمقابلة العصرية من اطارها الانشائي وزخرفها اللفظي ومعانيها المرددة وافكارها المحدودة ، وسما بها الى مستوى رفيع من البيان فيه يبرز الرأي ويسود المنطق ، وبه يتحقق الاقناع والتأثير في الاداء والتعبير .

وحين كان يبحث ويؤلف لم يكن يقنع في بحثه او تأليفه بجمع المعلومات وسياق الاراء ، وعرض الافكار ، ولم يكن يعول على النقل من المصادر والاسانيد الا حيث لا محيص من الاستشهاد والتدليل .

لقد كان يجعل من الموضوع الذي يتجرد لعرضه بناء خاصا به . وفي هذا البناء تكمن ذخيرة ثقافية عامرة ، وتتجلى احاطة بجوانب الموضوع وما دار حوله من درس وتمحيص فكل كتاب للعقاد لا يعد بسطا او شرحا او تعليقا على مقررات سابقة بقدر ما يعد خلقا فنيا له جدته وله خصائصه في الشكل والموضوع على السواء .

حتى في عبقرياته وترجماته للعظماء والاعلام من قادة التاريخ . . استطاع أن يسلك نهجا غير النهج الطيع المعهود من سرد مراحل الحياة والكشف عن أهم الأحداث . فهو حين يرسم الشخصية التاريخية يكون في شأنها فكرة أساسية هي محور تلك الشخصية ومدار سلوكها في الحياة واثرها في البيئة .

وهو في استنباطه اسرار الشخصية وتقييم أعمالها لا يستسلم للأحكام التي ينقلها التاريخ . بل يتوسل الى صحة التقدير واصابة الحكم بتحليل دقيق في ضوء الحقائق النفسية والاجتماعية للسلوك الانساني والجماعي .

وقد برزت مواقف العقاد من القديم ودعوته الى الجديد منذ أن كتب كتابه « الديوان » « الذي قدمه بالقول بأن موضعه الادب عامة ، ووجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة ». ان محاولات العقاد التجديدية كانت بمثابة اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما .

ومن اجل هذا التجديد خاض العقاد معارك عنيفة وكانت له مواقف خالدة أثرت في حياتنا الثقافية وأضافت الكثير .

ومن أجل التجديد خوصم العقاد وخاصم وجودل وتحولت حياته الى معركة كبيرة حتى

---

(٣) راجع محمود تيمور ـ مقال في عدد الهلال ابريل ١٩٦٧

آخر لحظة من عمره . لقد تصدى بالنقد لشعر شوقي ويومها كان شوقي أمير الشعراء المسنود من الخديوي بل المؤ يد من زعيم الامة سعد زغلول نفسه وكم من المناقشات وقعت بين سعد زغلول والعقاد كان سببها موقف العقاد من شوقي ونقده له .

كذلك تصدى بالنقد لمصطفى صادق الرافعي أديب عصره وحرك الاذهان بأن ما يكتبه هذا الاديب إن هو الا امتداد لكتابات القرون الوسطى ، بما فيها من تزويق وجهالة . وان هذا الشعر او النثر الذي يقدمه لا يخرج عن ترديد لنثر وشعر الاقدمين من أدباء العربية . وكانت لهما معركة كبيرة شنتعرض لها فيما بعد .

كذلك تصدى العقاد للمنفلوطي وقال عنه إنه أديب انشائي وليس بكاتب . الفكرة عنده تائهة في المحسنات اللفظية والتزاويق ، وكانت لهما مناقشات .

وغيرهم كثيرون تصدى لهم العقاد لا لسبب الاً لأنه كان يؤمن برسالته في التجديد ويريد أن ينفذها في ميدان الادب والنقد .

حرية الفكر والبحث

في ساعات بين الكتب يؤكد العقاد على حرية الفكر والتعبير والبحث ويرى أنه ليس أصلح للعقل المصري وهو في سبيل يقظته من الجرأة على التفكير الحر والقدرة على انتزاع المنازع المستقلة في الرأي والاحساس[٤] .

ويرى أن « حرية الفكر هي شيء أعم من حرية الاراء العقلية كما نفهمها على أنها جزء من الانسان معزول عن الشعور والاخلاق والبواعث العلمية وأسباب المعيشة »[٥].

وأن حرية الفكر هي حرية التعبير عن الشخصية الانسانية بكل ما تشمل من حس وادراك وخلق ومزاج ومجهود .

وأنها ـ حرية الفكر ـ بهذا المعنى هي شيء لا يختلف عن حرية الحياة او حرية الوجود .

فسيان ان تمنع الانسان أن يحيا وأن تمنعه أن يفكر ويستوفي جوانب الشخصية التي تبلغ تمام مظاهرها في التمييز والتفكير .

---

(٤) راجع ساعات بين الكتب ـ للعقاد ص ١٣٢

(٥) راجع مقال للعقاد في مجلة الهلال عام ١٩٣٦

وسيان أو يكادان يستويان أن تمنع التفكير وأن تمنع التعبير عن التفكير لأن الفكرة التي لا ترى ضوء الشمس هي فكرة ميتة أو هي فكرة حية ، ولكن حياتها هي سبب الألم والكبت والفساد .

واذا كانت حوادث الدفاع عن حرية الفكر لم تبلغ ما بلغته حوادث الدفاع عن حرية الحياة من الكثرة والعنف فذلك لا يدل على أن حرية الفكر أقل من حرية الحياة لكنه يرجع الى أسباب متى اتضحت ظهر لنا ان الفكر والحياة في الشخصية الانسانية شيئان قلما يختلفان .

ان الافكار عند الجمهرة الغالبة من الناس ، تتشابه وتتقارب بحيث يكفي للتعبير عنها منزع واحد هو المنزع الشائع بين السواد في زمن من الازمان[٦] .

فاذا كان هذا هو رأي العقاد في حرية الفكر والبحث نظريا فما هي مواقفه العملية ؟

هناك مواقف كثيرة للعقاد تؤكد ايمانه الذي ليس له حدود بحرية البحث والفكر منها مواقفه من ثلاثة كتب هي « الاسلام واصول الحكم » للشيخ علي عبد الرازق و« في الشعر الجاهلي » للدكتور طه حسين و« مسرحية جان دارك » لبرناردشو[٧] .

اما موقفه الاول فكان حين قامت الضجة ضد كتاب الاسلام وأصول الحكم وانتهت بفصل مؤلفه الشيخ علي عبد الرازق من وظيفته واخراجه من هيئة العلماء .

ولا شك ان دفاع العقاد عن الشيخ علي عبد الرازق له قيمة واهمية كبرى حيث يؤكد بما لا يدعو الى الشك . . ايمان العقاد بحرية الفكر والبحث والا فكيف يدافع عن رجل متهم بهدم نظام الحكم ؟ رجل يعد من اقطاب حزب الاحرار الدستوريين وهو الحزب الذي ما قام الا لمناوأة حزب الوفد الذي كان العقاد كاتبه الاول ؟

ان العقاد يكتب في هذا الصدد مقالا بعنوان « روح الاستبداد في القوانين والآراء » يقول فيه : من معاني الاستبداد في القوانين أن تكون احكامها مطلقة غير مقيدة بنص يتواضع عليه الحاكمون والمحكومون ويلتزم القضاء حدوده كما يلتزمها كل فرد يدان بتلك الحدود فان القوانين توضع لتقييد القضاء كما توضع لتقييد المأخوذين بها ولا معنى لقانون

---

(٦) راجع جريدة البلاغ ١٩٢٥/٧/٢٠

(٧) راجع برناردشو للعقاد ص ١٤٧

لا يعرف منه المتهم هل هو بريء ام مدان الا اذا نطق القاضي بالحكم ورجع الى تقديره الشخصي الذي قد يختلف عن اكثر الناس .

الى ان يصل في مقاله : على أننا نخشى أن تكون الروح الاستبدادية قد سرت من هذه الوزارة الى بعض جوانب الرأي العام .

فنسينا ما يجب لحرية الفكر من الحرية وما ينبغي للباحثين من الحقوق . . أقول هذا بمناسبة الضجة التي أثارها بعض الكاتبين حول كتاب صدر حديثا « في الاسلام وأصول الحكم » لأحد القضاة الشرعيين فقد رأينا أناسا يطلبون محاكمة المؤلف أو تقديمه الى مجلس ينشأ لأجله خصيصا ثم لمن يقتدون به في المستقبل من المؤلفين ويطلبون من الوزارة ان تصادر الكتاب وهي الوزارة التي نستكثر عليها أن تصادر الصحف بعد تقديمها الى القضاء .

فهالنا الأمر ورجعنا الى الكتاب الذي أقاموا حوله هذه الضجة فما وجدنا فيه مسوغا لشيء من هذا الذي يجترئون على طلبه وينسون أنهم يطلبون به خنق الحرية وتسليم الوزارة واتباعها سلاحا تشهره في كل لحظة على رؤوس الكتاب والباحثين وما وجدنا في الكتاب الا ان صاحبه يرى في الخلافة رأيا يستند فيه الى الاحاديث النبوية ومأثورات الصحابة ، واقوال الفقهاء ، وليس يعنينا هنا اخطاء الاستناد والتخريج وانما الذي يعنينا أنه صاحب رأي يباح له ان يعلنه كما يباح لغيره أن يرد عليه ويفنده اما ان يحاكم أو يقسر على ترك رأيه لأنه خالف به بعض العلماء او غير العلماء فهذا ليس من روح الحرية التي تحمينا جميعاً ويجب علينا ان نحميها جميعاً .

ونفس هذا الموقف يتكرر عندما تثور ضجة كتاب « في الشعر الجاهلي » للدكتور طه حسين . يومها وقف العقاد موقفا باهرا مع طه حسين وحقه في البحث الحر والتفكير الحر . وكان وقتها نائبا في البرلمان حتى أنه وصل بدفاعه عن طه حسين انه ذكر ان الجامعة اذا ابعدت عنها الدكتور طه حسين فلن تجد مثيلا له[٨] .

والجدير بالذكر في الموقفين السابقين أن زعيم الوفد الذي كان ينضم اليه العقاد عارض كلا من الكتابين ومؤلفيهما وان كلا من المؤلفين الشيخ علي عبد الرازق والدكتور طه حسين ينتميان الى حزب معارض للوفد . وهنا تبدو قيمة مواقف العقاد ، فهو في دفاعه

---

(٨) راجع كتابنا طه حسين في معاركه الادبية والفكرية .

المجيد عن حرية الفكر والبحث ينسى انتماءاته الحزبية فلا يهمه أنه يدافع عن اثنين يعترض عليهما زعيم الحزب أو أن اتجاه الاثنين مخالف لاتجاهه الحزبي . . لا يهمه ذلك ما دام هو يدافع عن حرية الفكر .

الموقف الثالث الذي اتخذه العقاد في سبيل حرية الفكر والبحث كان حول مسرحية « جان دارك » « لبرنارد شو » حيث يقول :

تقرر في سنة من السنين الدراسية ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ تدريس رواية جان دارك لبرنارد شو في الجامعة المصرية . فأثار القرار اعتراضا شديدا ممن سمعوا بالرواية . ولم يطلعوا عليها لأن النبي عليه السلام يذكر فيها باسم راعي الابل .

« ووصلت الحملة على الرواية الى مجلس النواب وتصدى أربعة من النواب لاستجواب الحكومة في هذه المسألة وكان كاتب هذه السطور عضوا فيه فاشتركت في المناقشة لبيان الحقيقة وذكرت المجلس بموقف برنارد شو في قضية دنشواي وقلت ان العبارة المشار اليها قد وردت على لسان شخص من شخوص الرواية لا على لسان المؤلف وان المؤلف وضع على لسان شخص آخر رده المفحم عليها فقال ان اتباع محمد عليه السلام أوفر أدبا من هذا في كلامهم عن السيد المسيح وأنهم يوقرون الحواريين ولا يقولون عن واحد منهم انه صياد سمك » .

هكذا يدافع العقاد ليس عن برنارد شو ككاتب ولكن يدافع عن حرية الفكر والبحث وهذا موقف يحسب له .

التراث :

للعقاد موقف ايجابي من التراث العربي فهو يؤكد كثيرا على العودة الى هذا التراث والاستفادة منه ويرى أن الانسان العربي لا تكتمل ثقافته وهو في معزل عن تراث امته وان هذا الانسان مهما حقق من العلم ومن الثقافة غير العربية فسيظل ناقص الثقافة الى ان يتممها بالرجوع الى تراث السلف .

والحق ان العقاد اتخذ هذا الموقف من التراث بتأثير مدرسة الشيخ محمد عبده الذي طالب ان يعاد النظر الى التراث في ضوء الفكر المعاصر . وهذا الاتجاه من الشيخ الامام وجد استحسانا عند العقاد امرا جعله يعتقد أن العودة[٩] الى التراث العربي تساعده مساعدة

---

(٩) راجع العقاد بين اليمين واليسار ـ رجاء النقاش ص ٢٢ .

جديه على أن يحس انه مفكر له جذور وليس كائنا هشا لا جذور له على الاطلاق . وهذا الشعور بالانتماء الى ثقافة لها قيمتها ودورها الحضاري . كان شعورا مناسبا لطموحه أشد المناسبة ـ فقد كان منذ البداية طموحا يشعر بالاعتزاز الشديد بنفسه وليس من المنطقي مع انسان مثل العقاد يعتز بنفسه ان يقتنع بسهولة انه انسان بلا ماض بلا تراث بلا جذور او أن يقتنع بان بلاده التي ولد فيها بلاد عقيم عاقر ليس لها ماض من اي نوع .

لهذا كان اهتمام العقاد بالتراث العربي وبالثقافة العربية اهتماما تجاوز الصفحات والابحاث والمقالات الى الكتب حيث نرى عند الحديث عن اعماله أن هناك كتبا قدمها العقاد تتحدث عن هذا التراث وتلك الثقافة .

فهو يرى أن الثقافة العربية بما تحويه من تراث أقدم من الثقافة اليونانية والثقافة العبرية مؤكدا ان هذه حقيقة من حقائق التاريخ الثابت الذي لا يحتاج الى عناء طويل في اثباته .

هذا الرأي الذي يعلنه العقاد يصحح الاوهام الشائعة بين الغربيين من تخلف الامة العربية في ميادين الثقافة والحكم عليها في جميع الاحوال بأنها تبع مسبوق تقتدي باليونان في ثقافة الفكر ، وبالعبريين في ثقافة العقيدة وليس للأمة العربية سابقة من سوابق الفضل يدين لها اليونان واولئك العبريون[١٠] .

ومع ان العقاد يؤمن ايمانا عظيما بالتراث العربي وقيمته والثقافة العربية وعطائها الا انه يحذر من امرين الغرور وسوء الفهم .

الغرور الذي يصرفنا الى الحديث عن هذه الثقافة بمناسبة ومن غير مناسبة والاستهانة بثقافات الغير وسوء الفهم الذي يجعلنا نؤمن بأننا مبرأون من العيوب معصومون من الخطأ أو نفهم ان عيوبنا هينة لا تكلفنا المشقة في اصلاحها وان اخطاءنا قليلة لا تعاودنا في كل آونة من حياتنا مع انفسنا او حياتنا مع اخصامنا .

إن إيمان العقاد بتراثنا وثقافتنا يجعله يؤكد دائما اننا سبقنا السابقين الى ثقافة المعرفة وثقافة العقيدة اربعين قرنا . وأننا اعطينا العالم حظا منهما لا يزول منذ اربعة عشر قرنا .

---

(١٠) راجع الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونان والعبريين ـ العقاد

العامية :

موقف العقاد من العامية واحد طوال حياته لم يتغير ولم يتبدل . وهو الرفض ويرى أنه من الظلم للشعب ان نصفه بأنه لا يفهم الا العامية وان الفصحى صعبة غير مفهومة . فهذا الشعب يستسيغ الفصحى ويفهمها ويتذوقها اليس ابناء الشعب هم الذين يفهمون القرآن عند قراءته او سماعه اذا كان المستمع جاهلا لا يقرأ .

بل إن العقاد يرى العامية - رغم تداولها - غير مفهومة في احيان كثيرة وهذا عكس ما يعتقد من أن الفصحى هي التي لا يفهمها الشعب . ان العقاد يقول[11] فكتابة الموضوع باللهجة العامية لا تجعله مفهوما لمن يقرؤه من العامة او الدهماء . بل لا تجعله مفهوما عند أخص الخاصة اذا كان ذلك الموضوع غريبا عما تعلموه وتعودوا التفكير فيه .

واذا عمدنا الى مسألة من مسائل الهندسة العالية فكتبناها باللهجة العامية لم يفهمها العامي ولا القارىء المثقف المستبحر في ثقافته الادبية او الفنية ما لم يكن على حظ كاف من العلوم الرياضية .

ويتساءل العقاد في نفس المقال : « فاذا كانت اللهجة العامية لا تغني قارئيها عن فهم الموضوع فهل المقصود من الكتابة بها أن نحرم قراء الشعب من كل موضوع يحتاج الى الفهم والتعلم . وأن نقصر الكتابة التي يسمونها بالشعبية على موضوعات الجهل والموضوعات التي يقف عندها الجهلاء بغير تعليم وهل تكون هذه الكتابة شيئا يسمى ادبا ويقترن بالتأديب والتهذيب على اي معنى من معاني التأديب والتهذيب او يكون المقصود ان الدهماء ما دامت جاهلة فيكفيها هذا الجهل . ولا يجوز للكاتب أن يقدم لها شيئا يخرجها من جهلها ويدعوها الى محاولة الفهم والانتفاع بمعرفة لم تكن تعرفها قبل قراءة الكتاب ؟

وينتهي العقاد في هذا المقال الى القول : « ان العامية - مهما تكن - ليست بلغة الثقافة والادب ، وليس معنى الثقافة والادب الا ان يتعلم الانسان شيئا لم يعلمه ، وان يتعود شيئا ليس من عادات الجهل ولا من عادات الانسان « الخام » اذا اخترنا هنا تعبير العامة في موضوعه » . .

وعن استخدامات العامية في المجالات الفنية كالمسارح مثلا ، وتغليبها على الفصحى

---

(١١) مقال في الاخبار للعقاد في ٢٥/ ٢/ ١٩٦٣

على اعتبار ان هذه العامية هي اللغة المستخدمة في بيوتنا ، وهي التي نقضي بها مصالحنا في السوق وفي بقية المجالات المختلفة ، يرد العقاد على هذا الرأي قائلا[١٢] : وكأن هذا اوجه ما يحتجون به للعامية على الفصيحة واظهر ما يظهرون به فضل اللغة التي لا قواعد لها على لغة القواعد والاساليب . . ولو سألتهم ما لنا لا نلبس الجلابيب في الاندية ومراكز الاعمال . أو مالنا لا نخلع كل لباس في حمارة القيظ ولا حاجة لاكثرنا باللباس في وقيرة الحر الشديد لو سألتهم هذا السؤال لتذكروا ان ما يصنع في البيت ليس من الضروري أن يصنع في كل مكان وليس من اللازم المتفق عليه ان يكون هو اصل التقاليد وقسطاس المعاملات فما كان البيت بيتا الا ليجوز فيه من دعة الجسد والفكر ما ليس يجوز في الديوان والدكان فضلا عن المدرسة والنادي ومحافل البحث والظهور وما كانت النفس لتستحضر جميع مواقف الحياة وهي في حالة التبذل والراحة او حالة الاضطرار ومعالجة مطالب الاجسام . .

ويرد العقاد على هؤلاء الذين يبشرون باللغة العامية ويطالبون بأن تكتب بها المسرحيات حتى تبسط مواقف الروعة والاحساس وحجتهم في ذلك أننا نحاكي الطبيعة في التمثيل فنتكلم على المسرح كما نتكلم في اي مكان آخر هنا يرد العقاد عليهم ببساطة ذاكرا ان الذين يقولون هذا الكلام لا يفوتهم ان يرتدوا للمسرح رداء خاصاً وهذا بلا شك خير رد على من يطالبون باستبدال الفصحى بالعامية محاكاة للطبيعة وخلاصة موقف العقاد في هذه القضية نراه في قوله[١٣] :

« اما الذين يستحسنون التعبير بالعامية ويؤثرنها على الفصحى لسهولة كتابتها وفهمها فهم مخطئون فيما يتوهمون بل هم يعكسون الحقيقة ويتكلمون من غير تجربة ولا روية . فالكتابة بالفصحى اسهل على معالجها من الكتابة بلغة العامة والجهلاء ومن توهم غير ذلك فليتناول صفحة يكتبها بالفصحى ثم يحاول ترجمتها الى العامية ولينظر ايهما أشق عليه وأحوج الى الدقة وكثرة التمحيص والانتقاء ولسنا نشترط أن تكون الصفحة في غرض من الاغراض العالية في الفلسفة او الشعر او العلم او الفن فان صعوبة التعبير بالعامية في هذه الاغراض أبين من أن تحتاج الى بيان ولكننا نطلبها صفحة في البيع والشراء والمساومة وسياسة الجماهير واشباه هذه المعاني التي لا تعز على الدهماء فان تبين بعد هذا ان الكتابة

---

(١٢) ساعات بين المكتب ـ للعقاد ص ١٤٢

(١٣) نفس المرجع ص ١٤٥

بالعامية ليست بأيسر من الكتابة بالفصحى لم تبق الا دعوى الجمال والرونق وليس يدعيها للغة العامة على لغة الخاصة انسان له معرفة بالاثنتين .

اما سهولة الفهم فحسبك منها ان عامية القاهرة قلما تفهم على جليتها في بعض قرى الصعيد وان عامية مصر لا تفهم في تونس والعراق او في اليمن وفلسطين وأنك تكتب الفصحى فيفهمك من في مراكش ومن في صنعاء ومن في جاوة ومن في نيويورك . ولكنك تكتب العامية فتحتاج الى عشرين ترجمانا ينقلونها الى اخوانك في اللغة والاداب ثم ينقلونها الى لهجات تختلف في ملابسات المعاني ومقارنات الافكار . فلا تؤدي مرادك الا على شيء من التجوز والتبديل .

ان في كل أمة لغة كتابة ولغة حديث وفي كل أمة لهجة تهذيب ولهجة ابتذال . وفي كل امة كلام له قواعد واصول وكلام لا قواعد له ولا اصول وسيظل الحال على هذا ما بقيت لغة وما بقي ناس يتمايزون في المدارك والاذواق . فلن يأتي اليوم الذي يكتب فيه فردوس ملتون بلغة العامل الانجليزي وفلسفة « كنت » بلغة الزارع الالماني ولن يأتي اليوم الذي تستوعب فيه قوالب السوق كل ما يخطر على قرائح العبقريين ويختلج في ضمائر النفوس ويتردد في نوابغ الاذهان . فالفصيحة باقية والعامية باقية مدى الزمان ومزية الاولى القواعد والاحكام ومزية الثانية الفوضى والاختلاط واذا جاز في زمن من الازمان ان ننسى الفوارق كلها في التفكير والاحساس والشارة والمقام فهنالك يجوز ان تلغى القواعد وتبطل اللهجات وتطغى العامية على الفصيحة في كل بيئة وكل موضوع وهيهات .

الرجعية :

من يتابع مواقف العقاد السابقة لا يستغرب موقف العقاد من الرجعية على الرغم من ان بعض نقاد العقاد يتهمونه بهذه التهمة الباطلة . ويبدو أن خصم العقاد كان يستخدم معه كل سلاح ولعل اصدق تعبير عن هذه الحالة ما ذكره رجاء النقاش في كتابه « ادباء ومواقف » فقد كانت بينه وبين العقاد خصومة دفعت به الى ترديد هذا الاتهام حيث قال « احب أن اقول كلمة اؤمن بها للحقيقة والتاريخ فالعقاد لم يكن في فكرة من افكاره مأجوراً ومواقفه الفكرية التي لا يوافقه عليها الاشتراكيون لم تكن لحساب احد كما قال البعض كثيرا واعترف ـ صادقا مستريح الضمير ـ أنني واحد من الذين اخطأوا في حق

---

(١٤) نفس المرجع ص ١٤٥

العقاد واتهموه بأنه كان مأجورا في بعض كتبه ودراساته فالعقاد كان كثيرا ما يفرض على الذين يناقشونه عندما يغضب ان يستخدموا ضده كل الاسلحة ».

ومثل تهمة العقاد بانه كان كاتبا مأجورا اتهموه ايضا بانه كان كاتبا رجعيا . . ونسوا أو تناسوا مواقفه العظيمة طوال حياته ، نسوا كيف كان موقف العقاد من ثورة ١٩١٩ . لقد كان يمثل في كتاباته اليسار الوطني اصدق تمثيل ، ونسوا أيضا موقفه من السلطة وعلى رأسها الذي كان لا يريد للأمة دستورا واذا وجد هذا الدستور يعطله واذا طالبت الامة بعودة هذا الدستور عمل على الغائه واعلان دستور آخر ، ونسوا ايضا موقفه من حكومات الاقليات ممن يمثلون الاقطاعيين وكبار الملاك في مصر . . نسوا كل هذا . لا لشيء الا لكي يصدوا هجمات العقاد الضارية .

ان كراهية العقاد للرجعية كانت لا تساويها الا كراهيته للاستعمار وأنه دائما يقرن الاثنين ببعض حيث يقول[١٥] : « في الخطاب المفصل الذي ارسله الينا صديقنا (. . .) بيان واف للرأي القائل بأن الأزمة الحاضرة في مصر هي أزمة الرجعية قبل غيرها . . وأن الانجليز لم يخلقوا الازمة وانما ـ حاولوا ويحاولون ـ ان يستفيدوا منها بعد خلقها وهذا الرأي هو رأينا الذي لا تزيدنا الحوادث الا اقتناعا به ووثوقا منه ولا يدعونا الى تقريره وتوكيده الا ان يعرف المصريون الحالة على حقيقتها ويعلموا اصول الدسيسة من اين تنجم والى اي غاية تسعى . وفرق بين ان نقول ان فلانا قتل القتيل ليغتصب تركته وبين ان نقول ان فلانا رأى الورثة يتنازعون على تركة القتيل فاراد ان يستغل النزاع بينهم فيما يفيده . فالانجليز لم يقتلوا القتيل في هذه الازمة ولكنهم تركوا الرجعية تغمد خنجرها ولم يمنعوها ان تقتل ولو انهم منعوها في بادىء الامر لاستطاعوا ان يجدوا الحجة لمنعها فتمتنع لا محالة . لو انهم لم يجدوا لهم مصلحة في ذلك فلم يفعلوه .

ويقول أيضا : فالرجعية آثمة مصرة على إثمها . ماضية فيه من زمن بعيد لا يثنيها عنه شقاء هذه الأمة ولا ما تبتلى به من الفاقة والشدة والخراب بل هي تنتهز هذه الفرصة لتضرب ضربتها فتزيد الامة فاقة على فاقة وشدة على شدة وخرابا على خراب .

بل ان العقاد يوضح العلاقة بين الرجعية والانجليز بصراحة متناهية حيث يقول : فالرجعية تعتمد على تبادل المنفعة بينها وبين اعوانها من الانجليز .

---

(١٥) المؤيد الجديد ١٤/ ٩/ ١٩٣٠

هذا هو رأي العقاد وموقفه من الرجعية الأمر الذي جعل هذه الرجعية تنتهز اول فرصة للزج به في السجن واعتقاله تسعة اشهر .

اذن لا مبرر للقول بأن العقاد كان رجعيا ، بل العكس ينبغي أن يكون في كل مواقفه ، في السياسة ، في الفكر ، في الادب ، في الفن ، في الحياة الاجتماعية ، في التاريخ ، فكلها تؤكد رفضه للرجعية .

القسم الثالث

اتجاهات ادبية ونقدية حديثة

* الشعر
* القصة
* النقد

الاتجاهات الادبية والنقدية

للعقاد رأي في الاتجاهات الادبية والنقدية الحديثة بوجه عام فهو يرى أن للأدب في عصوره النشطة حركتين : إحداهما التطور والامتداد وهي حركة متقدمة ذات اتجاه معروف يشبه اتجاه التيار بمجرى النهر المطرد في حركته الى غاية مجراه . . وهي كذلك أشبه بحركة النمو في الجسم الحي تحتفظ بالبنية وتزيد عليها ولا تلغي شيئاً من البنية الا اذا جاءت بعوض له في مكانه .

والحركة الثانية التي يراها العقاد للأدب في عصوره النشطة هي حركة التغيير الذي ينبعث في الأدب وفي غيره من مجرد حب التغيير وقد يسميها بعضهم مذاهب ومدارس وليست هي المذاهب أو المدارس في شيء وانما الاحرى بها ان تسمى بالازياء والجدائل العارضة « الموضات » التي تتغير مع الزمن وقد تعود في صورة أخرى بعد فترة طويلة أو قصيرة ولا معنى فيها للتقدم والاطراد وإنما هي - بالنسبة الى حركة التيار في مجراه - أشبه بحركة الموج من الشاطىء الى الشاطىء . تزحف كل موجة منه على ما بعدها فتلغيه وتزول هي بعده في موجة أخرى ولا تتقدم بالنهر خطوة واحدة في طريق مجراه .

ويغلب على هذه الموجات التي يمحو بعضها بعضاً في تواريخ الادب ان تنشأ من سوء فهم الاراء الحديثة وسوء تطبيقها على الموضوعات الفنية .

وأشهر ما حدث من هذا القبيل في العصر الحديث سوء فهم أصحاب « الموضات » الدعوة الى إلغاء كل استعداد فني غير متوافر لمن يجهلون أصول الفنون والآداب .

فلا لزوم لقواعد الرسم والتلوين في التصوير ، ولا لزوم للنحو والصرف في اللغة ، ولا لزوم للقوافي والوزن في الشعر ، ولا لزوم - جرياً على هذه القاعدة - لقيود العرف والاخلاق في العلاقات الاجتماعية . وبعبارة أخرى لا لزوم لمزية من المزايا ، ولا لضرب من ضروب الاستعداد لا يشيع بين جميع الناس .

ويرى العقاد ان هذه الدعوات لا تجاوز أعمار « الموضات » التي يعجل اليها الزوال وأن

هذه الامواج يلغي بعضها بعضا . . ليست الا مما يطلق عليه اسم الاتجاه في الادب والنقد . . لا في الادب العربي ، ولا في غيره من الادب والنقد العالمي . وليست هي بالتيار الجاري في مجراه القويم على اية حال .

ويؤكد العقاد وجهة نظره هذه حيث يدعو الى النظرة الى أدبنا العربي في مجراه . وأن يعرف نظرته عن هذه الموجات جميعاً ليرقب النهر في طريقه المتقدم منذ مطلع نهضتنا الفكرية الى اليوم . فإنه وشيك أن يتابع النهر في طريقه منذ نيف وسبعين سنة متقدماً على سنة التطور بغير انقطاع وبغير التفات الى هذه المقاطعة العارضة من الشاطىء الى الشاطىء في موقع محدود لا تتعداه .

ومن هذا الاتجاه المطرد يبدو جلياً واضحاً أن الادب العربي يتقدم في وجهة الاستقلال بجملة معانيه بالنسبة الى الفرد وبالنسبة الى الأمة وان العلامة المحققة لهذا الاتجاه هي الابتعاد يوماً فيوماً عن التقليد والاقتراب يوماً فيوماً من التعبير المطبوع الذي لا يقوم على المحاكاة ولا على النقل بغير تصرف فيه .

ويضرب العقاد مثلا بالشعر حيث يتقدم الشعراء من شعر النماذج العامة ، الى شعر التعبير عن الشخصية المستقلة .

والعقاد يعني بشعر النماذج ذلك الشعر الذي يصف نموذجاً من الناس كما يكون في الجماعة العامة ولا ينفذ من وراء النموذج إلى افراد الناس « شخصية شخصية » مستقلة بطابعها عن سائر الشخصيات الانسانية .

فاذا تغزل مائة شاعر في معشوقاتهم فالمحاسن المحبوبة في جميع هؤلاء المعشوقات واحدة لا تنويع فيها من صفات الطلعة والعين والانف والثغر والقامة الهيفاء والخصر النحيل . الى صفات الدلال والتيه والهجر والمطل بالمواعيد .

واذا امتدح شعراء العصر جميعاً وزراء العصر جميعاً فليس أمامنا غير وزير واحد تتكرر شمائله واعماله في كل قصيدة بمختلف العبارات والاساليب .

تغير ذلك كله رويداً رويداً في مدى هذه السنين من عهد الثورة العرابية وما قبله بقليل وظهر بعد الشعر الذي يقوله شخص له شعوره المستقل وتقديره الخاص لمعاني المديح والذي يقال في ممدوح مميز بطابعه الحي الذي لا يختلط بغيره من الممدوحين .

وسرى هذا الاستقلال سريانه السريع في منظومات الغناء من القصائد الفصحى او

الازجال والمواويل . . فالاغنية اليوم تعبر عن علاقة حاصلة أو عن واقعة محدودة ولا ترسل ارسالا في قالبها الموروث بنغماتها او بمضمونها المكرر المطروق .

وظفر المسرح بنصيبه من هذا التطور في الروايات المسرحية واكثرها ينظم لاحياء الشخصيات التاريخية بصورتها التي يخرجها الشاعر من القالب العتيق الى عالم الحياة بين الاحياء .

وظفرت المسائل الاجتماعية بالنصيب الأوفى في الشعر الحديث واكثر ما يكون ذلك في سياق القصة المنظومة التي تمزج التعبير العاطفي بالنظرة الاجتماعية الى أبطالها وبطلاتها وقد القيت في مهرجان للشعر بالاسكندرية قصائد لكبار الشعراء تزيد على العشر كانت سبع قصائد منها من باب القصص الاجتماعي او النفساني تهدف الى غاية للشاعر وراء الوصف الصادق والتعبير العاطفي عن وقائع القصة ومواقفها .

اما النثر الادبي فقد كاد يقصر على القصص وعلى التراجم أو السير التي يصح ان تلحق بالقصة التاريخية .

وانصرف القاصون عن الموضوعات الغرامية او الحماسية والرومانسية التي تصور الحياة الواقعة في أحياء المدن وجهات الريف وغلبت القصة الهادفة على الاغراض القصصية الاخرى كما غلبت الاهداف القومية والاشتراكية على جملة الاهداف التي يرمي اليها الهدفيون من القصصيين .

وكان للمسرح حظه الموفور من فن القصة الهادفة وراجت الكتابة باللغة العامية في القصص المسرحية لانها مقصودة لاغراضها المحلية الموقوتة فلا تحتاج الى الاسلوب الفصيح وهو اسلوب كل كتابة يقرؤها أبناء الاقاليم على اختلاف لهجاتهم الغامية واختلاف الازمنة بين جيل وجيل .

ولا يوجد في القصص العربي اليوم ذلك النوع من القصة الذي يدخلونه في الغرب تحت عنوان«البرج العاجي» ويعنون به أدب الزينة والرفاهية . وادب العواطف اللاهية التي يتسع لها وقت الفراغ . وانما يوجد من بين الكتاب الكبار من يشترك في وضع القصص الرمزي الذي يتناول سرائر النفس الانسانية ويكاد يحسب من رموز التصوف واسرار ما بعد الطبيعة .

ويوجد كذلك من بين كبار الكتاب من يمارس أدب البرج العاجي في حواره المنتظم

وموضوعاته التي تستعار أحياناً من الاساطير وما اليها من مبتكرات الذوق والخيال . ولكن روايات هذه النخبة من كبار الكتاب لم تخل قط من ناحية اجتماعية او ناحية فكرية لا يصدق عليها وصف الناقدين لادب الفراغ ،وقد يقال في هذه البروج العاجية أنها لم تخل من حجراتها التي ينتفع بها للسكن والمأوى من خين الى حين .

وتكاد القصة تجور على نتاج الادب المنثور وأن تشغل الاكثرين من قرائها عن أبواب الادب الأخرى . ولا نخالها تركت لهذه الابواب الادبية ما يزيد على ربع محصول التأليف مما تصدره المطابع في كل عام .

الا ان التأليف في النقد الادبي وفي تاريخ الأدب وفي المقالة الوصفية لا يزال في ازدياد وانتشار . . عند المقارنة بين مؤلفات اليوم وأمثالها من المؤلفات الى منتصف القرن العشرين . . ويتسم التأليف في هذه الابواب بسمات العصر كله وهي سمات الاستقلال او الترجمة مع التعقيب عليها والتصرف في الآراء والاحكام التي تحتويها . وربما استخدم المؤلفون في النقد الادبي او تاريخ الأدب مصطلحات المذاهب الغربية من أقدم عصورها الى العصر الحديث ولكنهم يحاولون في اكثر الاحوال ان يقابلوا بينها وبين اصول البلاغة عند العرب في المشرق والمغرب ويعطوا الشعر العربي حقه من الافتراق عن اشعار اللغات الاخرى بمقوماته التي تستلزمها الفوارق الاصلية بين لغة الاشتقاق والوزن في كل كلمة من كلماتها وبين لغات النحت وهي لا تتقيد بالوزن في كلمة من كلماتها ولا توضع فيها المشتقات على أوزان مقررة لا تحيد عنها .

وينبغي ان نذكر هنا ان هذه الوجهة في ادبنا الحديث تعم ادب المرأة كما تعم أدب الرجل . . وان صح هذا التقسيم في ثمرات الفنون وانما يصح في جميع الاذواق والمشارب ان ينقسم الادب الى الجيد منه وغير الجيد . ولا تتوقف جودته على جنس الاديب ولا سنه ولا مزاجه ولكنه يختلف في بواعثه ولا يندر ان يكون اختلافه بين اديبين من جنس واحد اقل من اختلافه بين اديبة واديب .

وقد اشترك في مهرجان الشعر بالاسكندرية عشر اديبات منهن باحثتان في النقد الادبي وفي تاريخ الادب وسائرهن شاعرات لم يزلن في سن الشباب اذا لوحظ في شعرهن شيء خاص ينسب الى الجنس . . فهو الميل الى المحافظة في التزام اصول الشعر على عروض لا يجوز فيها اهمال الوزن والقافية . . وليس هذا بالشيء الخاص بأدب المرأة الا في اعتبار القائلين ان المرأة اقرب الى المحافظة على سنة الجماعة .

ولكن اشتراك المرأة في الحركة الادبية على أية صورة من الصور هو نفسه علامة مستقلة من أبرز علامات الاتجاه المتطور مع الزمن الحديث . وخلاصته في كلمات الختام أنه اتجاه من التقليد الى الاستقلال او من النماذج التي يغيب فيها الفرد بين أشباهه الى الشخصية المتميزة بطابعها في اختيار التعبير واختيار الموضوع او هو على الاجمال اتجاه الكاتب الذي ينقل عن مشق منقوط كمشق الخطاط الى صاحب الخط الذي لا تتشابه فيه يدان .

ويشير العقاد الى ما حدث في الادب والنقد بين اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . حيث تكونت مدرستان . مدرسة ترجع الى القديم حيث فيه العظمة والتفوق ، ومدرسة تدعو الى محاكاة الاقوياء من ابناء الحضارة الاوروبية في كل شيء . واعتدلت بين هاتين المدرستين مدرسة متوسطة ترى ان المحاكاة لا تفيد . سواء أكانت محاكاة لقديمنا أو محاكاة لجديدهم وانما الأصوب ان نأخذ بالحسن من كليهما .

وتكاد هذه المدرسة الوسطى أن تغلب على اتجاهات الادب في العصر الحاضر

ولكن هذه المدرسة تعارضها دعوة جامحة تحاول ان تنطلق من جميع القواعد وجميع القيود . وآفتها الكبرى انها تخلط بين القواعد والقيود فتحسب ان الانطلاق من القيود سيلزم بالانطلاق من القواعد الفنية وهو وهم ظاهر البطلان لأن الفنون لا توجد بغير قواعد تعصمها من الفوضى . بل لا توجد لعبة عامة بغير قاعدة عامة ولا يستطيع لاعب الشطرنج او النرد او الدومينة مثلا ان يحرك القطع كما يشاء . والا بطلت اللعبة كلها في لحظة واحدة .

ومن اسباب التفاؤل في مصير هذه الدعوة الجامحة انها أجنبية غربية لم تخلقها بنية الامة ، ولم تنبتها جذورها العريقة ولا فروعها الحديثة ولكنها أشبه بالزوان بين سنابل القمح يوشك ان يخنقها لو بقي . وليست لها مع هذا قوة على البقاء .

فالاتجاهات الحديثة في الأدب العربي لا توجهها هذه الدعوة في الواقع ، ولا تنقاد لها باختيارها ولا على غير قصد منها ، وانما تأتي هذه الاتجاهات نتيجة للحالة العملية التي طرأت خلال ربع القرن الاخير وهي حالة يلخصها ظهور الاذاعة وانتشار الصحافة وزيادة عدد القراء حتى دخلت في موازين القراءة والكتابة مسألة الكثرة العددية بعد ان كان الحكم فيها للصفوة المختارة من المثقفين اصحاب الاراء والاذواق .

ان هذه الحالة العملية ليست مذهباً من مذاهب البحث والتفكير وليست مدرسة من

مدارس الفن التي تتقابل فيها الحجج والاقوال . ولكنها هي النتيجة التي لا بد منها في اول عهد الاذاعة مع انتشار الصحافة وتداول القراءة بين عدد كبير من القراء تميل الجمهرة الغالبة منهم الى التسلية ، ولا تستعد بثقافتها لطلب الفنون العالية والتعبيرات الرفيعة في آداب اللغة وسائر التعبيرات التي تؤديها الفنون بوسائلها المتعددة .

وتتلخص هذه النتيجة في الاتجاهات الآتية :

و(أولها) وفرة القصص السهلة التي تخاطب الغرائز ولا سيما الغرائز الجنسية وغرائز الصراع التي تتأثر بالمخاوف والاهوال وتمثيل القصص بالصور المتحركة قد جعلها من شئون السماع ولم يقصرها على القراءة .

و(ثانيها) شيوع الموضوعات المرضية التي يمكن ان توصف في جملتها بانها من موضوعات الصحافة الشائعة يشترك فيها جمهرة القراء .

و(ثالثها) قلة الشعر المستقل ، وكثرة الشعر الذي يعتمد على الغناء والمناظر المسرحية ويقترن به الرقص ومواقف الغزل واللهو على الاجمال .

تلك هي الاتجاهات الشائعة التي تعم الجمهرة القارئة ولا تتخصص بطائفة من طلاب المطالعة التي لم تتأثر بانتشار الصحافة المبتذلة وبرامج الاذاعة ومعارض الصور المتحركة .

الا انها اتجاهات شائعة تحكمها العددية ولا تلغي وجود الاتجاهات الجدية التي تستعد للادب بثقافة عالية او فهم راجح ورغبة صادقة في الاستفادة وتهذيب العقل والذوق .

فالى جانب القصص الغريزية والمناظر المثيرة توجد المطالعات الرفيعة في النقد والتاريخ والتحليلات النفسية وتوجد التصانيف التي يدرسها الطالب في جامعته وتشتمل عليها برامج التعليم في مراحله العالية .

وربما كان نصيب النقد اكبر من نصيب الخلق والابتداع في هذه المطالعات الجديدة . ولكنه نقد مستقل في كثير من موضوعاته وكل استقلال هو نوع من الخلق والانشاء وان لم يأت بثمرة جديدة لان الاستقلال في النقد كالابداع في ثمرات الفنون كلاهما يعتمد على « شخصية » المؤلف وموازينه التي لا تختل بالمحاكاة أو المجاراة .

وطوالع الامل تبشر بالانتقال من هذه الحالة الى حالة خير منها لأنها تبشر بالتخصص بين القراء كما تبشر بالتخصص بين الادباء .

فالقصة المهذبة توجد الى جانب القصة الغريزية وإن كانت الآن لا تروج مثل رواجها .

وقلة الشعر المستقل او المحض ، لا تدل على انطفاء شعلة الشعر في النفس الانسانية ولا نحسب ان هذه الشعلة تنطفىء في وقت من الاوقات : اذ كان الشعر ملكة انسانية لم تتجرد منها قبيلة من قبائل البشر ، وصلت الى طور التفاهم والتخاطب ، ولا شك أنه اول ما يسيغه الطفل الوليد من الكلام لانه يتأثر به في المهد قبل ان يفهم ما يقال بلغة الخطاب .

انما قل الشعر المحض لأن موضوعه مشترك في العصر الحاضر بين كثير من التعبيرات التي تؤدي رسالته او تنوب عنها ، ومنها السماع الميسر في جميع البيوت من طريق الاذاعة او طريق الاسطوانات ومنها التعبيرات العاطفية التي تنفس عن شعور القارىء والسامع كلما اطلع على خبر او حادث ينبه احساسه ويشغل خاطره كما كانت تشغله من قبل قصائد الشعراء .

ونحن في عصر يجمع بين النقيضين : لانه عصر المشاهدات العالمية التي تواجه الانسان كل يوم بملحمة مفعولة وان لم تكن ملحمة منظومة او مقروءة .

نحن في عصر يستطيع أن يجمع بين النقيضين . لأنه عصر العالميات التي لا تنحصر في حدود البلدان . وهذان النقيضان هما : التخصص والتعميم .

ففي وقت واحد يتخصص الطب مثلا . حتى ليوجد الطبيب الذي يعرف كل شيء عن علاج العين ولا يعالج الانف وهو الى جوارها .

وفي هذا الوقت نفسه يشعر هذا الطبيب أنه ينقطع في عزلة عن العالم ، وعن علمه نفسه ان لم تتسع معارفه العالمية ولم تكن له احاطة ملمة بكثير من الدراسات والمعلومات .

وكذلك يتجه الأدب الى التخصيص كلما عم وانتشر وشاع بين الجمهرة والعلية المفكرة . فلا يزال حتى ينفرد كل فن من فنونه بقرائه وكتابه مع الالمام المحيط بسائر الفنون .

وخلاصة القول في اتجاهات الادب العربي الحديث كما يراها العقاد ان الاتجاه المتطرف منها غير أصيل وغير مستمد من بنية الامة العربية وان الحالة العملية اقوى اثراً فيه الآن من المذاهب والمدارس الفكرية . ولكن هذه المدارس والمذاهب لم تتزحزح عن مقامها ولا تزال في انتظار التطور الذي يأتي به التخصيص بعد التعميم والشيوع وان الملكات الناقدة

اكبر عملا في عصرنا هذا من الملكات الخالقة ويشفع لها انها ملكات ناقدة تجنح الى الاستقلال وهو أقرب ما يكون الى الخلق والابتكار .

ونستطيع ان نمثل لهذه الاتجاهات الحديثة في الادب والنقد بثلاثة انواع هي الشعر حيث برز الشعر المرسل الحر والقصة حيث برزت القصة الجديدة والنقد حيث برزت اساليب عديدة من النقد . . وموقف العقاد من هذه الجوانب . .

الشعر الحديث

اكثر معارك العقاد احتداماً هي معاركه حول الشعر الجديث فقد اتسمت مواقفه في هذه المعارك بالعنف والصلابة في آن واحد .

وقد تبدو الدهشة في هذا الجانب بالذات أن العقاد كان من انصار التجديد في الشعر ، وقد شهدت عشرينات وثلاثينات هذا القرن معارك العقاد الضارية مع كبار الشعراء التقليديين حول وجهة نظره في التجديد في الشعر وربما تزول هذه الدهشة لو أدركنا ما كان يهدف اليه العقاد من تجديد الشعر . لقد كان يهدف التجديد الى بنية القصيدة نفسها لكن الشعر الحديث ـ كما فهمه العقاد كان يهدف الى الغاء الوزن والقافية ليظل هكذا حراً من الاثنين وهذا ما كان يرفضه جملة وتفصيلا ويرى أنه ليس من اللازم ان نجاري الاوروبيين في ذلك . ويرى ان طبيعتنا وطبيعة لغتنا العربية تتطلب تواجد الوزن والقافية في شعرنا .

وقد قامت معارك حول الشعر ليس في شكله وانما ايضاً في مضمونه . . ان الاطراف المقابلة للعقاد ترى ان يكون الشعر واقعياً في مضمونه . . وقد رد العقاد بسخرية على هذا المطلب متسائلا : هل من الضروري لتقرعين الواقعية ان يتضمن الشعر الكتابة عن بطاقة التموين او أسعار الحاجيات ؟ وهل اشارت « الياذة » هوميروس الى اسعار الجبن والزيتون في عصرها ؟

وعن الشكل يرى العقاد ان الشعر وزن قبل كل شيء والوزن قاعدة وهم يزنون على التفعيلة الواحدة ولكل كلمة تفعيلة . . والشعر الحق جملة تفعيلات والوزن مجموعة تفاعيل وهذا فن بني واستقام على ذلك . فهل نلغي شعر المتنبي والبحتري والاخطل والمعري من اجل عيون التجديد والمجددين ؟ ويذكر العقاد جماعة الشعر الحديث بأنهم وان كانوا ينهجون نهج الاجانب في الشعر في عدم الاهتمام بالوزن او القافية حيث

يقول : ان الشعر الاجنبي موزون مقفى . . الشعر الروسي مثلا نشأ وما زال موزوناً ومقفى حتى انه يحتوي على وزنين لاوزن واحد وضرب مثلا بديواني « بوشكين » و « يوجين » قائلا ولننظر الى هذين الديوانين . . نجد أن حرف القافية يتكرر مرتين . . واذن فالمجتمع الروسي الذي قُلب كل شيء فيه رأساً على عقب . . نشأ شعره وما زال وسيظل موزوناً مقفى . فاذا كان تغير المجتمع عندنا هو الاساس لدعوى جماعة الشعر الحديث فهذا الحادث في الشعر الروسي هو خير رد على ان التفسير الاجتماعي لا يغير قواعد الفن .

اما اذا كان الامر كما يقول جماعة الشعر الحديث بأن فن الشعر كما يراه العرب ويراه العقاد فن صعب ، فالأولى ان يتهموا أنفسهم بالعجز . هل نرضى مثلا ان نلغي فن الرقص لان المشي أسهل ؟ وهل نرضى ان نلغي فن البناء لأن الطريق اوسع ؟

ويرى العقاد انه ثبت بالتجربة ان الغاء القافية كل الالغاء . . يفسد الشعر العربي ولا تدعو اليه الحاجة . ويذكر ان تجربة الغاء القافية تجربة اشترك فيها ثلاثة من اعلام الادب العربي الحديث في القاهرة وبغداد والاسكندرية وهم « توفيق البكري » و« جميل صدقي الزهاوي » و« عبد الرحمن شكري » وكانوا اقدر ادباء عصرهم على الموازنة بين محاسن النظم في اللغة العربية ، وبعض اللغات الشرقية والغربية، ومنهم من كان يقرأ الشعر بالتركية والفارسية عدا ما يعلمه من اشعار الافرنج المحدثين والاقدمين، اما حين تأتي تجربة الغاء القافية من غيرهم فهذا ما لا يمكن السكوت عليه .

لقد كان موقف العقاد من الشعر الحديث موقفاً عنيفاً . وسوف نرى في الصفحات التالية موقفه من دعاة هذا النوع من الشعر وعلى رأسهم الدكتور محمد مندور والشاعران صلاح عبد الصبور وعبد المعطي حجازي .

* القصة :

للقصة في رأي العقاد مكانة في الادب العربي . وعالم القصة قدم لنا عباقرة مثل عالم الشعر . نلمس هذا واكثر منه في كتابات كثيرة للعقاد .

لكن العقاد كان يرفض القصة التي تنحو الى الاسهل فالاسهل . . ويرى هذا الاسلوب في كتابتها علة العلل في انحدارها على أيدي ادعيائها الذين لا يحسنون عملا نافعاً في الادب ولا في الحياة .

ويستشهد العقاد برأى واحد من القصاصين حيث يقول : « وقد احسن القصصي الشاب الاستاذ « عبد الحليم عبد الله » وصف هؤلاء الادعياء فيما قرأته له فانهم ينحدرون من قصة مبتذلة الى نقد عقيم ، لا ينتج ولا يدع الكاتبين ينتجون » . .

إن القصة الجيدة ليست بالعمل السهل ولا بالعمل المرفوض في موازين الثقافة وقد نبغ من كتاب الرواية عندنا جيل بعد جيل الحكيم وتيمور ولا يزالون يبدعون ويتقدمون . ولكن الهبوط يبدأ بعد هؤلاء ويزداد في طريق النقصان ويتقدم في طريق الانحدار ثم يسلم الزمام أخيراً الى اولئك الهجائين الهدامين الذين « هم » « كلهم نقاد » وكلهم غير منتجين ولا قادرين على انتاج .

الاسهل فالاسهل ـ هكذا يؤكد العقاد في يومياته بالاخبار قائلا : « وكان سهلا في مبدأ الامر ان تكتب القصة التي لا تعدو أن تكون ملحقاً بالفراش او ملاجىء العجز ثم صعبت هذه أيضاً على ادعيائها المصابين بداء السهولة فهم الآن في المنحدر السهل الذي لا منحدر بعده غير السكوت وهو منحدر الهراء الذاهب في الهواء .

رقم (١) قصة للتسلية

رقم (٢) قصة لاشباع الغرائز والاحقاد

رقم (٣) شتائم العجز والحسد « في سهولة ويسر » . . اسهل على الاقل من (احدوثة) التسلية وايسر على الاقل من احدوثة الفراش .

واسهل من هذه وتلك السكوت ولكن الخاتمة التي يفرضها الشعراء ولا تتوقف على ارادة الهجائين والمستسهلين » .

كذلك يرفض العقاد كتابة القصة الحديثة بالعامية مبرراً رفضه بالقول انه اذا كان غرض كتابتها لجمهور خاص من القراء فمؤلفها وشأنه . ولكن ينبغي ان يكون قد علم سلفاً انه لا يكتب لجميع البلاد العربية التي تختلف لهجاتها العامية كما انه لا يكتب للخلود او ليقرأ في ازمنة متعددة لأن اللهجة العامية لا تثبت زمناً طويلا في أمة واحدة فضلا عن عدة امم .

وهذا عدا ما هو معلوم من ان اللهجة العامية لا تتسع لتصوير المعاني النفسية الرفيعة ولا للتحليق مع الخيال الفني البديع . فهي على العموم في مستوى أو معيشة البيت اليومية .

والعقاد يفضل قراءة الشعر عن قراءة القصة فيقول في كتابه « في بيتي » :«إنني لا أقرأ

قصة حيث يسعني ان أقرأ كتاباً او ديوان شعر . ولست أحسبها من خيرة ثمار العقول،قد يكون الراوية اخصب قريحة وأنفذ بديهة من الشاعر او الناثر البليغ ولكن الرواية تظل بعد هذا في مرتبة دون مرتبة الشعر ودون مرتبة النقد او البيان المنثور » .

وقد أحس العقاد بمدى الاثر الذي أحدثه رأيه هذا في القصة ـ كما يذكر الدكتور عبد الفتاح الديدي في كتابه عبقرية العقاد ـ داخل الاوساط الادبية فكتب مقالا لعله عدل فيه من هذا الموقف في مجلة الرسالة حيث قال : حين يقول القائل ان الذهب أنفس من الحديد يقرر شيئاً واحداً وهو أن الحديد لا يدرك ثمن الذهب في سوق البيع والشراء ولكنه لا يقرر الغاء الحديد ولا استخدام الذهب في المصانع والبيوت بديلا منه ولا يعني ان الذهب يغني عن الحديد او غيره من المعادن في غرض من أغراضه .

كل ما يقرره شيء واحد وهو أن سعر الذهب أغلى من سعر الحديد ، ولا لوم عليه في ذلك وإن قيل له ان الحديد أنفع وأشيع من معادن الزينة والتجميل .

ونحن قد فضلنا الشعر على القصة في سياق الكلام عليهما من كتاب « في بيتي » فكل ما قلناه اذن هو ان الشعر أنفس من القصة وأن محصول خمسين صفحة من الشعر الرفيع أوفر من محصول هذه الصفحات من القصة الرفيعة ولا يقتضي رأينا في الشعر والقصة أن نمحو القصة وان نثبت الشعر وحده وانما نبقيهما ونبقي معهما الترجيح بينهما ونقدم الشعر على القصة في هذا الترجيح .

انني لم اكتب ما كتبته عن القصة لأبطلها وأحرم الكتابة فيها . او لأنفي أنها عمل قيم يحسب للاديب اذا اجاد فيه . ولكنني كتبته لأقول أولا انني استزيد من دواوين الشعر ولا استزيد من القصص في الكتب التي أقتنيها وأقول ثانياً ان القصة ليست بالعمل الوحيد الذي يحسب للأديب ، وانها ليست بأفضل الثمرات التي تثمرها القريحة الفنية وأن اتخاذها معرضاً للتحليل النفسي او للاصلاح الاجتماعي لا يفرضها ضربة لازب على كل كاتب ، ولا يكون قصارى القول فيه الا كقصارى القول في الذهب والحديد . . الحديد نافع في المصانع والبيوت ولكنه لا يشترى بثمن الذهب في سوق من الاسواق .

وكان غرض العقاد ان يلقن كتاب القصة درساً في معالجة هذا الفن وفي الاقبال على تأليفه وفقاً للتطورات الاخيرة التي أدخلت على فن القصة . فمجرد الاسهاب في التزويق الاسلوبي المتكرر يبعث التقزز في نفس القارىء . الذي يبحث عن الاستفادة بتجربة

عميقة معروضة في أسلوب فني خال من الافتعال والميوعة والجدب . كان غرض العقاد أن يلقن اصحاب المطولات القصصية ذات الاسلوب المنمق المرصوف ان القصة ليست هي ما يقدمونه للجمهور وأراد ان يجعلهم يعرفون حقيقة القصة المعاصرة وحقيقة التغييرات التي ادخلت على فن كتابتها .

واول غرض اذن من هذه الحملة التي شنها العقاد على كتاب القصة هو ان يدفعهم الى التجديد في فنهم ، وأن يعرفهم مدى الفشل الذي اصاب قصص السالفين من اصحاب الاطار القصصي المفكك ويقول العقاد في مقدمة كتابه « الوان من القصة القصيرة في الادب الامريكي » : « يكاد يجمع النقاد المحدثون على أن صبغة التجربة هي اغلب الصبغات على الادب الامريكي المعاصر . وهم على صواب في هذا الاجماع فإن محاولات التجربة نفسها تدل على الخصلتين في وقت واحد : تدل على الاعتداد بالذات وعلى قوة العرف والتقليد ، ولا معنى لتغليب التجربة ان لم تكن هنالك مغالبة او محاولة للتوفيق بين ما يكشفه الانسان لنفسه وما يفرضه العرف عليه».

ويعود فيقول عن الاختلاف بين أنواع القصة القصيرة والقصة المطولة : « ولم نعرف تفرقة بينهما أصح وأصدق من التفرقة التي أجملتها الكاتبة إديث هوارثون حين قالت: « ان الموقف هو الموضوع الغالب على القصة الصغيرة وان رسم الشخصية هو الموضوع الغالب على الرواية » ويمكن ان نضيف الى الموقف موضوعاً آخر يصلح للقصة الصغيرة أو الحكاية وهو الايحاء واسترعاء النظر أو هو ما يقابل حرفياً كلمة الاقتراح » .

وقد اتفق في وقت واحد ان هذه القصة تخصصت بالموقف والايحاء ، وأن الفن كله يتجه الى تمثيل الحالات ، وعرض الصور وينفر قليلاً من تعمد التسلية بمجرد سرد الحوادث وتعليق الانفاس بالمفاجآت والمثيرات ، فربما أنف الكاتب في العصر الحديث أن يقال عنه أنه يكتب للتسلية والتشويق » .

وكانت عصبية العقاد على فن القصة من قبيل الايذان بالتغيير الذي طرأ على القصص بعد الحرب العالمية الثانية وكانت في الوقت نفسه دعوة الى أن يحدد كاتب القصة موقفه بين كتاب الفنون الادبية الأخرى وأن يفطن الى المزايا الحقيقية في القصص الجيد الرفيع .

*** النقد :**

تعد الاسس والمبادىء النقدية التي استخدمها العقاد في تقييمه للآثار الادبية شعراً كانت

أو نثراً موقفاً حاداً من النقاد . . منذ ان بشر بهذه الاسس والمبادىء في العقد الثاني من هذا القرن الى السنوات الاخيرة من حياته .

وسوف نرى عند الحديث عن معارك العقاد مع الادباء والشعراء والكتاب في الصفحات التالية ان السبب الاول في قيام هذه المعارك هو تمسك واقتناع العقاد بهذه المبادىء والاسس وإيمانه بها الى الدرجة التي كانت تجعله يؤكد أنه لن تقوم نهضة أدبية أو نقدية بغير اتباع هذه الاسس والمبادىء وشيوعها في حياتنا الثقافية،ومن هذه الأسس والمبادىء كوّن العقاد لنفسه نظرية نقدية .

والنظرية النقدية عند العقاد[1] تؤكد ان النقد هو التمييز ولا يكون التمييز الا بمزية وليس هذا مجرد إيحاء كما يزعم الكثيرون من التفرد والفردية في حياة العقاد . اذ استقى العقاد مفهومه ذاك كما يقول الدكتور عبد الفتاح الديدي ـ من الطبيعة نفسها وأسلوب الحياة ذاتها فى التفضيل والاختيار فالطبيعة نفسها كما يقول العقاد تعلمنا سننها في النقد والانتقاء حين تغض عن كل ما تشابه وتشرع الى تخليد مزية تنجم فى نوع من الانواع . فسواء نظرنا الى الغرائز التي ركبتها في مزاج الانثى ، أم الى الغرائز التي ركبتها في مزاج الفنان ـ وهما المزاجان الموكلان بالانتاج والتخليد في عالمي الاجسام والمعاني ـ فإننا نجد الوجهة في هذا وفي ذاك واحدة والغرض من التخليد هنا او هناك على اتفاق . أما هذه الوجهة فهي الالتفات الى المزية البارزة التي تظهر على غمار المتشابهات والنكرات وأما هذا الغرض فليس هو إلا حفظ المزايا وتخليد النماذج وتنويع الصفات . فالنقد الخالق في رأيه اذن هو الذي يجري على سنة الطبيعة أو هو النقد الذي يعنى بحفظ النماذج وتخليدها ويعرض لنا الشخصيات التي تبرز في الحياة بعنوان جديد وقد تكون مزية هذه الشخصيات أنها تريك الأشياء الدارجة كما هي بلا زيادة ولا تجميل فلا نعجب لذاك ولا نحسبه تناقضاً في مقاصد الطبيعة فان رؤية الاشياء الدارجة كما هي ليست من الدارج المألوف بين اصحاب الشخصيات والملكات[2] .

ولا غرابة إذن في أن يذهب العقاد مذهبه في استخلاص معانيه من الموضوعات الدارجة المألوفة ، واذا كان التعارض قوياً في بعض الاحيان بين الموضوعات التي يتناولها العقاد

---

(١) راجع النقد والجمال عند العقاد ـ الدكتور عبد الفتاح الديدي

(٢) راجع عابر سبيل ـ العقاد

بقلمه ، فليس ذلك بسبب خلل في تقديره أو في مقاييسه التي يزن بها الاشياء وليس ذلك بسبب مطالب الحياة المعيشية مهما كثرت واشتدت وإنما كان ذلك بسبب سليقة الفنان التي لا تفارقه مهما ارتفع في درج الفكر الفلسفي والاجتماعي ومهما كتب في موضوعات التاريخ والادب والنقد او في مجالات السياسة والصحافة فهذه السليقة هي التي تنتزع من العقاد اهتماماته بأبسط الاشياء من حوله وبأدق الموضوعات التي تخطر على باله وتمر بذهنه .

وعلى هذا الوجه يرى عابر السبيل شعراً في كل مكان اذا أراد على حد تعبير العقاد أن يراه في البيت الذي يسكنه وفي الطريق الذي يعبره كل يوم ، وفي الدكاكين المعروضة ، وفي السيارة التي تحسب من ادوات المعيشة اليومية ولا تحسب من دواعي الفن والتخيل . . لأنها كلها تمتزج بالحياة الانسانية وكل ما يمتزج بالحياة الانسانية فهو ممتزج بالشعور ، صالح للتعبير واجد عند التعبير صدى مجيباً في خواطر الناس[٣] .

ولذلك كانت محكمة النقد كما يسميها العقاد كثيرة القضاة كثيرة القوانين ولا يجلس فيها قاض واحد ولا تدين بقانون واحد . وكأنها في نظره محكمة الخلود عند قدماء المصريين قضاتها اربعون وميزانها لا يفرط في كبير ولا صغير .

والنقطة الثانية كما قلنا هي استشفاف الدلالات اعني ان الناحية الثانية الاصيلة في تفكير العقاد هي التقاط المعاني واستخلاصها من الاعمال الادبية وكان هذا الجانب بمثابة حجز الزاوية في فكر العقاد النقدي بأكمله من مطلع حياته الادبية الى نهايتها .

فالأدب في نظر العقاد تعبير والتعبير تلحظ فيه البواعث قبل ان تلحظ فيه الغايات[٤] وعلى هذا الاعتبار كان الأدب اصدق من جميع المطالب العقلية التي تحسب من ذخائر الثقافة الانسانية . لأن البواعث حق والغايات أوهام . ونحن حين نسعى الى غاية ، فنحن منخدعون بها قبل الوصول اليها وبعد الوصول اليها ، وقد نسعى الى غاية ونصل الى غيرها وقد نصل الى الغاية التي نريدها فاذا هي هباء لا يساوي مشقة السعي في سبيله، أما البواعث فهي حق لا مهرب منه وهي شيء موجود لا خلاف في وجوده وهي مصدر التعبير . والتعبير دليل الحياة .

فاذا بحثنا عن الأدب فلنبحث عن شيئين لا يعنينا بعدهما مزيد وان وجد المزيد : أهناك

---

(٣) نفس المرجع ـ العقاد

(٤) راجع يسالونك ـ العقاد

باعث صحيح ؟ اهناك تعبير جميل ؟ فان وجد الباعث والتعبير فقد أدى الادب رسالته وبقي على الدنيا ان تستفيد منها آن شاءت. . وهي تستفيد بمشيئتها وبغير مشيئتها . من كل عمل يجري على سنة الحياة(٥) .

والى هنا تحددت طبيعة الأدب وظهرت مهمته وتكشفت رسالته ولا حاجة بالمرة الى مزيد ، غير ان الوضع لم ينته عند العقاد في حدود هذا الشوط وانما امتد التفكير بالعقاد الى حد إيقاف مهمة الادب على عملية التفسير أو على الاقل تخصيص الجزء الاكبر من مهمة الناقد لعملية الاستكناه .

ونبتت هذه الفكرة لدى العقاد منذ وقت طويل بل لعلها كانت من أولى الافكار التي لازمته ابتداء من اوائل أيام اشتغاله بالكتابة فكان يقول مثلا في رثائه للفنان سيد درويش : فتسمع الحانه كأنك تسمع تفسيراً موسيقياً لدقائق المعاني وكوامن الاحساس ، أو ترى صوراً طيفية تنسجها لك الموسيقى من خيوط النغم ونياط القلوب(٦)

وظلت فكرة التفسير هذه بمثابة العمود الفقري في كل أعمال العقاد النقدية ومضت هذه الفكرة على درجات عديدة فهي أحياناً قوية عارمة وأحياناً دقيقة بصيرة وأحياناً عميقة نافذة وأحياناً علمية نفسية وأحياناً سطحية شكلية ويمر الباحث بكافة هذه المراحل عند العقاد في منظوره عن التفسير و الاستكناه . فهي مراحل نقدية في اصلها ولكنها تنطوي رغم ذلك على قلق معرفي وعلى نظرة فاحصة وتجمع اصلا بين استكناه النفس واستطلاع المجتمع واستشفاف الحياة ، تنوعت مواقف العقاد ازاء معنى التفسير وحقيقته ووظيفته وطريقة ادائه بحيث اختلط معنى التفسير احياناً بمعنى التحليل واحياناً اخرى بمعنى التبرير والتعليل واحياناً ثالثة بمعنى كشف اسرار النفس واحياناً رابعة باشتقاق الدلالات واستخلاص المعاني .

والعقاد بهذا وضع مبدأ التفسير كاهم عامل فى النقد الادبي دون أن يقيد نفسه باتجاهات كثيرة التنوع شديدة العمق من أجل تحقيق التفسير المنشود .

ولا شك أن هذه النظرية النقدية التي تعتمد أساساً على التفسير استخدمها العقاد منذ مطلع حياته النقدية اذ ظل على الدوام يبحث عن الدلالات والمعاني في كافة أوجه العيش

---

(٥) راجع : يسألونك ـ العقاد

(٦) راجع مراجعات فى الادب والفنون ـ العقاد

والفن والادب من حوله ومما يؤكد ذلك ان العقاد نفسه يذكر انه لا محل في معجم النفوس الا للمعاني فاما الالفاظ فهي رموز بين الالسنة والاذان .

وبهذه النظرية النقدية اتخذ العقاد موقفاً من الاعمال الادبية بل ومن الاعمال النقـدية أيضاً التي تقوم على غير أساس علمي ، ومن أجل هذه النظرية أيضاً خـاض العديد من المعارك .

القسم الرابع

معارك مع الادباء والمثقفين

* مصطفى لطفي المنفلوطي
* مصطفى صادق الرافعي
* احمد شوقي
* د . طه حسين
* سلامة موسى
* جميل صدقي الزهاوي
* د . محمد حسين هيكل
* الشيخ علي يوسف
* امين الرافعي
* د . زكي مبارك
* د . احمد زكي ابو شادي
* توفيق دياب
* توفيق الحكيم
* د . محمد كامل حسين
* الشيخ امين الخولي
* د . بنت الشاطىء
* د . محمد مندور
* د . عبد العظيم انيس ومحمود العالم
* د . رشاد رشدي
* د . ابراهيم مدكور
* ابراهيم الورداني
* رجاء النقاش
* احمد عبد المعطى حجازي
* صلاح عبد الصبور

الادباء والمثقفون

لا تقل مواقف العقاد في الادب والثقافة ـ قيمة واهمية ـ عن مواقفه السياسية التي سجلها كتابنا « العقاد مواقف ضد الرصاص » فإن كانت معاركه السياسية قد كشفت الى حد كبير بعض العيوب التي منيت بها حياتنا السياسية وهذه المحن التي مرت بها الديمقراطية والحرية والاستقلال[1] فإن معاركه في الادب والثقافة قد حثت على التجويد وفتحت أبواب المناقشة والحوار والمعارضة والنقد . على نحو كشف عن حقيقة النفوس وفرق بين الزائف منها والصحيح ، وافاد حياتنا الثقافية بوجه عام ، حيث استحدث مفاهيم جديدة لم تكن موجودة من قبل وأزال نهائيا مفاهيم بالية لم تكن كلها ذات فائدة .

والحق ان هذه المعارك الادبية التي خاضها العقاد مع عدد من أفراد جيله أو الجيل السابق له او الجيل الذي بعده ، مثلت قطاعا حيا من قطاعات الحياة الفكرية في العالم العربي . له خطورة واهمية في مجالات النثر والشعر والنقد والأدب .

لقد دارت هذه المعارك بين المحافظين والمجددين « ٢ » ثم دارت بين المجددين أنفسهم متطرفيهم ومعتدليهم فانتظمت موضوعين اساسيين هما مفاهيم الادب ومفاهيم الثقافة .

فأما معركة مفاهيم الادب فقد بدأت حول الاسلوب عام ١٩٢٣ بين الرافعي وطه حسين ثم تناولت غاية الادب واتصلت بالاسلوب والمضمون والفن للفن والفن للمجتمع ومذهبي الادب بين الرافعي والعقاد ، والتراث القديم والنقد والتقريظ ومعارك مفاهيم اللغة .

وقد قامت هذه المعارك على أساس مهاجمة الاسلوب القديم المغرق في السجع ، والمقدمات والألفاظ القاموسية وحول غلبة العناية باللفظ على العناية بالمضمون .

وأما معارك مفاهيم الثقافة فيمكن القول بأنها دارت بين أربعة تيارات واضحة هي المحافظة والتجديد ثم التغريب والاعتدال في التجديد . وقد دلت هذه المعارك على يقظة

---

(١) راجع : العقاد مواقف ضد الرصاص ـ سامح كريم

المحافظين بنفس القدر الذي كان عليه المجددون .

ولقد انقسمت المدرسة التجديدية الحديثة على أساس تطور فكري وتحول عقائدي ، حيث كان دعاتها في اول الأمر من أشد المتحمسين للحضارة الاوربية . إلا أنهم اكتشفوا مدى الخدعة التي تكمن وراء إطلاق هذه الدعوة حينما شاهدوا الفوارق الشاسعة بين شعارات الحضارة الغربية وبين واقعها وتصرفاتها الفعلية في العالم العربي والاسلامي . هنالك برزت معان جديدة في نفوس هؤلاء المفكرين جعلتهم يقفون وقفة النظر والتأمل .

نظرة غلبت فيها عاطفة الايمان بالوطن والتراث وحق أمتهم عليهم . . حيث بلغ بهم الاعتقاد في بعض الاحيان بأن هذه المذاهب التغريبية لن تصل بهم الى خلق أمة جديدة او فكر جديد او الثقافة او الفكر وانما وقع أغلبها تحت سيطرة دافعين كبيرين.هما :

ـ الخصومات السياسية والخلافات الشخصية .

ذلك أن الخلاف بين الاحزاب السياسية قد جعل طائفة من الأدباء تنحاز الى هذا الجانب أو ذاك ، وكان لهذا أثره ، ولذلك كانت أغلب أحكام هذه المعارك تدل على التناقض فالرأي هنا مقيد بوجهة نظر وظرف معين . فاذا اختلف هذا الظرف تغير الرأي بل إن بعض الدارسين يذهبون الى القول بانه كان للسياسة والمعارك الحزبية اثرها في تلوث اقلام الادباء والمثقفين الذين كانوا اطرافا في هذه المعارك .

وفي ظل هذه الظروف خاض العقاد معاركه الادبية مع بعض الشخصيات يضاف الى هذا أن العقاد كان يتسم بصفة خاصة تميزه عن غيره من الادباء والمفكرين . . هذه الصفة أو السمة عبر عنها واحد من جيله هو أحمد امين أفضل تعبير حيث قال : « اول ما يروعك في العقاد انه صارم قوي الجأش لا يأبه للعواقب . وأصدق ما يكون في القتال اذا نازل من مس كرامته أو جرح عزته . إذ ذاك يكون اجرأ من السيل وأهول من الليل ينسى نفسه وماله وكل شيء حتى يسترد كرامته ويثأر لعزته » .

وفي هذا المعنى الذي عبر عنه أحمد امين يقول العقاد عن نفسه : « أنا اطلب الكرامة عن طريق الأدب والثقافة . وأعتبر الأدب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصاحبها أن يصان شرفه بين أعلى الطبقات الاجتماعية بل بين ارفع المقامات الانسانية بغير استثناء . . » . .

وبهذا المفهوم لدى العقاد خاض معاركه الادبية وكان له خصوم كثيرون عارضوه

وحاربوه،ولكنهم لم يستطيعوا أن يغضوا من قيمته كأديب ومفكر لا يكتب إلا ما يعتقد انه هو الحق .

لقد جرت عليه آراؤه في الشعر القديم خصومات وعداوات وكان ينتظر أن يكون العكس في الشعر الحديث الا ان آراءه في الشعر الحديث كانت مثار جدل ومناقشة واعتراض اكثر منه قبول .

كان يرى ان الشعر لا بد أن يعبر عن شخص الشاعر ويصدر عن احاسيسه ووجدانه كما يرى أن تيار المحاكاة الذي اندفع فيه شعراؤنا في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين يذهب بهم بعيدا عن الشعر ومعانيه الحقيقية .

فهاجم دعاة الشعر القديم وهاجموه ونشأت بينه وبينهم خصومات وحزازات .

وهاجم الشعر الحديث وهو رائد من المجددين وصاحب مدرسة الجديد . وقد أخذ عليه هذا التحول . والحق أن العقاد حين هاجم الشعر القديم لم يتعرض لأساليبه البلاغية ولا لصياغته العروضية فهي تراكيب تسير على قاعدة معروفة قام عليها الشعر منذ مئات السنين وصقلتها القرائح على مر الايام ولكن كان نقده لمعاني الشعر التي تسير على أثر من تقدموا من شعراء العرب والجري وراء ما خلفوا من تعبير .

ومن الخصومات التي تعرض لها العقاد . . خصومة المرأة - كما رأينا في الصفحات السابقة - مع انه لم يكن خصما لها وقد قدس المرأة في شخص نساء في مقدمتهن فاطمة الزهراء والصديقة بنت الصديق .

وبسبب موقف العقاد من خصومه وصموده على هذا الموقف أضير وفقد الكثير . إنه يقول في ذلك « ليس بسر مجهول عن كثير من إخواننا ان لي كتبا فرغ المترجمون من نقلها الى اللغات الاجنبية وأن فصولا منها نشرت في الصحف ثم وقفت الايدي الخفية دون طبعها ونشرها فلم تزل مخطوطة غير مطبوعة الى الآن وليس بالسر المجهول أن بعض هذه الكتب حيل بينها وبين الظهور بدسيسة ممن يعملون عمل الصهيونية وان لم يكونوا من بني اسرائيل» .

بل ان خصومه في معاركه كانوا يتهمونه بتهم يعلمون قبل غيرهم ان العقاد منزه عنها . وعلى الرغم من أنهم يعلمون مقدما براءته مما يقولون الا انهم كانوا يصرون عليها بين آونة واخرى لا لسبب الا لأن العقاد كان من العنف في معاركه بحيث يجعل خصومه لا

يدخرون سلاحا للهجوم عليه وفي هذا المعنى يعترف الكثيرون وقد اخترنا اثنين ممن كانوا على الطرف الآخر خصوما للعقاد وبالطبع يمثلان جيلين مختلفين .

اما الاول فهو مصطفى صادق الرافعي . . الذي كان له في الربع الاول من هذا القرن معارك مع العقاد،انه يقول عنه : « ان الذي يريد أن يهدم الجبل لا يستخدم الفشينك ولا البارود ، ولكن يستعمل الديناميت وقد استعملت كل ما لدي من الديناميت لأهدم الجبل وانتهى كل ما لدي من هذه المادة المدمرة . . ثم نظرت الى الجبل فاذا هو باق كما هو . . »

ونفس هذا المعنى يعترف به أديب آخر يختلف عن الرافعي في كل شيء بحيث لا يمكن جمعهما في تصنيف واحد اللهم الا من زاوية ان الاثنين التحما في معارك ادبية مع العقاد هذا الاديب هو رجاء النقاش الذي قال في كتابه ادباء ومواقف عن العقاد :«احب ان اقول هنا كلمة اؤمن بها للحقيقة والتاريخ فالعقاد لم يكن في فكرة من افكاره مأجورا . . ومواقفه الفكرية التي لا يوافقه عليها الاشتراكيون لم تكن لحساب احد كما قال البعض كثيرا واعترف صادقا مستريح الضمير انني واحد من الذين اخطأوا في حق العقاد واتهموه بأنه كان مأجورا في بعض كتبه عندما قرروا، ان يستخدموا ضده كل الاسلحة .» . .

ولا عجب في ذلك فآراء العقاد[٢] حيث امتدت تكون مثار جدل ومناقشات تشغل أهلها وغير اهلها وتجني له من الولاء والعداء بالحق والباطل ما يدل على حظها من الاهتمام والتقدير وخصوم العقاد يمثلون نماذج مختلفة من الادباء والمثقفين . فمنهم من كان في الجيل السابق عليه ، ومنهم من هو من ابناء جيله ومنهم من هم في الجيل التالي له .

كذلك من هؤلاء الخصوم في المعارك الادبية الشعراء والنقاد والادباء والصحفيين والدارسين للاداب والفنون .

وهناك من المعارك ما استمر اكثر من سنة كما حدث بين العقاد والرافعي ، ومنها ما استوعبته صفحات كتاب كما فعل الرافعي حين هاجم العقاد في كتاب « على السفود » واغلب المعارك خاضها العقاد بمفرده غير معتمد إلا على قلمه . وأقلها تلك التي انضم اليه ادباء آخرون مؤيدين لوجهة نظره ولم يحدث أبدا أن تراجع العقاد عن رأي او موقف في احدى هذه المعارك،بل كان سر عظمته في معاركه انه كان يصمد ويرى ان ما يقوله هو الحق .

---

(٢) راجع : انور الجندي ـ المعارك الادبية

وبالنظر الى الاطراف الأخرى التي خاضت المعارك مع العقاد نجد أنها تمثل اتجاهات فكرية واجيالا والوانا مختلفة كما قلنا وفي مقدمة هذه الشخصيات مصطفى لطفي المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي واحمد شوقي وجميل صدقي الزهاوي وطه حسين ومحمد حسين هيكل ولطفي السيد وسلامة موسى والشيخ علي يوسف وامين الرافعي وزكي مبارك واحمد ابو شادي وتوفيق دياب وتوفيق الحكيم ورشاد رشدي ، وابراهيم مذكور ، ورشدي صالح وجورجي زيدان واسماعيل مظهر وامين الخولي وبنت الشاطىء ومحمد غلاب ومحمد كامل حسين ومحمد مندور وعبد العظيم انيس ومحمود امين العالم ورجاء النقاش وابراهيم الورداني واحسان عبد القدوس وصلاح عبد الصبور ، ويوسف السباعي ونجيب محفوظ ويوسف ادريس واحمد عبد المعطى حجازي . . وغير هؤلاء من الادباء والمثقفين .

مصطفى لطفي المنفلوطي :

إبان الحرب العالمية الاولى . . برز اثنان من الكتاب . . اعتبرهما القارىء من أكتب كتاب اللغة العربية . . والاثنان هما الشيخ علي يوسف والشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي .

كان الناس لا حديث لهم الا ما يكتبه المنفلوطي ، وكانت الوصية الأولى لطالب « الانشاء » عند أساتذة اللغة العربية بإجماع الآراء : « اقرأ كتب المنفلوطي واكتب على منواله » وكانت موضوعات الانشاء كلها تنتهي بالبكاء على بطل من الابطال المألوفين في نظرات المنفلوطي وعبراته .

ويقص علينا العقاد[٣] بداية لقائه بأسلوب المنفلوطي وموقفه منه فقد كانت بداية اللقاء بهذا الأسلوب المنفلوطي على صفحات كراسة الانشاء حين كان يعمل مدرسا في فترة تعطيل الصحافة أثناء الحرب العالمية الاولى وهنا أستوقفه هذا الاسلوب . أو بعبارة أدق استوقفه الاهتمام الزائد بما يكتبه المنفلوطي فعني بنقده لأول مرة في دروس التعليم ثم عني بنقده بعد ذلك ببضع سنوات في مجال الثقافة الواسع :

أما كيف نقده في مجال التعليم فكان ذلك بطريقة لا تخلو من سخرية حيث يذكر أنه طلب من طباخ المدرسة أن يعطي تلاميذ فرقته مقداراً من البصل الحار المسيل للدموع

(٣) رجال عرفتهم العقاد ـ ص ٦٤

والتفت الى الطلبة أثناء الدرس قائلا : من كان منكم يخزن في عينيه فائضا من الدمع فالبصل أولى بمهمة تصريفه من كراسة الانشاء .

وأدرك التلاميذ ما يعنيه أستاذهم من ان دموع المنفلوطي مثل دموع البصل لا أكثر ولا أقل والغريب ان المنفلوطي نفسه عرف ذلك حيث ذكره معاتبا العقاد في لقائه باحدى المكتبات .

والجدير بالذكر ان العقاد عرف أسلوب المنفلوطي في الصحف قبل أن يلتقي به في صفحات الانشاء وكان تناوله من جانب المطالعة الادبية العامة ولم ينظر الى الجانب « التربوي» ولم يشعر بالاتصال بينه وبين غاشية الضعف عند الناشئة قبل ان يشهد هذا الأثر في أكبر معاهد التعليم ومن هنا كانت اهتمامات العقاد بهذا الأسلوب وتأمله وهل هو حقا يصلح أسلوبا معاصرا يعبر عن الحياة الجديدة وما تتطلبه من سرعة وجدية وقوة واقتحام ؟

يرى العقاد أن المنفلوطي منشىء وليس بكاتب أو هو يحسب مع أصحاب الانشاء إذا قسمنا الأدباء الناثرين الى كتاب ومنشئين والفرق بين الكاتب والمنشىء عند العقاد[4] أن الكاتب إنسان قبل أن يكون حامل قلم وصائغ كلام وفضيلته نفس شاعرة مدركة لا فضيلة لسان وعبارة وأحسن مواهبه تبقى له كاملة ناطقة اذا هو ترجم من لغة الى لغة .

والكاتب جماله في الأسلوب جمال المعدن الصحيح لا جمال الزيف والطلاء وبياضه بياض الفضة وحمرته حمرة النحاس واصفراره اصفرار الذهب ولمعانه لمعان الماس . وكل شيء فيه له قيمته الطبيعية أما المنشىء فإنك تقرؤه وكأنما تشعر بالقشرة المطلية تحت يديك ويخيل إليك انه يخدعك ويحاول أن يبيعك الاشياء الزهيدة بقيمة أغلى من قيمتها فأنت تبصر فيه لون المعدن ولا تسمع رنته .

والكاتب يحمل رسالة خاصة من لدن الحياة إلى إخوانه في الحياة وليس للمنشىء رسالة خاصة من لدن الحياة .

وبعد أن يفرق العقاد بين الكاتب والمنشىء يقول[5] « والمنفلوطي إذا نظرنا اليه بهذا النظر لم نقل فيه إلا أنه منشىء لبق الصناعة كثير التزويق في الصياغة قليل في المعاني والأفكار أو

---

(٤) راجع : مراجعات في الاداب ـ والفنون ـ العاقد ص ١٥٨

(٥) نفس المرجع ص ١٦٢

هو ـ اذا بالغنا في انصافه ـ اقرب الى جماعة المنشئين منه الى جماعة الكتاب » .

ونظرة المنفلوطي إلى الادب والأخلاق ـ كما يراها العقاد ـ نظرة لا تنفذ الى بواطن النفس البشرية ولا تشملها بالفهم السديد والادراك السليم لأن الانسان عنده إما صاحب فضيلة وإما صاحب رذيلة ولا وسط هنالك بين الحالتين . .

إن المنفلوطي يخطىء في تفضيل الأخلاق كما يخطىء في تصوير الشعور ومصدر الخطأين واحد هو أن النفس البشرية التي يعهدها ويعطف عليها . . نفس ساذجة محدودة يقل فيها التركيب وتعدد الجوانب ويبلغ مداها في الغور والذروة بأقرب مسبار .

وعلى الرغم من أن هذه هي نظرة العقاد للمنفلوطي إلا أنه قال : ولكننا نقدر المنفلوطي ولا نريد ان نبخسه حقه وننكر عليه أثره . .

مصطفى صادق الرافعي

يتفق نقاد العقاد ودارسوه على انمعركته مع مصطفى صادق الرافعي كانت من أعنف المعارك التي خاضها العقاد في حياته بل تعتبر أعنف معركة في ميدان الادب بوجه عامذلك لأن الرافعي كانت له شهرته المدوية وتاريخه المعروف في الدفاع عن اللغة العربية وله في مجال الشعر قصائد ودواوين ومواقف وآراء .

ويذهب البعض[٦] « الى أن معارك الرافعي والعقاد كانت لها خلفية تاريخية تمتد إلى سنة ١٩١١ حينما كان العقاد يكتب في مجلة عبد الرحمن البرقوقي (البيان) وكان الرافعي محررها الاول وصاحب الرأي في نشر واختصار وحذف ما يشاء من الموضوعات ومن بين هذه الموضوعات ما كان يكتبه العقاد،ومن هنا بدأ بينه وبين العقاد خلاف . . إمتد الى مفاهيم في الشعر والنثر .

وبدأ هذا الخلاف على صفحات المؤ يد الصادر في ١٦ مايو عام ١٩١٤ حيث نجد للعقاد موضوعا عنوانه « فائدة من أفكوهة » يدور حول اضطراب القياس عند الرافعي . . حينما كتب عن جهاز النطق لدى الانسان والحيوان وأخذ العقاد على الرافعي تناقضه بين قوله بصدور اللغة في الحيوان عن الاحساس وبين كونه يتعلم حرفا أو أحرفا من لغة الناس . . فيستدرك الرافعي فيكتب في هامشه أما الحيوان المروض المأخوذ بالعناية والتعليم والتلقين

---

(٦) راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة:عامر العقاد ص ٢٧٧

فقد يقتبس جملة من حروف اللغة التي يعلم بها . وبذلك تأتى لبعض الالمانيين ان ينطق كلبه بالفاظ خالصة من اللغة الالمانية ولكنها في الجملة من حاجات الكلب الطبيعية كالأكل والشرب فلا تخرج عن معنى الاحساس ايضا .

ويعلق العقاد[7] في مقالته بقوله : « ان مثل هذا المقياس أفكوهة فلم يكن من سبيل أمام الرافعي إلا ان يطنب فيذكر لغة الحيوان الطبيعية الخالدة ولغة الهمج وموقف الحروف التي ينطقونها والتي لا ينطقونها . .

وينهي العقاد مقالته بأن الرافعي منشيء مكين يحس اضطراب القياس لديه ويعمل القلم ولا يعمل الرأي ، لأنه لا يستطيع ان يصنع غير ذلك وإن كتاب الرافعي « تاريخ آداب العرب » في نظره كتاب أدب لا تاريخ أدب لان البحث في هذا الفن يتطلب من المنطق ما يتطلبه الرافعي نفسه ولا يجده في استعداده .

وينقد العقاد أدب الرافعي في كتاب الديوان ويقول في الهجوم عليه : « مصطفى افندي الرافعي رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه راسه مراكب يتريث دونها الحصفاء وكثيرا ما يخطئون السباد وطالما نفعه التطوع وابلغه كل ادبه او جله اذ يدعي الدعاوى العريضة على الامة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجور دعواه وينفق الحافه عند من ليس يكرثهم ان يخدعوه به . . وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعي فحق علينا ان نفهمه خطر مركبه وان قدميه أسلس مقادا من راسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة ».

ثم يصفه العقاد بأنه من ادباء الجيل الماضي ويهاجمه قائلا : هذا رجل لا يستحى ان يسمى نفسه على غلاف رسالته بنابغة كتاب العربية وزهرة شعرائها الى ان يقول مهاجما الرافعي : « ايه يا خفافيش الادب : اغثيتم نفوسنا اغثى الله نفوسكم الضئيلة لا هوادة بعد اليوم السوط في اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت وسنفرغ لكم ايها الثقلان . . »

وتشتد الخصومة بين العقاد والرافعي بسبب الصراع على صداقة الزعيم سعد زغلول فالاول هو كاتب الامة الذي احبه سعد واحترمه والثاني له تقديره عند سعد أيضا . . امرا جعله يقول عن كتابه « إعجاز القرآن » مقرظا بعبارة : كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم .

---

(٧) راجع : لمحات من حياة العقاد المجهولة : عامر العقاد ص ٢٧٧ .

وتزداد الخصومة أكثر وأكثر حين يعلن العقاد بأن هذه الكلمة التي يتشدق بها الرافعي ويفتخر لم تصدر عن سعد زغلول وإنما هو خالقها ومزورها . . ليصدر بها كتابه حتى يروج عند الشعب وهنا يرد الرافعي عليه بسلسلة مقالات في مجلة « العصور » تحت عنوان « على السفود » كانت غاية في العنف كان الهدف منها على حد قول الرافعي نفسه : « نحن نريد أن نضع أنف هذا الجبار في الأرض مقدار ساعتين على الأقل . . لأنه لم يتجرأ عليه أحد إلى الآن والذين كتبوا عنه لم ينالوا منه نيلا » .

وهدأت الخصومة بين الطرفين فترة لتبدأ من جديد بعد صدور ديوان « وحي الاربعين » للعقاد وهجوم الرافعي وهنا عاود العقاد هجومه على الرافعي قائلا : « مصطفى صادق الرافعي رجل عامي من فرعه الى قدمه أو من قدمه إلى فرعه يظن كما يظن كل عامي ان المناقشة هي أن يغلب ، وأن علامة الغلب أن يظل يتكلم ويتكلم » . . إلى أن يقول مخاطبا إياه : لا يا هذا عندي ما يشغلني عن ضغينة نفسك الصغيرة فاذهب إلى عالم الاشباح . . الذي ألقيت بك فيه منذ سنوات .

احمد شوقي :

موقف العقاد من أمير الشعراء أحمد شوقي أفاد الادب عامة والشعر خاصة فقد فتح الطريق نحو أدب جديد ، كما أتاح الفرصة لظهور شعر جديد له قواعده ومقاييسه .

ومن الطبيعي أن تكون المعركة بين العقاد وشوقي من أعنف المعارك الادبية خلال النصف الاول من هذا القرن والسبب لا يخفى على احد فشوقي الذي يهاجمه العقاد كان في ذلك الوقت في أوج مجده وكانت السلطة وعلى رأسها الخديوي تؤ يده وتراه شاعرها المجيد وتبع ذلك أن المؤ يدين لشوقي كانوا أكثرية بينما المعارضون الذين اتجهوا اتجاه العقاد النقدي كانوا قلة إن لم يكونوا ندرة .

ويذهب البعض الى[8] « أن موقف العقاد من شوقي لم يكن ظهوره مواكبا لنشر كتابه « الديوان عام ١٩٢٢ » وإنما كان هناك رأي للعقاد نشره في كتابه « خلاصة اليومية » فيه عاب عليه اللغو والتقليد المخطىء لأنه لا يصدر في شعره عن شعور صادق بل هو يقول الشعر ليرضي الأمير والقصر .

---

(٨) راجع لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ عامر العقاد ص ٢٨٦

إن أوجز ما يقال في شعر شوقي في مقاييس العقاد ان شوقي ارتفع بشعر الصنعة إلى ذروته العليا وهبط بشعر الشخصية إلى حيث لا تتبين لمحة من الملامح ولا قسمة من القسمات التي يتميز بها إنسان بين سائر الناس .

فلو قرأت شوقي كله وحاولت أن تستخرج من ثناياه إنسانا آخر اسمه شوقي يخالف الأناس الآخرين من أبناء طبقته وجيله . . لأعياك العثور عليه . ولكنك قد تجد هنالك خلقا تسميهم ما شئت من الاسماء وشوقي اسم واحد من سائر هذه الاسماء .

وليس هذا بشعر النفس الممتازة ولا بشعر النفس الخاصة « إن أردنا ان نضيق معنى الامتياز وليس هو من أجل ذلك بالشعر الذي هو رسالة حياة ونموذج من نماذج الطبيعة وإنما ذاك ضرب من المصنوعات غلا أو رخص على هذا التسويم ».

والخلاصة في رأي العقاد أن الشاعر الذي لا يعبر عن شخصيته بكلامه ليس بشاعر موفور الحظ من الطبيعة لذلك كله كان شعر شوقي في مقياس العقاد معيبا لأنه ليس لشوقي شعر يدل على مزية نفسية أو صفات شخصية لا يجاري فيها الآخرين أو لا تتكرر النسخ الادمية الأخرى تكرر المقولات والمحكيات والمصنوعات وهذا نقص ظاهر في أبواب شعر شوقي كلها فلا فرق بين حديثه وقديمه ولا بين الموضوعات العامة منه والخاصة .

فالمتصفح لشعر شوقي على كثرة ما نظم في مدح الامير عباس الثاني لا يعرف من هو الأمير عباس الثاني من تلك المدائح الكثيرة ولا نستطيع أن نفهم نفس بمدوحه الاكبر من أوصافه المفروض فيها أنها تصفه وتبينه وتعرفه للنفوس كما تعرفه للتاريخ .

هذه الآراء التي أوردها العقاد في كتابه « شعراء مصر » تتممها آراء اخرى كان قد نشرها عن شوقي في كتابه « الديوان » والتي يقول فيها : « كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات في البلد لا استضخاما لشهرته ولا لمتعة في أدبه عن النقد فإن أدب شوقي ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا أهون الهينات ولكن تعففنا عن شهرة يزحف اليها زحف الكسيح ويضن عليها من قولة الحق . . »

وقال العقاد عن شوقي انه : استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول والزمور في مناسبة وبغير مناسبه وبحق او بغير حق .

لكن هجوم العقاد على شوقي كان سافرا في صباح أول مايو عام ١٩٢٧ بعد الاحتفال

بتكريم شوقي وكان الاحتفال برياسة سعد زغلول فنشر مقالا عنوانه تكريم النوابغ « قال فيه : نود أن نرى تكريما لا إعلانا يشترى بالمال او المصانفة والمجاراة ان لنا في شعر شوقي وفي صاحب الشعر رأيا معروفا لا يحولنا عنه ما يحول الناقدين والكاتبين في هذه البلاد أما الشعر فمجمل رأينا فيه أنه لم يرتفع بنفس قارىء واحد ، الى أفق فوق أفقه ولم يفتح لقارىء واحد نهجا من الاحساس أوسع من نهجه ولم يعلم أحدا كنه الحياة ولا زين لأحد شيئا من صور الحياة ».

والملاحظ أن معركة العقاد مع شوقي كانت معركة من طرف واحد هو طرف العقاد وظل العقاد يواصل اعلان رأيه في شوقي دون أن يتحول عنه طوال حياته .

د . طه حسين :

من المعروف ان كلا من العقاد والدكتور طه حسين يمثلان مدرستين مختلفتين تمام الاختلاف فلكل واحدة من هاتين المدرستين أنصارها ومؤيدوها ولكل واحدة أساليبها في النقد والأدب والتوجيه في الحياة الفكرية ، وعلى الرغم من هذا يلحظ القارىء أن المعارك بين العملاقين لم تحتدم بالصورة التي كان يتوقعها بل أن هذه المعارك لم تكن بينهما بالصورة الحادة التي تبدو عليها حين يختلف احدهما مع واحد من الأدباء أو الكتاب الآخرين .

ولعل ذلك يرجع الى عوامل عدة في مقدمتها :

إيمان كل منهما برسالة مؤداها . . أنه بالمعرفة وبالمعرفة وحدها يستطيع أن يبث في حياتنا الفكرية والادبية معاني الحرية التي تصبو اليها نفسه كهدف . . وبأقوى ما تدل ويبعث فينا نزعة التجديد التي يهدف اليها بأكرم ما تشير اليه وأنه إن كانت هذه المناقشات والمساجلات والمعارك التي تدور بينهما هامة فهنالك ما هو اهم . . وهو المضي خطوات الى الهدف الذي رسمه كل منهما لتحقيق هذه الرسالة التي يعمل من أجلها . .

ان كلاً منهما يتجنب الاصطدام بالآخر ، ويحسب له ألف حساب فلا شك أنهما كانا يدركان أن لكل كفاءته ومقدرته وطاقته . . التي من الصعب قهرها وأنه من العبث أن تتبدد طاقتهما هذه في مناقشات ومساجلات ومعارك قد يكون ما يقومان به من دراسات وأبحاث وانتاج فكري بوجه عام . . أولى وأحق بهذا الوقت الذي ينفق في مثل هذه المناقشات والمساجلات والمعارك . . وما أشبه الاثنين في موقفهما هذا ـ مع الفارق ـ بموقف

كل من القوتين العظميين . تتجنب كل منهما الاصطدام بالأخرى ، ويكون البحث عن سبل الوفاق افضل بكثير من التفكير في الاصطدام .

يضاف الى هذين العاملين عامل ثالث هو المناخ السياسي الذي وجد فيه كل من العملاقين العظيمين فهو مناخ غير مستقر تحركه نزعات الاحزاب وأهواؤ ها فالمناقشة العلمية الجادة تنقلب في هذا المناخ الى جدل لا طائل وراءه والمساجلات الادبية تتحول بفضل هذه الاهواء الى مزايدات حزبية والمعارك الفكرية تصير بفضل هذه النزعات خادمة لاغراض السياسيين في هذا الوقت .

وطه حسين في رأي العقاد : « هو على الترتيب كاتب قصة ومؤ رخ للقصة الادبية وناقد للآداب والفنون أما أسلوبه الفني فهو أسلوبه المطبوع الذي يلائم الافضاء بأفكاره واحاسيسه لأنه أسلوب الاملاء الموقع الذي يجعل السكوت والابتداء فواصل ونغمات ولم تخل حياته قط من الترتيل منذ تعلم القرآن الى ان ادمن الاصغاء الى الموسيقى الأوربية فهو يفكر ليملي ويملي ليزاوج بين فواصل كما يزاوج بين الفترات الموسيقية .

وليست هذه هي النقيصة الوحيدة في هذا الأسلوب فهناك النقيصة الظاهرة بين الحزم والتشكيك وان أحصيت ألفاظ الشك في كلامه من أمثال أزعم ، وقد أزعم ، ولعله يكون ، ولعله لا يكون ، وربما ضحكت وربما بكيت ، وربما ضحكت وبكيت في وقت واحد ، فقد تحسبه من الشك لا يستقر على شيء ولكنك حين تقرؤه ترى له عبارات من التوكيد واليقين قلما تراها في عبارات الشاكين المترددين .

ونقيصة ثالثة ـ عند الدكتور طه حسين في رأي العقاد ـ هي أنه حين يكتب المقالات فإنه يقتصد في العنوان حتى لا يجاوز كلمة واحدة ، وأنه يسهب في المقال حتى يفيض بالأنهار .

ولعل أكبر صدام بين الاديبين الكبيرين كان على أثر ما كتبه أنطون الجميل حول شعر أحمد شوقي . فقام العقاد بنقد ما كتبه الجميل فتعرض للمدرسة اللاتينية الفرنسية وأشار إلى أن أسلوبها في النقد يتسم بالمجاملة وأن المدرسة السكسونية الانجليزية اكثر جدية منها حيث تهتم بالرجل من حيث هو رجل وكان من الممكن أن تنتهي هذه المسألة عند هذا الحد لولا تدخل طه حسين وتفنيده لما قاله العقاد وبأن الأخير يريد أن يجامل أنطون الجميل ، ولا يريد أن ينقد شعر شوقي بعد وفاته ، فلم يجد مخرجا إلا أن يهاجم المدرسة اللاتينية الفرنسية بأتباعها وعناصرها . ويذكر طه حسين في رده على العقاد بأنه متأثر بالمدرسة اللاتينية وليس بالمدرسة السكسونية الجادة وهنا يؤ كد العقاد بأن طه حسين يدين للمدرسة

السكسونية الانجليزية في بعض كتبه أكثر مما يدين للمدرسة اللاتينية الفرنسية التي يدافع عنها ويجدد العقاد هذا التأثر في كتابي « في الصيف » و« الأيام » ويضمن رأيه هذا سؤالا للدكتور طه حسين قائلا : هل ترى الدكتور طه حسين على استعداد لأن يرد الى السكسون ما أخذه منهم ويكتفي بما اخذه من اللاتينيين ؟ انه ليخسر ولا يربح في هذه الصفقة بلا مراء ؟

عندما اصدر الاستاذ العقاد كتابه « رجعة أبي العلاء » كتب الدكتور طه حسين مقالا في مجلة الثقافة نذكر منه . . « جرى على لسان التلميذ على لسان الشيخ كلام أهمل فيه النحو بعض الإهمال ، وما أظن أن أبا العلاء كان ينصب أو يجر حيث يجب الرفع ، وما أظن أنه كان يقبل من تلميذه أن يضع من مكان ماأشك أن هذامن خطأالمطبعة ولكنه خليق أن ينتبه اليه . . وفي الكتاب ذكر لحيرة المنبت الذي لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى ، وما أعرف ان المنبت حائر ، وانما المنبت مسرف في الاسراع يعرض قلبه للعطب فلا يغني عنه اسرافه في السرعة شيئا فلا حيرة هناك ولا حائر».

ويرد العقاد في نفس المجلة بقوله « رجعنا الى الصفحة الـ ١٨٩ التي أشار اليها الدكتور فلم نجد فيها منصوبا يجب رفعه ، وإنما وجدنا المعري يسأل : والمساكين والمستضعفين ؟ . . دون أن يسبق الكلمتين عامل مذكور والقاعدة النحوية في هذه الحالة أن يرجع الى التقدير كقول الشاعر في البيت المشهور الذي يعرفه النحاة :

اخاك اخاك ان من لا اخا له كساع الى الهيجا بغير سلاح

فالشاعر هنا لم يقل (اخوك اخوك) لأن الكلمة واقعة في الابتداء ، ولكنه قال أخاك لان التقدير (اذكر أخاك) أو استعن أخاك أو ما شأن هذه التقديرات .

وكذلك كلمتا (المساكين والمستضعفين) تجران لأن التقدير (ما شأن المستضعفين) أو (ما بال المستضعفين) أو (انني أسال عن المستضعفين) وليس هناك ما يوجب الرفع على الاطلاق أما (من) في موضع (ما) فقد رجعنا إلى الصفحة ٢٢٣ التي اشار اليها الدكتور فاذا هو يشير الى قولنا (لو ان الاستاذ قد شهد أسراب الطير وهي تعبر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم من يسلم . . وأبو العلاء لا ريب يقبل من تلميذه ان يضع من في هذا الوضع لأن :

اسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي الى من قد هويت اطير

من تستعمل للعاقل وغير العاقل في افصح الكلام ، ومنه في شعر امرىء القيس .

الا عم صباحا ايها الطلل البالي   وهل يعمن (من) كان في العصر الخالي

وهل يعمن (من) كان اقرب عهده   ثلاثين شهرا في ثلاثة احوال

ومنه في القرآن الكريم أيضا (. . ومنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على أربع) . .

اما المنبت فلماذا لا يحار وقد أتلف دابته وانقطع عن صحبه ولم يصل الى غايته ؟ ومن الذي يحار إن كان مثل هذا لا يحار . ما أظن ان الحيرة مشروطة في كتب اللغة أو كتب الامثال بأسباب لا تعدوها وما أظن احدا ينفرد ويعدم المركب ولا يبلغ نهاية الطريق الا وهو حائر فيما يصنع وإن لم يسمح له الدكتور طه حسين بالحيرة فاذا حرم عليه الدكتور الحيرة فهو وحده الذي يحرمها عليه ، لا علم اللغة ، ولا علم النفس، ولا قوانين العرف، ولا قوانين التشريع .

ويتناول الدكتور طه حسين كتاب « أبو نواس » للاستاذ العقاد بالنقد فيقول في نقده ان علماء التحليل النفسي لهم مذاهبهم في البحث يخطئون فيها ويصيبون وهم يعتمدون في بحثهم على التجارب فتستقيم لهم حينا ، وتخطئهم حينا .

اما الأدباء فيذهبون في ذلك مذهب التقليد والمحاكاة لا مذهب الاستكشاف والاجتهاد والعلم لا يجوز فيه التقليد .

ويرد الاستاذ العقاد بقوله : ان دراسة الاديب لعلم النفس ودراسته للأدباء والشعراء على ضوء هذا العلم أمر ضروري لأنه عندئذ سيتمكن من تفهم ما يصدرون عنه ، مثال ذلك أن أبا نواس وحكيم المعرة والمتنبي وبشارا لا يخلو أمرهم من الاعتداد بالنفس ، ولكن علم النفس يمكن من التمييز لأنه يذكر لك أن هناك اعتدادا بالنفس يدخل في جنون العظمة ، واعتدادا بالنفس يدخل في جنون الاثرة ، واعتدادا بالنفس يدخل في الانحصار الذاتي ، واعتداداً بالنفس يدخل في جنون النقص والتحدي ، واعتداداً مبعثه العناد ، ثم اعتداداً بالنفس يدخل في جنون الاشتهاء الذاتي وهو النرجسية التي وصفنا بها ابا نواس » .

ولكننا برغم كل شيء نجد بين العملاقين علاقة ود وصفاء ووفاء مما نحسه من سطور وداع الدكتور طه حسين لصديقه الاستاذ العقاد عندما توفي في عام ١٩٦٤ حيث قال في جريدة الجمهورية الصادرة في ١٣ / ٣/ ١٩٦٤ : ما أشد ما كان بينك وبيني من خصام في السياسة أحيانا وفي الادب أحيانا وما أحلى ما كان بينك وبيني من مودة وإخاء . . أنت أيها الأخ الكريم ، والصديق الحميم ، والزميل العزيز . . ملأت الدنيا وشغلت الناس حقا وستشغلهم بعد وفاتك أكثر مما شغلتهم في حياتك .

سلامة موسى :

سلامة موسى من جيل المجددين الذي ينتمي اليه العقاد . . ورغم هذا فقد كانت بين الاديبين الكبيرين معارك فكرية وأدبية كثيرة ، وكان لكل منهما موقف من الآخر لم يسره ، بل أعلنه على صفحات الجرائد والكتب . فهذا هو العقاد يكتب مقالا على صفحات الرسالة في ٩ يوليو ١٩٣٥ يرد - بالطبع - على بعض الآراء التي نشرها سلامة موسى فيقول : « الكاتب الذي يكتب ليحقد ويحقد ليكتب ويدين بالمذاهب ليربح منها ولا يتكلف لها الكلفة في العمل أو في المال . . وأنه - اي سلامة موسى يشتري الأرض ويتجر بتربية الخنازير ويسخر العمال ويتكلم عن الاشتراكية التي تحرم الملك وتحارب سلطان رأس المال وهو يعيش من التقتير عيشة القرون الوسطى في الأحياء العتيقة ويتكلم عن التجديد والمعيشة العصرية وهو ينعى الحضارة الآسيوية وانه لفي طواياه يذكرنا بخلائق البدو والمغول في البراري السيبيرية .

ونشبت معركة أخرى بين الاديبين الكبيرين حين تدخل سلامة موسى في المعركة التي دارت بين العقاد وطه حسين حول كتاب ابو نواس . وقد كان لسلامة موسى رأي في أبي نواس فنده العقاد وأثبت خطأه .

لكن رأي العقاد وموقفه من سلامة موسى ظهر جليا في عام ١٩٥٦ حيث كتب سلامة موسى مقالا على صفحات الاخبار بعنوان« الشعبية والملوكية »رأى فيها أن العقاد أديب لا يمت إلى الشعب بصلة ولكنه مع بعض زملائه من امثال طه حسين وهيكل والحكيم وشوقي والجارم بطانة ملوكية اقطاعية ساعدت على الظلم والطغيان وأنه - أي سلامة موسى - هو الاديب الوحيد الذي يكتب للشعب .

وقد علق انيس منصور على ما كتبه سلامة موسى تحت عنوان" الشعوبية والملوكية عند سلامة موسى" ويومها رد العقاد على أنيس منصور بحيث كان موضوع الحديث سلامة

موسى قائلا : والاستاذ أنيس منصور لم يتابع كلام الاستاذ سلامة موسى من بداءة عهده ولم يفته شيء فيما نعتقد ولا كان يفوته شيء لو انه لم يقرأ تلك الصفحات التي نقل عنها خلاصة الرأي السلامي الموسوي في الملوكية والشعبية ولكنه لو قرأ ما كتبه سلامة قبل عشرين سنة يعلم أن كلامه اليوم رأي جديد لم يكن يراه بالامس بل كان يرى ما يناقضه مناقضة القطبين اذ كان يرى أن الثورة الحقيقية إنما تأتي من جانب الملوك والامراء وان الزعيم الثائر يكفي ان ينتسب الى الشعب ليخيب ويستحق سخط الناقد الاديب اللبيب الأريب العجيب قال الاستاذ سلامة موسى في فصل عن مبادىء الثورة : أن أكبر ثائر قام في مصر في العصور الحديثة هو في اعتقادي اسماعيل باشا فقد حاول أن يجعل مصر الشرقية الآسيوية المستكينة النائمة أمة غربية حديثة يلبس أهلها لباس الغربيين لهم حكومة برلمانية مثل الحكومات الأوربية يأكلون ويشربون ويسلكون في سائرشؤ ونهممثل الاوربيين بل لقد بلغت ثورته في ذلك أنه حض المصريين على التزوج من الغربيات وذلك لكي يجعل بيوتنا وعاداتنا المنزلية غربية . . وقد وفق اسماعيل باشا الى شيء كثير مما أراد ويجب ألا ننسى أن اول يد حركت الثورة العرابية كانت يده ولكن عرابي كان من العامة فلم يفلح في ثورته وانعكست على يده الغاية منها وهذا ما نريد اثباته وهو أكبر أصل من أصول الثورة أن يكون القائمون بها من الخاصة سادة الأمة لا من العوام الصاخبين » .

وهذا الكلام منقول عن الصفحتين الخامسة والخمسين والسادسة والخمسين من مجموعة مقالاته « في الحياة والأدب » التي أصدرها من مطبعة المجلة الجديدة .

وليس كلامه هذا فلته عرضية لم تتكرر في غير هذا الموضوع بل هو رأي مقرر أثبته في الصفحة الثلاثين بعد المائتين من كتاب « اليوم والغد » إذ يقول : « ثم استمررنا نتراوح بين الشرق والغرب حتى زمن اسماعيل حين رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد لنا من أن ننفرج ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا . . »

وقال قبل ذلك عن محمد على : « ولكنه مع كل هذه الاعمال كان يؤ من بالحضارة الغربية فأسس المصانع على النمط الاوربي وأوجد في الأهلين روح العمل بعد أن كانت طبائع الاستعداد الشرقية قد طبعت في الناس حب الخمول والدعة . . »

وهذه الآراء المقررة ـ المكررة ـ صريحة في معنى الشعبية السلامية الموسوية فهي شعبية لا تفلح حتى في الثورة على سادتها ما لم يكن لها من اولئك السادة معين او معينون ولم يفرط احد في تقديس الملوك كافراط هذا الكاتب الشعبي الوحيد الفريد الجديد في القريب والبعيد .

ثم قال العقاد موجهاً كلامه للاستاذ أنيس منصور :

« فالاستاذ أنيس منصور يجد كثيراً حين يحاسب الأستاذ سلامه موسى هذا الحساب . لأن الآراء السلامية الموسوية تدور على لوالب كثيرة لا تستقر على حال ، وربما استفاد منا الأستاذ أنيس فائدة تذكر بمقدار ما تذكر أية فائدة تتعلق بالأستاذ سلامة موسى ، وهي فائدة يفهم منها كيف يتكون رأي صاحبنا في شأن من الشؤ ون خلافاً أو وفاقاً لما كان يراه قبل حين .

يكفي أن يذم كاتب هذه السطور ـ عباس محمود العقاد ـ في صفحة من كتاب ليطير سلامة موسى على الأبراج والهضاب منـاديا من يسمع ومن لا يسمع : « الحق أنت وهو » . . طيروا يا خلق . . اركبوا القطارات والسيارات والدراجات والطيارات لتدركوا نسخة من هذا الكتاب . . فان لم تدركوها فاستعيروها فان لم تستعيروها فتوسلوا بكل الوسائل إلى نقلها وحفظها وترتيلها كل صباح وكل مساء .

وأكاد اقول انني استطيع أن أجعل صاحبنا يعدل عن آرائه واحدا واحدا لو انني أعلنت الايمان بها وتأييدها بل أكاد أقول انني لو مدحت سلامة بن موسى اليوم لأصبح سلامة بن موسى غدا وقد غير رأيه في سلامة بن موسى وجعله غير ما أقول ونقيض ما أقول ولو خالف كل منقول ومقول ومعقول »!!

لا عليك إذن يا سيد أنيس من الجد في متابعة هذه الآراء وهذه المذاهب وهذه الدعوات .

إن صاحبنا سلامة بن موسى لا يعنيها ولا يلبث أن يتحول عنها إذا تحولت دواعيها ولا إخاله يفهم معنى ما يقول ساعة يقوله لأن بواعث القول عنده غير الفهم وغير التفكير وغير الدراسة وكلها تنبعث مما يطويه لهذا أو ذاك أو لهؤ لاء وأولئك من خفايا الشعور .

لكن على الرغم من هذا كان العقاد من أول المنصفين لسلامة موسى حين كتب عنه في تأبينه عام ١٩٥٨ .

جميل صدقي الزهاوي :

في عام ١٩٢٧ سئل العقاد أين يضع شاعر العراق الزهاوي بين الفلاسفة والشعراء ؟ فكان جواب العقاد : انه صاحب ملكة علمية من طراز رفيع وانه يصيب في تفكيره ما طرق من المسائل التي يكتفى فيها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر الى البديهة والشعور فمن ينشده فلينشده عالما ينظم او يجنح إلى الفلسفة فهو قمين باصغاء اليه واقبال عليه في هذا المجال وان خير مكان له هو بين رجال العلوم ورادة القضايا المنطقية ، فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعراء مثل ذلك المكان .

ولو أن صاعقة انقضت على رأس الزهاوي لكانت أهون عليه من هذا الحكم القاسي الذي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب هو مدح في ظاهره ولكنه تجريد من اهـم امـرين او صفتين يعتز بهما الزهاوي ، وأحب لقب يحب أن ينادى به هو « الشاعر الفيلسوف » .

والعقاد كان يقدر وقع كلامه على نفس الزهاوي ، وربما تعمد ذلك حيث طلع البلاغ وقد حمل مقالة العقاد في وقت كانت المعركة الادبية على أشدها بين أنصار الرصافي وأنصار الزهاوي فزادت كلمة العقاد « الطين بلة كما يقال » حيث اتخذ منها خصوم الزهاوي حجة وشهادة للهجوم عليه،وقد رد الزهاوي على العقاد فقال : « إن الشاعرية والفيلسوفية لا تثبتان لإنسان بدعواه ان كان خلوا منهما ، ولا تنفيان عنه بانكار منكر ان كان له منهما نصيب ، وليس ذوق المتنافسين في شيء بأولى ان يتخذ مقياسا من ذوق الاخر . بل الحكم العدل في مثل ذلك هو الرأي العام لجيلهما والأجيال الآتية .

ولم تنته المسألة عند رأي العقاد ورد الزهاوي عليه بل ان الزهاوي أسرها للعقاد حين أصدر ديوانه حيث انتهزها فرصة لينتقم من العقاد بنقد ديوانه ولو من وراء ستـار فقـد نشرت مجلة لغة العرب لصاحبها أنستاس الكرملي مقالات متتابعة ، فيها نقد لديوان العقاد وكانت هذه المقالات خلوا من التوقيع لا تصريحا ولا تلميحا كما يقولون فانصرف ذهن القراء الى أن الناقد هو صاحب المجلة نفسه وقد استهل المقال الذي هاجم العقاد بهـذه العبارة : الاستاذ العقاد كاتب كبير وكنا نعتقد انه كذلك شاعر كبير حتى جاءنا ديوانـه الجديد حافلا بما نظمه قديمـا وحديثـا فاذا هو دون ما أكبـره تصورنـا واذا هو مشحـون بالاغلاط والضرورات القبيحة واذا هو قبر للالفاظ الميتة دارس فيه كثير من العظام البالية ، واذا هو تافه المعاني في الاكثر . . الخ » .

وقد رد العقاد على هذا المقال الذي امتد إلى ثماني صفحات بمقال فند فيه كل ما اورد من

اتهامات وافتراءات ومزاعم . . وقد انصب رد العقاد الحاد على صاحب المجلة الأب انستاس الكرملي لان النقد صدر دون ان ينتسب لأحد فالقاعدة تقول ان صاحب المجلة او رئيس تحريرها هو المسؤول في هذه الحالة .

ولعل رأي العقاد وموقفه من الزهاوي ندركه فيما كتبه تعليقا على الديوان المفقود حيث يقول[9] « والذي نلاحظه في مواقف الزهاوي العقلية بين الشك واليقين سهولة شكوكه وسهولة ردوده عليها في وقت واحد فكل شكوك الزهاوي بلا استثناء مما يقبل الرد والاستخفاف من النظرة الاولى ، لأنها مبنية على تصور العامة الجهلاء للخرافات والاساطير التي يلصقونها بالدين وهو بريء منها بعيد عنها وليس من هذه الشكوك شك واحد يقوم على فهم الدين كما ينبغي ان يفهمه المؤمنون به على صحته وقد كان خطأ الزهاوي الاكبر انه يتلقى حجة العقائد من الاوهام الشائعة بين المقلدين دون الثقات المجتهدين . . وانما تقوم قضية الدين على الضمير الانساني الذي يناط به التمييز بين كل دعوة تشيع في العالم . .

ويقول في نفس المقال : والسرعة الى التفكير ، مع السرعة الى العدول عن الفكرة في وقت واحد ، هما آفة العجلة في مواجهة الزهاوي لمسائل العلم والادب او مسائل الاجتماع والأخلاق ، فليس أسرع منه الى اختطاف الرأي الشائع او اختطاف الرد عليه .

الدكتور محمد حسين هيكل باشا :

على الرغم من أن الدكتور هيكل واحد من الرواد المجددين كالعقاد إلا أن هناك خلافات جذرية كانت بين الأديبين الكبيرين وهذه الخلافات ترجع ولا شك الى أسباب حزبية،وسياسية فكما رأينا ان العقاد هو الكاتب الاول لحزب الوفد بينما كان الدكتور رئيس تحرير صحيفة السياسة لسان حال حزب الاحرار الدستوريين ولا يخفى على متابع اي خلاف كان بين الحزبين الوفد والاحرار فلا بد وان ينعكس هذا الخلاف على وجهات نظر كتابهما . الى جانب هذا فقد رأينا في الصفحات السابقة عدم اقتناع العقاد بتكوين وتشكيل حزب الاحرار من الرأسماليين وكبار الاقطاعيين وكان ذلك قبل أن تصطبغ نظرته بسياسة الوفد .

---

(٩) راجع أنور الجندي ـ الهلال ـ ابريل ١٩٦٧ .

لهذا ولغيره من الاسباب لا نجد غرابة في اختلاف كل من العقاد والدكتور هيكل في وجهات نظرهما.كان العقـاد يحمـل كل يوم في « البـلاغ » او في « كوكب الشرق » على افتتاحية السياسة التي كان يكتبها د . هيكل بغير توقيع[١٠] تحت عنوان«حديث اليوم » ولم يكن النقد مفتوحا بالمهاجمة بالاسم غير أنه قد وضع ذلك مرة او مرتين فقد أشار العقاد مرة الى أن هيكل كتب ما كتب وهو غير واع او انه كان في غيبوبة وكان مقصد العقاد ان يؤكد ما كان قد نسب الى هيكل من أنه كان يتعاطى بعض المغيبات .

وقد ذكر ذلك الأستاذ زكي عبد القادر في مذكراته فعقب العقاد عليه قائلا : ان ذلك انما حدث في الوقت الذي كانت جريدة السياسة تحمل عليه وتقول عنه انه عمود يمسح فيه الناس أقذارهم وأنه يصدق عليه الوصف المسدس الذي عرف عن ابن زيدون الشاعر الاندلسي ومعناه أنه ذو صفات ست منها أنه ديوث وزنديق وسارق .

وفي احدى معارك الصحافة السياسية ذكر العقاد هيكل دون أن يشير الى اسمه وانما اشار الى مؤلفاته فقال : ما دمنا في ذكر الكتب فاعلم اذن ان مستجدي العطف كما يستجديه الارامل هو من يسمي كتابا في وصف باريس وما فيها باسم ولده الميت (يقصد كتـاب ولدي للدكتور هيكل) ولا محل لولده الميت في صفحة من صفحات الكتاب .

بل ويخاطب العقاد هيكلا فيقول : أيها المفتون تذكر مصالح الوطن والمصالح الشخصية فلا أشرفك بالمقارنة بيني وبينك في هذا المقام ولا ألتفت الى هذا الذي لا تصل إلى منه ذرة غبار ولكني أقول لك لو أن العقاد كما تزعم لما أمتلأت به نفسك هذا الامتلاء حتى لتسمع بالموت ولا تسمع باسم العقاد ولما أذهلك الحسد له على كل صواب حتى لتحسده أن يقابل في دار عملك مقابلة الحفاوة والإكرام . وكان العقاد قد زار جريدة السياسة في احد احفالها فاستقبل بالهتاف وامتنعت جريدة السياسة عن نشر هذا الخبر . ومع هذا فقد حيا العقاد هيكلا في حفل تكريمه بقصيدة من الشعر مطلعها .

يا هيكل الآداب طاف به . حجاجها وتجمعوا وفدا

الشيخ علي يوسف

الشيخ علي يوسف يذكره التاريخ بأنه من رواد الصحافة بمصر والى جانب كونه صحفيا

---

(١٠) راجع رجال عرفتهم ـ العقاد

رائدا هو سياسي له فكرته ورأيه . لقد كان رئيسا لحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية وهو حزب كان يحتضنه الخديوي عباس وكان يشترك مع الحزب الوطني في الدعوة الى الجامعة الاسلامية ولكنه كان يتجه بها نحو خدمة القصر حتى يخفف الانجليز من قبضة أيديهم على عنق الخديوي وسلطانه .

وكان من الطبيعي أن يختلف العقاد مع الشيخ علي يوسف اذا كانت هذه هي أفكاره بل ليس العقاد وحده هو الذي أعرض عن الشيخ علي يوسف وحزبه بل ان الاعراض شمل ايضا بقية الشباب الذين لم ترق لهم مبادىء الحزب وسياسة صاحبه الشيخ علي يوسف والغريب أن هذا الاعراض قابله مثيل من الشيخ فقد كان يأبى على الطلاب أن يشغلوا بغير الدراسة في سنوات التعليم وكان مذهبه ان ينتظر رجال الغد الى ان يأتيهم غدهم الذي هم رجاله . . اما قبل ذلك فكل ما كان يرتضيه الشيخ منهم أن يدينوا بشرعة الولاء لأمير البلاد .

والعقاد يرى في معرض الحديث عن شخصية الشيخ علي يوسف[11] ان الصبغة الدبلوماسية عمت كل منحى من مناحي تفكير الشيخ وعمله في السياسة وفي علاقاته بالسياسيين الوطنين وغير الوطنيين وظهرت في كل تصرف من تصرفاته العامة حتى في صياغة المبادىء الوطنية التي قررها لحزبه اساسا للمطالبة بحقوق الامة ونظام الحكومة . فقد أوشك ان يجعل هذه المبادىء توريطا دبلوماسيا من كلام المحتلين انفسهم ليسكتهم ولا يفتح لهم بابا للاحتجاج على ولي الامر او اتهامه بتحريض الصحف والاحزاب عليهم اذ كان انتساب الشيخ علي يوسف الى القصر الخديوي امرا مفروغا منه مفهوما بالتواتر بين دوائر السياسة الشعبية والرسمية في القاهرة وعواصم الدول ذوات الامتيازات في هذه البلاد وكان وكلاء « المؤيد » يزورون الدواوين-خارج القطر - كأنهم ملحقون بسفارات القصر قبل ان توجد له سفارات .

فالمحتلون كانوا يسمون أنفسهم بالمصلحين ويقولون ان اصلاح الاداة الحكومية غرض من أغراضهم الأولى التي ينجزونها قبل مغادرة البلاد .

والشيخ علي يوسف يسمي حزبه بحزب الاصلاح فأي اعتراض للدولة البريطانية عليه او على الخديوي اذا أقام قواعد حزبه على المطالبة بالاصلاح .

---

(١١) راجع - رجال عرفتهم - العقاد

والمحتلون كانوا يقولون انهم يدربون المصريين على حكم انفسهم ويحولون بين الامير والاستئثار بالسلطة في مسائل الادارة والمال على وجه الخصوص .

والشيخ علي يوسف يقيد الاصلاح بانه « اصلاح على المبادىء الدستورية » ولا يذكر الدستور على اطلاقه ، لأنه قد يزعج الدولة العثمانية صاحبة السيادة التي لم تكن في بلادها حكومة نيابية ، وقد يزعج الانجليز اصحاب السلطان الفعلي كما يزعج الخديو صاحب السلطة الشرعية في البلاد .

ولما ذكر الاستقلال ذكره مشروطا بالمعاهدات التي ارتبطت بها بريطانيا العظمى وقال ان تحقيقه تنفيذ لوعود هذه الدولة بالجلاء وقد زادت هذه الوعود على السبعين .

وهكذا كما ـ يقرر العقاد ـ كانت كل مقالة من مقالات « المؤ يد » وصاحبها الشيخ علي يوسف في السياسة العامة اما ان تكون مذكرة رسمية لا يأبى ان يوقعها باسم الخديو او رئيس حكومته فاذا جاوزت هذا الحد الى شيء من الشدة في التعبير فغاية خطبها ان تكون بمثابة المقالة الموعز بها « الى لسان الحال » رسمي من ألسنة الحكومات التي تسمى احياناً « بالصحف الشبه رسمية . . » .

ويذكر العقاد[12] انه كان يدخل طرفا في المعارك التي كانت تقوم بين الشيخ علي يوسف والزعيم مصطفى كامل بحيث كان يجد نفسه الى جانب الاخير .

فالشيخ علي يوسف كان يكثر من تلقيب مصطفى كامل بالطائش ويتخذ لهذا اللقب شفيعا من حساب الجمل لموافقة مجموع الحروف في كلمة طائش واسم مصطفى كامل بذلك الحساب وهنا لفق العقاد للشيخ علي يوسف لقبا مساويا لاسمه بذلك الحساب وهو لقب « نوري » بفتح النون والراء ومعناها شذاذ الافاق وكان الشيخ متهما بالانتساب اليهم كما كان يقال عنه انه من المسلمانية « الدخلاء » وهو ما سبب له الحرج عندما تقدم للزواج من بنت الشيخ السادات حيث قيل عنه انه غير كفء للزواج منها تلك القضية المشهورة .

وحتى في قضية التلغرافات التي ظل الشيخ علي يوسف بطل الساعة في حومة الصحافة بضعة شهور تردد فيها هتافات بحياة المؤ يد وصاحبها قال العقاد في مقالة كان كتبها تعليقا على هذه القضية : تلوناها كلمة كلمة وسطرا سطرا فكنا كلما قرأنا كلمة أزالت تأثير لمحة

---

(١٢) راجع رجال عرفتهم ـ العقاد ـ ص ٣٢

من تلك الخطبة وكلما تلونا سطرا انهزم سطر منها ، حتى جئنا على آخرها ، فكأنما حل ثقل وارتع ، او هام هام وانقشع ولا غر و ان كانت مسهبة طويلة فانها تذيب سبابا كالقار أسود لا يصهر الا على اشد حرارة النار .

ويذكر العقاد ان من بين المعارك التي قامت بينه وبين الشيخ علي يوسف واحدة سببها تأييده ورضاه عن سياسة الوفاق بين الخديو والانجليز وتلك التي شرع المحتلون في تنفيذها بعد عهد كرومر . وقد سرت في الامة حركة قومية تطالب الاحزاب بتحديد موقفها من هذه السياسة الجديدة ولم يحدد الشيخ موقفه مما أثار عليه الرأي العام حتى ان العقاد وصف ذلك قائلا : ان الشعب المصري اذا كان قد حيى صاحب المؤ يد عند الحكم ببراءته في قضية التلغرافات فقد سحب تحيته الاولى بهذه الثورة عليه .

و بالطبع كان الشيخ علي يوسف لا ينسى للعقاد هذه الآراء مما تلمسه في هذه القصة التي يذكرها العقاد في كتابه رجال عرفتهم[١٣] حيث يسأله الشيخ علي يوسف في نهايتها « أنت عم العقاد ؟ قلت : نعم . . . قال : هل بينك وبين السيد حسن موسى العقاد قرابة قلت : هي مشابهة اسماء . . فضحك ضحكة غير خالصة وقال : بل لعلهامشابهة في غير الأسماء ايضا . . وهو يعني ـ على ما اعتقدت ـ ثورة السيد حسن موسى و تمرده لانه كان في أكثر احواله مغضوبا عليه من المؤ يد وشيعته السياسية .

أمين الرافعي :

من الطبيعي ان تنشأ خلافات بين العقاد والصحفي امين الرافعي . . إذا عرفنا أن كلا من الكاتبين يمثل واحدا من الاحزاب الكبيرة في ذلك الوقت فالعقاد هو كاتب الوفد الأول والرافعي هوكاتب الحزب الوطني . . الأول يتشيع ويتحمس لمبادىء سعد زغلول والثاني يتشيع ويتحمس لمبادىء مصطفى كامل . . وقد عرفنا في الصفحات السابقة موقف العقاد من مصطفى كامل ومن يتشيع له .

لقد كان العقاد يرى في أمين الرافعي ومن يدين له ممن يتجرون في الوطنية ويتباهون بالمفاخر الكاذبة فهو يكتب عنه[١٤] حيث يقول : « لن تجد اطول لسانا وأكبر دعوى من هؤ لاء الذين يتباهون بالمفاخر الكاذبة حتى ينسى الناس أنها كاذبة وينسون هم أنهم

---

(١٣) راجع رجال عرفتهم ـ العقاد ـ ص ٣٢

(١٤) البلاغ العدد ١٥١١ ـ بتاريخ ١٩٢٨/٢/٢١

كاذبون وأقرب شيء الى السنتهم ان يتهموا ضمائر الناس ويذكروا الأجراء والمأجورين ولو كنا نحن ممن يتجرون بالسمعة الوطنية لكان لنا حق في فخر التضحية فوق حق مصطفى كامل وفوق حق أمين الرافعي وفوق حق الشهداء الاخرين فقد كان مصطفى كامل يلعب بالاموال وكان أمين الرافعي يعتمد على اخيه في الازمات .

ولذلك يعتبر مؤرخو الادب والصحافة أن معركة العقاد مع امين الرافعي من أقسى المعارك الصحفية وأشدها عنفا لأنها في الاصل معركة سياسية حيث كان أمين الرافعي قد والى النهضة الوطنية ، وأيد سعد زغلول محاولا أن يربط بين الحزب الوطني الذي يمثله وحزب الوفد في وحدة تواجه الاستعمار ولكنه لم يلبث ان اختلف مع سعد زغلول فيما أطلق عليه « تعديل الاساس » وكان سعد زغلول قد حدد موقف الوفد من المفاوضات مع بريطانيا ثم غير هذا الأساس المتفق عليه . وهنالك اعترض أمين الرافعي وقام بهجوم مضاد على هذه السياسة التي يتبعها سعد زغلول . . وبدأ صراع عنيف بين الرافعي والوفد . . فيه هاجمه العقاد هجوما عنيفا وكان مما وجه العقاد من عبارات لاذعة اليه قوله : « والأبله امين الرافعي ماذا يقول : يقول ان سعد زغلول اخطأ بمحادثاته التي اسفرت عن تصريح انجليزي أسوأ أثرا من تصريح ٢٨ فبراير » .
لكن الرافعي رد عليه في كل مرة بأسلوبه الهادىء المركز حيث يقول : كان جديرا به ـ أي العقاد ـ أن يعنى بدرس موضوع جليل آخر هو الانصاف .

وتستمر المناقشة بين الاثنين فترة . . فيها يواصل العقاد نقده لامين الرافعي . . الى ان سقط امين الرافعي صريع المرض ثم عاجلته المنية عام ١٩٢٩ فرأينا العقاد يكتب افتتاحية البلاغ في رثائه وهذه شيمة من شيم العقاد واخلاقياته . . الخلافات السياسية شيء والعلاقات الانسانية شيء آخر . . امرا نلمسه في كثير من مواقف العقاد أنه يرثي الرافعي فيقول : رأيت امينا قبل مرض الوفاة يمشي في الطريق على مهل فرأيت شبحا يتماسك وجسدا قد تهدم الا قليلا ونفسا تمشي في عالم وحدها وهي تشعر بعزلتها ولا تكاد تشعر بها من فرط الاطمئنان اليها ، وسيما السكينة والرضوان التي تحف بها فعلمت أنني أرى امينا في قوة جسده ، وأمينا في قوة نفسه ، ورأيت كيف يعمر الايمان الجسوم الفانية فهي منه في ملأ عزيز الحوزة منيع الجانب .

والمقال طويل فيه من المعاني النبيلة ما يؤكد قيم هذا الجيل الذي ينتسب اليه العقاد والرافعي وهي قيم تؤكد انه مهما كانت الخلافات السياسية كبيرة فانها لا تترك بصماتها على العلاقات الانسانية .

الدكتور زكي مبارك

لم تستغرب الاوساط الادبية والفكرية هذا الصراع الذي قام بين العقاد والدكتور زكي مبارك . فالعقاد كما هو معروف رجل جبلت شخصيته على خوض المعارك لا يفتأ ان ينتهي من معركة حتى يبدأ في أخرى وفي الجانب الآخر الدكتور زكي مبارك رجل عده النقاد والادباء في مقدمة من يخوضـون المعـارك . . لما جبلـت عليه ثقافتـه من نقـاش وجـدل ومسـاجلات .

إلى جانب هذا فقد كان الدكتور زكي مبارك شابا صغيرا تهفو نفسه الى الشهرة والمجد فرأى أن هذه الشهرة وذلك المجد قد يأتي كل منهما عن طريق نقد وهجاء العقاد حتى يستدرجه في الرد عليه فكان من الطبيعي والامر كذلك أن تنشأ معارك عنيفة بين الاثنين كان يبدؤ ها الدكتور زكي مبارك وكان العقاد لا يهتم كثيرا بما يكتبه الدكتور زكي خاصة وانه كان يعلم مقدما ما هي اغراضه وأهدافه مضافا اليها ان العقاد كان يعد أن هذه الآراء وكلمات الهجاء من الدكتور زكي ليست خالصة لوجه الادب والنقد وانما كان من ورائها خصمه العنيد والاكبر الدكتور طه حسين وقد يستغرب القارىء هذا التصور من العقاد لما بين الدكتور طه والدكتور زكي ولكن لن يطول استغرابه اذا ادرك أن زكي مبارك كان من المقربين الى الدكتور طه حسين الى درجة انه كان سكرتيرا خاصا في فترة من الفترات وان هذه المعارك العنيفة التي قامت بين الدكتور طه حسين والدكتور زكي مبارك كانت بعد ذلك . هذا الى جانب تقدير الدكتور زكي مبارك انه إذا وقع في نزاع مع العقاد فهو مطمئن الى ان الجامعيين وعلى رأسهم طه حسين لن يتركوه فريسة لهذا العملاق الذي كانت اكبر الاقلام في ذلك الوقت تتهيب حدة قلمه .

لهذا ولغيره من الأسباب كان العقاد لا يهتم كثيرا بما يكتبه الدكتور زكي مبارك . . إلى أن قام الاخير بكتابة فصول فيها يتعرض للشخصيات الادبية في مصر من خلال كتاباتهـم وفعلا قام بعرض لشخصية العقاد فقال : « العقاد في الكتابة والنقد شخصان مختلفان كل الاختلاف فالعقاد الكاتب السياسي يرمي ويرمى ، ويظلم ويظلم ، في كل وقت فهو من أبناء السماء عند قوم ، ومن أبناء الارض عند قوم آخرين ، اما العقاد الكاتب الادبي فهو من الطبقة الاولى بشهادة الجميع ، والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد الا في حال واحد

---

(١٥) راجع الهلال ـ ابريل ١٩٦٧

حال الحكم على من يعادي من المعاصرين ، اما حكمه على المفكرين الذين بعد عهدهم في التاريخ فهو في غاية العدل والسداد ، وقد يصل به الرفق الى المبالغة في اظهار المحاسن واخفاء العيوب .

ويقول أيضا مهاجما العقاد : أما العقاد فهو كاتب ومفكر وشاعر وهو من عيون الأدباء في هذا الجيل ولكن العقاد تعاوده آفة بغيضة هي حب النفس فهو لا يصلح للحكم الصحيح في المذاهب الادبية الا اذا رحل في افاق التاريخ ، فان تعرض للعصر الحاضر وفي مصر فلن ترى له الا احكاما مشوبة بغبار الاهواء ، وما ظنكم برجل يؤلف كتابا جيدا عن شعراء مصر فيراهم جميعا من الأكابر ولا يستثني غير شاعر واحد هو شوقي » .

ويصمت العقاد على هذا الهجوم حتى تواتيه فرصة هي التعرض للكتاب والأدباء فيتعرض للدكتور زكي مبارك فيقول عنه : « أما زكي مبارك الكاتب فانه لا يستغنى عن زكي مبارك بحال من الاحوال ، اذا استغنى المؤلفون عن أنفسهم في بعض الأحيان لان زكي مبارك هو موضوع زكي مبارك الوحيد واذا كتب ألف مقال في هذا الموضوع وقرأت منها واحدا ففي ذلك الكفاية كل الكفاية ومن ذلك يبدو زكي مبارك أقل الكتاب شخصية في حياته الكتابية لأن طابعه غير ظاهر في أسلوبه ولا في نشأته ولا في آثاره ، وقد حضر الازهر والجامعة المصرية وجامعة من الجامعات في البلاد الفرنسية ولكنه لا يمثل الازهر ولا الجامعة المصرية ولا جامعة في فرنسا ايا كانت » .

وبالطبع لم يسكت زكي مبارك على هذا الهجوم فرد على العقاد بمقال قال فيه : « ان العقاد تلاطف في رجال وتجامل مع رجال ، ثم صال وجال حين تكلم عن الدكتور زكي مبارك كأنه يجهل ان للدكتور زكي مبارك قلما ينسف به الجبال حين يشاء » .

وقال : « ولقد صبرت طويلا على تحامل الاستاذ العقاد وتركته يفرج عن حقده بمناوشتي من وقت الى وقت بعد ان اجليته عن ميدان الشعر والكتابة والتأليف ، ولكنه لم يعرف أني متفضل بالصبر عليه ، ولم يفهم اني لو شئت لفرمته بأقل عناء ، فهل يجهل العقاد اني تخرجت في السربون واني املك اللقب الذي يملكه منصور فهمي وطه حسين . . ما الذي يمنع العقاد من التخرج في السربون ان كان من اصحاب العزائم والمواهب ، والسربون باقية فحاول الانتساب اليها يا حضرة المنضال ان اردت فقد تصير دكتورا مثلي بعد حين وقد تصير دكاترة كما صرت أنا ولن تستطيع » .

وهكذا كانت المعركة بين الاثنين . . وكان العقاد في كثير من الاحوال لا يرد عليه تعاظما منه الى جانب ادراكه للأهداف التي بيناها .

الدكتور احمد زكي ابو شادي :

اتخذت المعركة بين العقاد والدكتور احمد زكي ابي شادي شكلا مخالفا الى ـ حد ما ـ بالنسبة لمعاركه مع الادباء فالى جانب الخصومة المباشرة التي نستشعرها ونتبينها احيانا من رأي العقاد في الدكتورابي شادي حيث يقول مثلا : « وهناك طبيب متشاعر(يقصدالدكتور ابو شادي) سمحوا له باصدار خمس مجلات في وقت واحد وهو موظف باحدى المصالح الحكومية ، وقد جعل القسم الادبي في مجلاته كلها وقفا على التشهير بالعقاد وأدب العقاد وأخلاق العقاد ، والى الناس مثل من الاسفاف الذي ينحدر اليه الطبيب المؤتمن على الاعراض والارواح ، ومثل من أدب الصحفيين الذين تغمرهم الوزارة بالرخص الكثيرة حين تضن على غير الموظفين برخصة واحدة ، لأنها حريصة على الادب والاعراض » .

أو رأى الدكتورأبي شادي في العقاد حين قام بنقد ديوانه وحي الأربعين على صفحات مجلة ابولو حيث يقول : ان بالديوان روائع شتى على معظمها سمة التفكير والفلسفة وعلى القليل منها مسحة العاطفة الخاصة وان العقاد احيانا يتعثر في تعابيره بغير موجب ونخال ذلك راجعا الى اعتداده بنفسه وسخطه على القدامى العابدين للصور الكلامية والالفاظ الجوفاء مثال ذلك قوله يوم عصبصب ص٦٧وكانت له ندحه عن استعمال هذا اللفظ النافر .

إلا أن الجانب الاكبر من هذه الخصومة بين العقاد والدكتور ابو شادي نتبينه من كنايات أعضاء جماعة ابولو ورد تلاميذ وانصار العقاد على ما تثيره من اتهامات وادعاءات للعقاد وشعره .

والغريب في هذه الحالة أن العقاد كان من الذين رحموا بجماعة أبولو في بداية نشأتها حيث اشترك في تحرير العدد الاول من مجلة ابولو واقترح اسما للمجلة هو عطارد لانه اكثر شرقية من اسم أبولو . إلا أن هذه الجماعة اتخذت موقفا غريبا من العقاد حين استهدفته للهجوم والنقد وكأنها ما أنشئت الا لمحاربته والحط من اعماله الأدبية والفكرية .

وبالطبع لا يخفى على القارىء أن ثمة خلافا سوف يقع بين الدكتورابي‌شادي وجماعته من ناحية والعقاد وتلاميذه من ناحية اخرى لاسباب كثيرة . . منها أن هذه الجماعة كانت تعتمد في توزيع مجلتها ابولو على اعانات الوزراء الذين حاربوا الحركات الدستورية وعلى

---

(١٦) راجع ـ معارك العقاد الادبية ـ عامر العقاد ص ١٦٧

صفحاتها يكال المدح للملك فؤاد ولاسماعيل صدقي .

ومنها أن أبا شادي يكيل المدح والثناء في مقدمة ديوانه أثناء الفجر لمصطفى صادق الرافعي نكاية في العقاد ويصفه بأنه قد أوتي آيات الذكاء والشاعرية وأنه قد بلغ ما كان ينتظر له من بلوغه في الابداع الادبي والشهرة الفائقة .

ومنها أيضاً أن أبا شادي وأنصاره حاولوا تجريد العقاد من شاعريته بل ورموه بالسرقة من قصائد عبد الرحمن شكري وراحوا يشيعون أن شكري هو رائد مدرسة المجددين وليس العقاد .

لكن رغم تواجد هذه الأسباب وغيرها . إلا أن السؤال الذي يبقى هو لماذا يهاجم الدكتور أبو شادي وجماعته العقاد ؟ وهو سؤال ربما تضمنته مقالة بصحيفة الوادي في عددها الصادر بتاريخ ٢١/ ٩/ ١٩٣٤ والذي فيه يتساءل الكاتب : « لست ادري ما يغري مثل الدكتور ابي شادي برجل كالعقاد ، وما يدعوه أن يتخذ من الوسائل ظاهرها وخفيها للقدح في العقاد فمثل هذا الصراع قد يقع بين الأنداد أو الأشباه المتقاربين أو حتى الذين تجمعهم نقطة ارتكاز واحدة فيقال منافسة زادت حدتها فوصلت الى مستوى الخصومة والعراك .

ولكن الامر هنا على غير ذلك كله فالفروق بين أبي شادي والعقاد كبيرة فالعقاد رجل متميز الرجولة صلب شديد الصلابة عنيف غاية العنف وأبو شادي يستعيض عن هذا كله بالضحكة اللينة يضحكها ، وبالرفق والهوادة يظهر بهما .

والعقاد رجل له آراؤه وفلسفته الخاصة في مسائل الحياة الكبرى يصورها نثراً وشعراً بينما أبو شادي يقنع أن يخرج في العام أربعة دواوين فيها أشعة وظلال وأنوار وصور عارية ونزعات إباحية يوحي بها الجسم وشهواته العارمة وهو بهذا محظوظ ممتع موفور النعيم .

ويتضح موقف العقاد من أبي شادي وجماعة أبولو من رده على مقال كتبه الشاعر صالح جودت عام ١٩٦١ فيه قدم للقارىء وقائع عن هذه الجماعة وموقفها منه قال فيه : ان الاستاذ صالح جودت يستطيع أن يعلن ما يشاء من هذا القبيل ولكن لا يستطيع أن ينقض الوقائع الثابتة بمجرد النفي والانكار ، ولا يستطيع أن يفرض علينا السكوت في أمر سمعتنا وأمر التاريخ الادبي إكراماً لمقالات كان يشترك في كتابتها لهذه الصحيفة او تلك يوماً من الايام .

ومن تلك الوقائع التي لا شك فيها أن القائمين على جماعة أبولو أعلنوا أنهم يحاربون أدب الشيوخ باسم أدب الشباب ، وكنا يومئذ في نحو الأربعين ولكن المجلتين التابعتين للجماعة لم تحملا على أحد غيرنا ممن هم أندادنا سناً وأدباً ، أو من الذين سبقونا بالزمن والكتابة .

ومن الوقائع المحققة ان المطبعة التي كانت تصدر منشورات الجماعة أغلقت بعد خروج زكي الابراشي من ديوان الخاصة الملكية ، وأن رئيس الجماعة الذي بالغ لنا الاستاذ صالح جودت في وصف فقره قد أنفق على اعداد تلك المطبعة ونشر مطبوعاتها التي كانت تكلفه مئات الجنيهات وليس لها عوض ظاهر يقوم بأعباء تلك التكاليف .

ومن الوقائع الثابتة أننا لم نكتب حرفاً عن أحد من المنتسبين إلى تلك الجماعة إلا ما جاء بعد إنشائها عرضاً واتفاقاً في سياق الرد عليها وعلى غيرها .

هذه الوقائع الثابتة ليست مما ينقض بكلمة تقال .

ولهذا اكتفينا بها ولم نتعرض لما يجوز الخلاف عليه من تعيينات بعض المعينين في ديوان الاوقاف على عهد السيطرة الفؤادية عليه ولم نتعرض لما يجوز الخلاف عليه من إنفاق الخاصة الملكية على تعليم أبناء بعض الشعراء ومن اغراء أولئك الشعراء بلقب الشاعر المتوج ، أو شاعر الملك وما شابه ذلك من الألقاب .

فنحن لا نتعرض لأمثال هذه الاخبار المحققة لجواز الخلاف عليها ولا نتعرض كذلك للمناورات الصبيانية التي يعمد اليها بعضهم كلما أدركته حفيظة من أعمال كاتب هذه السطور ومنها ما هو قريب العهد لم يتجاوز الشهور . . » .

توفيق دياب :

من المعارك الدامية التي خاضها العقاد معركته مع صاحب جريدة الجهاد توفيق دياب وتأتي اهمية وعنف هذه المعركة من أنها جاءت بعد خروج العقاد على الوفد ونقده للسياسة الجديدة التي ينتهجها النحاس .

لقد كشف العقاد اللثام عن صنائع الاحتلال وعلى رأسهم صاحب جريدة الجهاد توفيق دياب[١٧] « ذلك الرجل الذي يلبس لباساً زائفاً تحت ستار الوطنية والغيرة على الوطن محاولا

---

(١٧) راجع العقاد معاركه في السياسة والادب ـ عامر العقاد

أن يسوغ للامة تأييد الوفد للوزارة النسيمية صنيعة الاستعمار البريطاني».

وقد اتخذت هذه المعركة شكلا صحفياً موفقاً حيث بدأها العقاد بمقاله الذي فيه يفند مزاعم توفيق دياب في رأيه بعده توالى النشر يومياً في صحيفة روز اليوسف التي كان يعمل بها العقاد .

وقد ناقش العقاد في مقاله توفيق دياب حيث ادعى بأنه قد أشفق عليه ابان أزمته فآواه في صحيفة الجهاد فكشف للقراء كيف عمل توفيق دياب في الجاسوسية خادماً حيث يقول : « يحسب هذا النذل أنه ما عليه إلا إن يقول أنه أشفق على العقاد فآواه الى صحيفته لينسى الناس أنه محتال يستحل أرزاق الأيامى والثكالى من صدقات المحسنين وينسى الناس أنه جاسوس قديم لأعداء البلاد وينسى الناس أنه أجير للسلطة العسكرية وأنه اجير لأديان لا يدين بها هو لولا العيش وأكل العيش وما دامت الوشية من خلائق هذا الجاسوس الذي تدل عليه أقسام الطلاق المتواليات في مناقشات السياسة وبحوث الرأي فكيف يتاح له أن يعرف المساجلة على غير هذا الوجه أو يحمل القلم بغير هذا الأسلوب » .

ويذكر العقاد أن توفيق دياب عمل بالتهريب حيث اشترى الأرض بالمساومة مع عبد الفتاح باشا يحيى ثم كتبها باسم امرأته توطئة للتهريب .

- وفي هذا المقال ناقش العقاد ما كتبه توفيق دياب في تأييده لموقف الوفد على طريقته المعهودة في السخرية والنقد اللاذع حيث قال : هذه هي السياسة الجديدة التي يمليها نصابها على البلد في زمن أقل بقليل من شروره أن أجير السلطة العسكرية القديم يملي فيه السياسة على مصر باسم الأمة واسم الزعامة واسم الجبهة الوفدية واسم الوزارة أجمعين .

فبالامس يقول الوفد المصري:« الوقت العصيب » أوجب « أن تكون الامة ممثلة في برلمانها مسموعة الكلمة مطاعة حتى لا يبت دون رأيها في مشروع من المشاريع التي تمس سلامتها أو مواردها .

واليوم يقول الدجال النصاب باسم الوفد وزعامة الوفد : أن الوقت العصيب يوجب علينا نسيان الدستور والاكتفاء بالوزارة النسيمية .

وبالأمس يقول الوفد المصري ان الامة لا ينبغي أن ترهب التهديد في سبيل مطالبها التي لا تنزل عنها .

واليوم يقول الدجال النصاب باسم الوفد وزعامة الوفد أن الانجليز ما داموا قادرين على

الشر فالواجب علينا أن نذعن للقضاء ونستكين اليه ونوقع في روعهم ـ روع الانجليز ـ أن لا حيلة لنا في قضائهم غير الانتظار من خلف الوزارة النسيمية المباركة . . وغير التسليم « حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين » .

وبالامس يصبح وقوف الدستور خطراً على سلامة البلاد ومواردها واليوم يصبح وقوف الدستور والمطالب الوطنية مصلحة منشودة أو ضرراً موقوتاً لا اكتراث له ولا التفات اليه ، ثم يصبح احراج الوزارة النسيمية هو الضرر الدائم الخالد الذي لا يعوض ولا تتداركه الأمة على مدى الازمان .

وكل هذا باسم من ؟ اهو باسم توفيق دياب الدجال النصاب يقول في « جهاده » ما يقضي به حق الأجرة وحق المسخرين القدماء ؟

كلا بل باسم الزعامة والجبهة الوفدية يتكلم ، وباسم الأمة والوزارة بغير شريك له ولا معقب عليه .

وليس هذا كل ما يعلنه باسم الزعامة تارة وباسم الجبهة الوفدية تارة اخرى وهو وحده كاف لاغراء الانجليز بكل انكار وكل اصرار وتسليمهم عصا التهديد والاذلال يهزونها على رؤوسنا متصلفين متعجرفين ، ثم لا يلتمسون لذلك أكثر من التلويح باحراج الوزارة النسيمية .

كلا بل باسم الزعامة والجبهة الوفدية يتكلم وباسم الامة والوزارة . « أن تظل مصر في حاجة الى حماية القوم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين » .

ويتعلل بقبول هذه الحماية بالحرب المتوقعة كأن الانجليز كانوا ينوون أن يحمونا في حالة السلام حيث لا خطر ولا صدام .

بل إنه ليتكلم باسم الزعامة وهو يقول ان الاعتراض على التبليغ البريطاني من جانب الوزارة غير معقول بعد ان أعلنت البلاد جميعاً ان الاعتراض أقل ما يصح أن يقابل به ذلك التبليغ المشؤوم.

وينهي العقاد مقاله بالقول : « قبح الله زمناً من أظهر مساوئه ان يبيح مخلوقاً حقيراً كتوفيق دياب أن ينتحل هذه الصفة التي لا تسلمها الأمة لأكبر زعيم قام في هذا البلد أو

---

(١٨) راجع العقاد معاركه في السياسة والادب ـ عام العقاد

يقوم ، ومن أظهر مساوئه أن يبيح الخلاف في هذه البديهيات وقد كان الاجماع على أمرها مقرراً مفروغاً منه في أسوأ العهود .

* توفيق الحكيم :

رغم أن أستاذنا توفيق الحكيم ـ أطال الله في عمره ـ حريص كل الحرص على البعد عن المعارك والمساجلات أو حتى المناقشات التي تحدث عادة بين الادباء بوجه عام وأن الحرص عنده لا بد أن يتضاعف في معركة يكون العقاد طرفها الأساسي . . إلا ان المحظور قد وقع ، ودخل الحكيم برجليه معركتين أدبيتين[19] « والأكثر من ذلك كان العقاد هو الطرف المستهدف في كلتا المعركتين من الحكيم . . الذي بدأ فحص العقاد بهجومه وربما يدعو هذا الى الدهشة أو العجب حقاً . . ولكن ليس هناك دهشة أو عجب في دنيا الادب والفكر .

لقد بدأت المعركة حيث رأى الحكيم أن عالم الفكر والأدب قد ملأته الخصومات والمعارك بين رجاله أمراً يدعو إلى إيجاد صفاء بين رجال الادب والفكر ونادى بهذا الصفاء على صفحات مجلة الرسالة في يونيو عام ١٩٤٢ واتخذ العلاقة التي بين العملاقين الكبيرين طه حسين والعقاد مثلا لايجاد هذا الصفاء حيث أهدى طه حسين قصته . . دعاء الكروان للعقاد فكتب مقالا يحيى فيه القصة وكاتبها . إلا أن ما كتبه العقاد لم يعجب الحكيم فعقب عليه بمقال عام عنوانه « الصفاء بين الادباء » فانبرى للرد عليه الدكتور زكي مبارك وهنا أتبعه بمقال آخر في الرسالة بتاريخ ٢٠/ ٤/ ١٩٤٢ وضح أنه يقصد العقاد حيث قال : كنت قد نشرت في الرسالة كلمة وظاهر من روح هذه الكلمة أني أحض على توثيق صلات المودة الصادقة بين الأدباء بدعوتهم إلى نبذ الألفاظ التي قد تحدث في نفوس زملائهم شيئاً من الامتعاض ولكن الدكتور زكي مبارك فهم الأمر على وجه آخر .

ثم سألني : فقلت أديب واحد قد عنيته بالذات إنما هي كلمة عامة للنفع العام ، ولئن كان لا بد من مناسبة أوحت بهذه الكلمة فربما كانت مقالة الأستاذ عباس العقاد التي يشكر فيها الدكتور طه اهداءه إليه « دعاء الكروان » .

وفي الحق اني لم أجد بالمقال الرقة التي كنت أنتظرها واستأت في نفسي من الأستاد العقاد

---

(١٩) الرسالة اول يونيه ١٩٤٢ مقال العقاد صداقات الادباء

بعض الاستياء وأنا الذي يعتقد أنه يخفي وراء قناع الكبر والتكبر نفساً طيبة تتفجر اذا اطمأنت بأجمل عاطفة وأنبل احساس . فالذي يستطيع التأثير في نفوسنا بكتاباته الانسانية عن الكلب بيجو لا بد أن يحمل نفساً خليقة أن تفيض بالمودة نحو إنسان .

ورد العقاد على صفحات الرسالة في اول يونيو ١٩٤٢ بمقال كبير عنوانه « صداقات الادباء » قال فيه : والأستاذ الحكيم أراد الصفاء بين جميع الأدباء فهل أراد شيئاً يكون في هذه الدنيا ؟ وهل أراده حقاً ؟ وهل توسل اليه بالوسيلة المثلى . إن ثلاث « لاءات » مفخمات لا غير أصدق جواب على هذه الاسئلة الثلاثة فالصفاء بين جميع الادباء معناه الصفاء بين جميع الناس وليس هذا بميسور ولا هو بلازم للأدب وللأدباء .

فلماذا تصفو العلاقات بين جميع الادباء وهي لاتصفو بين جميع الادميين؟ إن الصفاء قد يتحقق بين طبيب ومهندس ولا يتحقق بين مهندسين أو طبيبين وقد يتاح لرهط من الأدباء كما يتاح لرهط من أبناء الصناعات المختلفة ولكنه لن يتاح لجميع الادباء في وقت واحد ، ولن يتاح لجميع الناس من صناعات شتى ولا صناعات متفقة وليس تخصيص الادباء هنا بالمطلب المفهوم إلا إذا عممنا المطالبة للأدباء وغير الادباء . ورفعنا الكدر من جميع الاحياء . وهذا ما ليس بكائن ولا نراه مما يكون .

فالاستاذ توفيق الحكيم لم يطلب شيئاً يجاب .

ولكننا نعود فنسأل : هل طلبه حقاً ؟ وهل اجتهد في تحقيقه فتوسل اليه بوسيلته المثلى .

إن الذي يطلب الصفاء لا يبحث عن أسباب الكدر بملقاط يخلقها خلقاً بين رجلين على أحسن ما يكون الصفاء ، بل هو يمحو منها ما وجد إن كان له أثر محسوس ، ولا يوجد منها ما ليس له وجود ولم يحسه احد ولا توهمه ولا وقع في ظن من الظنون . .

ويقول العقاد : أهدى إلي الدكتور طه حسين قصته « دعاء الكروان » فجعلت هذا الاهداء موضوع مقال من أعماق النفس في معنى الكروان ودعاء الكروان وذكريات الكروان ، وقرأه كثيرون من الأدباء وحدثوني عنه حديث رضى وسرور وفي مقدمتهم الدكتور طه مهدي دعاء الكروان اما الأستاذ توفيق الحكيم فماذا صنع ؟

لم يرضه ما أرضى الدكتور ولا ما أرضى الادباء ولا ما أرضى كثرة القراء وراح يتحدث ويكتب ليقول : هنا صفاء . . فكيف بالله يليق هذا الصفاء ؟

وينهي العقاد مقاله قائلا : وبعد فما العبرة من كل اولئك في تاريخ الادب ونقده وسلوك

الأدباء مشهورين كانوا أو غير مشهورين ؟ العبرة من أولئك أن الاستاذ الحكيم يقول بعد الاشارة الى ثناء الدكتور طه حسين عليه منذ سنوات : لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كاتب حسب أنه تفضل على مؤلفه ورفع شأنه من الحضيض ، وأن على المؤلف واجباً مقدساً هو أن يشتري من فوره سبحة كيلا ينسى أن يسبح بحمد الناقد اناء الليل وأطراف النهار .

كذلك يقول الأستاذ الحكيم اليوم فليذكر ما قاله الادباء الناشئون الذين يؤمنون بكفاءة تشبه كفاءته الفنية ليذكروا أنهم يطلبون شيئاً ينكرونه جاهلين بعد بضع سنوات يطلبون التشجيع ثم ينكرون التشجيع وكان أحرى بهم ألا يطلبوه والا ينكروه . فما سمعنا في غير مصر أن الادباء المشهورين مسؤولون عن شهرة كل أديب ينشأ بعدهم ولا يعرف لهم حقهم ، والا كانوا هم الملومين المقصرين .

عبرة أخرى ان الاستاذ الحكيم يذكر التعالي في موقف الكاتب وينسى أنه اختار لأدبه عنوان « البرج العاجي » وهو العنوان المصطلح على وصفه بالتعالي بين نقاد الغرب وشعرائه . فليترك برجه العاجي إذن او فليتركنا نحن نتعالى ونتواضع كما نشاء .

وعبرة ثالثة ان الاستاذ يحن إلى صداقات الادب المصري كالصداقات التي أثرت عن كبار الادباء الغربيين .

وان أناساً لتأخذهم السمعة البعيدة في زمانها أو البعيدة في مكانها فيلحقونها بعالم الخيال وعالم المثال ويسهون عن الواقع الذي لا يقبل المحال .

وأعيذ الاستاذ أن يكون من هؤلاء .

فتاريخ الآداب الاوروبية بين يديه يستطيع أن يرجع في كل ساعة إليه ، ويستطيع أن يعلم بعد المراجعة أن في الادب العربي حديثه وقديمه صداقات تضارع تلك الصداقات مع حسبان الفارق في البيئة والزمن والمناسبة .

فهل يعني الاستاذ صداقة شعراء البحيرة في انجلترا ؟ هل يعني صداقة شلي وبيرون هناك ؟ هل يعني صداقة جيتي وشيلر بين شعراء الالمان ؟ هل يعني صداقة تولستوي ودستيفسكي بين عظماء الادب العالميين .

إن كان يعني هؤلاء وامثال هؤلاء فهو واجد في الادب العربي الحديث صداقات من طراز تلك الصداقات ، وواجد من هناتهم في الغرب نظائر لما يشكوه من هنات الزملاء المصريين والشرقيين .

والطبيعة البشرية واحدة في كل مكان . . تلك أصدق حكمة عن الناس قالها انسان .

ويرد الحكيم على العقاد في مقال في الرسالة بتاريخ ٨ يونيو ١٩٤٢ يقول فيه :

« كانت دعوتي الى الصفاء بين الادباء خالصة لوجه الأدب . . فأدباء مصر البارزون الدائبون على الانتاج لا يتجاوز عددهم العشرة على التسامح الشديد .

كان الأجدر بنا نحن العشرة أن نوجه صراعنا لا الى بعضنا البعض بل الى الفن ومصاعبه واسراره .

ولكن الاستاذ العقاد في مقاله . . رد يقول ان صاحب الدعوة الى الصفاء هو الذي بحث في اسباب الكدر بملقاط ليخلقها خلقا بين رجلين على احسن ما يكونان من الصفاء ، فاذا صح هذا الزعم كان حقا مما يدعو إلى الأسف بل الى السخرية .

ربما كان ظاهر الواقع يدل على ذلك ولكن هل كانت تلك حقيقة المقاصد والنوايا ؟

وقد رأى الأستاذ العقاد أن يجري واحدة بواحدة فلم يفته في ختام مقاله أن يدس هو الآخر سببا من أسباب الكدر بيني وبين الدكتور طه حسين لقوله « ان الاستاذ الحكيم يقول بعد الاشارة الى ثناء الدكتور طه عليه منذ سنوات : لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كتاب حسب أنه تفضل على مؤلفه ورفع شأنه من الحضيض . . الخ .

ومضى يصورني في هيئة الناكر للجميل . والأستاذ العقاد ولا شك قد فهم أني ما قصدت بايراد هذه العبارة وأمثالها الا مجرد اظهار الاساءة لطه حسين وهو في أوج نفوذه . فقلت ما نصه « ان هذا الوقت احب الأوقات عندي لاساءته لا لارضائه » .

الحقيقة أنها كانت قصة انتهت مع الأسف بانهيار صداقة من أعظم الصداقات التي عرفها أدبنا المعاصر .

ثم تحدث توفيق الحكيم عن قصة أهل الكهف ورأى طه حسين فيها وصداقتهما التي قامت على الأثر وقال « . . ولكن واأسفاه . لقد تغلب اولئك الشاتمون واللائمون آخر الأمر وفازوا بمآربهم وأشعلوا نار الوقيعة بيننا واضعين أيديهم على مواطن الضعف فينا وضعف الفنان هو عزته وكرامته ، وان شئت فقل غروره .

وهكذا لم يستطع طه حسين ان يحتفظ طويلا بابتسامته وضحكه أمام الساعين بالسوء ولم أستطع أنا أن احتفظ باتزاني فأنقذ المودة الصادقة ، وأضحي بالعزة الكاذبة .

وبهذا حطمنا تلك الجوهرة التي منحتنا اياها السماء . . ومن أجل من ؟ من أجل ماذا ؟ لست أدري ما حدث بعد ذلك ، فذاكرتي الآن لا تسعفني ، كل ما أذكر أننا حاولنا أن نذم ونحطم . ولقد أقمنا معا بعض الصيف في جبال الألب فضحكنا كثيرا ولهونا طويلا بل لقد ألفنا معا هناك كتابا . . ولكنها مع ذلك لم تكن الصداقة الأولى لماذا ؟ لعل شيئا في نفسينا لم يكن صافيا كل الصفاء أو في نفسي أنا على الأقل . . انى أعرف ، لقد كنت أمتنع عن كل ما يؤخذ على أنه ملق أو زلفى . . لقد كان طه حسين وقتئذ هو شخصية ذات نفوذ وأنا أكره ارضاء أصحاب النفوذ .

ولكني الآن وقد وضعت بين تهمتين : الزلفى ونكران الجميل فاني أوثر التهمة الأولى فلقد سبق أن اتهمت بها في مجال السياسة ، ان الشهرة قد جاءتني حقيقة ببعض المال ولكن هل كنت محتاجا إلى ذلك المال ؟ انـي لم أكن معسراً ولا مقتـراً . أجاءتني بالمركز الاجتماعي ؟ كلا فقد كنت قبلها من رجال القضاء المحترمين ، ولو أني بقيت كذلك ولا شيء غير ذلك لظفرت بالحياة الهانئة الوديعة النافعة ، على الأقل للعدالة والناس ، ولكن الشهرة وما يحيط بها من الاشاعات والأقاويل والأباطيل قد حالت بيني وبين ذلك الخير ، فبعد أن كانت تسعى إلى طلبي الآخر وأنا في القضاء سموا في الثقة والهيبة تنفر مني اليوم . . لقد جاوزت الاربعين وما أبصر في الأفق طيف واحة مورقة في صحراء حياتي المحرقة . وما قيمة الشهرة بغير سعادة ، وما قيمة الأدب والفن بغير هناء » .

وفي مقال آخر يقول توفيق الحكيم : إن الدولة لا تنظر الى الادب بعين الجد بل انه عندها شيء وهمي لا وجود له ولا حساب » .

ثم يقول : « إن انعدام روح النظام بين الأدباء وتفرق شملهم وانصرافهم عن النظر فيما يربطهم جميعهم من مصالح وما يعنيهم جميعا من مسائل قد فوت عليهم النفع المادي والادبي وجعلهم فئة لا خطر لها ولا وزن في نظر الدولة » .

ويقول في مقال آخر عن أدبائنا المعاصرين هل فهموا حقيقة رسالتهم ؟ ويذكر ما يصنعه أدباء اوربا كلما هبت ريح الخطر على احدى هذه القيم ـ وهي الحرية والفكر والعدالة والحق والجمال ـ وكيف يتجرد كل أديب من رداء جنسيته الزائل ليدخل معبد الفكر الخالد ويتكلم باسم تلك الهيئة الواحدة المتحدة التي تعيش للدفاع عن قيم البشرية العليا » .

ثم يقول بعد أن وصف سوء حال الادب في مصر :

« امام كل هذا وقف الأدب ذليلا لا حول له ولا طول،وضاعت هيبة الأدباء في الدولة

والمجتمع،وانكر الناس ورجال الحكم على الأديب استحقاقه للتقدير الرسمي والاحترام العام . فالعمدة البسيط تعترف به الدولة وتدعوه رسميا الى الحفلات باعتباره عمدة . أما الاديب فمهما شهره ادبه فهو مجهول في نظر الرجال الرسميين ولن يخاطبوه (قط) على أنه أديب » .

ويرد عليه العقاد معقبا :

« كلام الاستاذ الحكيم في هذين المقالين هو الذي ابتعثني الى التعقيب عليه فيما يلي من خواطر شتى عن رسالة الاديب وشأن الاديب والدولة ، ومستقبل الادب في الديار المصرية ، او في الديار الشرقية على الاجمال .

فهل من الحق أن الادب محتاج إلى اعتراف من الدولة بحقوقه ؟

اما أنا فانني لاستعيذ بالله من اليوم الذي يتوقف فيه شأن الادب على اعتراف الدولة ومقاييس الدولة ورجال الدولة .

لأن مقاييس هؤلاء الرجال ومقاييس الأدب نقيضان أو مفترقان لا يلتقيان على قياس واحد .

فمقاييس الدولة هي مقاييس القيم الشائعة التي تتكرر وتطرد وتجري على وتيرة واحدة .

ومقاييس الأدب هي مقاييس القيم الخاصة التي تختلف وتتجدد وتسبق الأيام .

مقاييس الدولة هي عنوان الحاضر المصطلح عليه .

ومقاييس الادب هي عنوان الحرية التي لا تتقيد باصطلاح مرسوم ، وقد تنزع الى اصطلاح جديد ينزل مع الزمن في منزلة الاصطلاح القديم .

مقاييس الدولة هي مقاييس العرف المطروق ومقاييس الأدب هي مقاييس الابتكار المخلوق . .

مقاييس الدولة هي مقاييس الأشياء التي تنشئها الدولة او تدبرها الدولة أو ترفعها تارة وتنزل بها تارة أخرى .

ومقاييس الادب هي مقاييس الأشياء التي لا سلطان عليها للدول مجتمعات ولا متفرقات . فلو اتفقت دول الارض جميعا لما استطاعت أن ترتفع بالاديب فوق مقامه او تهبط به دون مقامه ، ولا استطاعت ان تغير القيمة في سطر واحد مما يكتب ولا في خاطر

واحدة من الخواطر التي توحي اليه تلك الكتابة .

ومن هنا كان ذلك العداء الخفي بين معظم رجال الدولة ومعظم رجال الادب في الزمن الحديث على التخصيص .

لأن رجال الدولة يحبون أن يشعروا بسلطانهم على الناس ويريدون أن يقبضوا بأيديهم على كل زمام ، فاذا بالإدب وله حكم غير حكمهم ومقياس غير مقياسهم ، وميدان غير ميدانهم ، واذا بالعصر الحديث يفتح للأدباء باباً غير ابوابهم ، وقبلة غير قبلتهم التي توجه اليها الادباء فيما غبر من العصور .

ولو بلغنا الى اليوم الذي تعترف فيه الدولة بالأدباء لما اعترفت بأفضلهم ولا بأقدرهم ولا بأصحاب المزية منهم ، ولكنها تعترف بمن يخضعون لها ويرضون كبرياءها ويهبطون او يصعدون بغضبها او رضاها .

ولسنا في مصر بدعا بين دول المغرب والمشرق فما من دولة في العالم تعترف بأمثال برنارد شو وبرتراندرسل ورومان رولان كما تعترف بالحثالة من أواسط الكتاب .

هذا عن الأدب وشأنه المعترف به بين رجال الدول ، فما عن التفرق والتجمع ، أو عن أثر هذا او ذاك في تقويم أقدار الأدباء ؟

أصحيح أن الادباء في حاجة إلى الاجتماع ؟

انفع من هذا واقرب الى تبيين الصواب أن تسأل : هل صحيح ان شاعرين يشتركان في نظم قصيدة واحدة ؟ وهل صحيح أن مصورين يشتركان في رسم صورة واحدة ؟ وهل صحيح ان الادب في لبابه عمل من أعمال التعاون والاشتراك ؟

الحقيقة أن الادباء حين يخلقون أعمالهم فرديون منعزلون فلا حاجة بهم الى محفل يسهل لهم الخلق والابداع ، ولا فائدة لهم على الاطلاق من اتفاق او اجتماع .

والحقيقة أن التعاون انما يكون في مسائل الحصص والسهوم والاجزاء ؟ ولا يكون في مسائل الخلق والتكوين والاحياء :

لان الفكرة الفنية كائن حي ووحدة قائمة ليس يشترك فيها ذهنان ، كما ليس يشترك في الولد الواحد ابوان .

فاذا كان تعاون بين الادباء ، فانما يكون على مثال التعاون بين الآباء .

إنما يكون تعاوناً على رعاية ابنائهم وحماية ذرياتهم ، وقلما يحتاج الآبـاء الى مثـل هذا التعاون الا في نوادر الاوقات .

فاذا اجتمع الأدباء فلن يرجع اجتماعهم الا الى حواشي الادب او « ظروف » الأدب كما يقولون دون الأدب في صميمه .

وإذا اجتمع الاطباء فهناك طب واحد ، او اجتمع المحامون فهنـاك قانـون واحـد ، وقضاء واحد ، او اجتمع المهندسون فهناك هندسة واحدة وبناء واحد ، فكيف يجتمـع الادباء كما يجتمع الاطباء والمحامون والمهندسون وكل اديب منهم نموذج لا يتكرر ، ونمط لا يقبل المحاكاة ، وأدب تقابله آداب متفرقات .

ان محامياً قديراً ليغني عن محام قدير ، ولكن هل يغني اديب كبير عن اديب كبير ؟ وهل ينوب خالق في الفنون عن خالق آخر في الفنون ؟ . . كلا . . لن ينوب هذا عن ذاك ولن يختلط هذا بذاك ، كما أن الوجه الجميل لا ينوب عند عاشقه عن الوجه الجميل ولو اشتركا معاً في صفة الجمال . كل أديب نمط وحده ، وكل أديب في غنى عن سائر الادباء الا ان يتعاونوا كما أسلفنا في الحواشي والظروف دون الجوهر واللباب .

أللأديب رسالة ؟

نعم ليس بالأديب من ليست له في عالم الفكر رسالة ، ومن ليس له وحي وهداية .

ولكن هل للادب كله رسالة تتفق في غايتها مع اختلاف رسالات الأدباء وتعدد القرائح والآراء ؟

نعم لهم جميعا رسالة واحدة هي رسالة الحرية والجمال .

عدو الادب منهم من يخدم الاستبداد ، ومن يقيد طلاقة الفكر ومـن يشـوه محاسـن الاشياء .

وخائن للأمانة الادبية من يدعو الى عقيدة غير عقيدة الحرية .

أفيدري الأستاذ توفيق ما هو ـ في رأيي ـ خطب الثقافة الانسانية الذي يخشاه « دوهامل » ويشفق منه كتاب أوروبا كافة على مصير الذوق والتفكير والفن والشعور المستقيم ؟

أفيدري الاستاذ توفيق ما هو ـ في رأيي ـ سر الفتنة الحسية التي غلبت على الطبائع والاذواق وتمثلت في ملاهي المجون أو ملاهي الأدب الرخيص ؟

سرها الاكبر هو وباء الدكتاتورية الذي فشا بين كثير من الامم في العصر الاخير .

لأن الدكتاتورية كائنة ما كانت ترجع الى تغليب القوة العضلية على القوة الذهنية والقوة النفسية .

وهكذا كانت مساجلات العقاد وتوفيق الحكيم نوعا من الثقافة التي يستفيد منها جمهور القراء ففيها الكثير من الاجابات على تساؤلات كثيرة داخل الثقافة العربية وموقفها من الثقافة العالمية وهل هناك اجدر من عملاق الفكر العربي العقاد وراهب هذا الفكر توفيق الحكيم على حمل هذه الرسالة ؟

وعلى الرغم من هذه المساجلات التي وصلت في بعض الاحيان الى مستوى المعارك الادبية كان موقف العقادمن الحكيم هو نفس موقفه من الفنان الصادق والاديب المبدع او المفكر الجاد موقف التقدير والاحترام لما يقدم حتى نهاية عمره وهو ما يستشعره الحكيم في احاديثه ولقاءاته عندما يذكر اسم العقاد .

الدكتور محمد كامل حسين :

العقاد في معركته مع الدكتور محمد كامل جسين لم يكن هو المهاجم . كما عودنا في معظم معاركه الادبية والفكرية . وانما على العكس كان الدكتور محمد كامل حسين هو البادىء في هذه المعركة التي استمرت فترة واشترك فيها أطراف اخرى غير الاثنين كما تؤكد الأحداث[20] .

فالقضية تبدأ حين بعث أحد القراء برسالة للعقاد قال فيها « اطلعت على كتاب وحدة المعرفة للدكتور محمد كامل حسين واطلعت من قبل على نظريات أبي الفلسفة المثالية التجريبية الفيلسوف « صموئيل الكسندر » فوجدت أن هناك تشابها واضحا بين ما كتبه الدكتور محمد كامل حسين ، وبين ما نادى به صموئيل من قبل في كتبه التي تضمنت آراءه ومباحثه في الميدان الفلسفي ، ولما التبس علي الأمر حضرت الى أستاذنا العقاد طالبا من سيادته التفضل بتناول هذه القضية في يوميات الأخبار : وهي هل هناك اقتباس ام انه توارد خواطر ؟ وقد أعياني التفكير فجئت إلى رجل التفكير طالبا البيان . . » .

وأحال العقاد السائل على الدكتور محمد كامل حسين بوصفه مؤلف الكتاب موضع

---

(٢٠) راجع العقاد معاركه في السياسة والادب ـ عامر العقاد .

السؤ ال عله يفيده هو فيما يختص بمسألة الاقتباس او توارد الخواطر . . مع شرح لاراء صموئيل الكسندر التي نشرها عام ١٩٣٤ في مجلدين بعنوان « المكان والزمان والربوبية » كذلك ذكر أنه قد يخص مذهب هذا الفيلسوف عن الربوبية ودرجات صفات المادة في كتابيه « الله » و« عقائد المفكرين في القرن العشرين ».

وكان من الممكن أن تنتهي هذه المسألة عند هذا الحد او على الاكثر اما ان يرد الدكتور محمد كامل حسين بالنفي او بالايجاب . . ولكن الذي حدث كان مغايرا لذلك تماما فقد كتب مقالا لجريدة الاخبار بتاريخ ٢١/ ١١/ ١٩٦٠ ضمنه هجوما عنيفا على العقاد منه ما ذكره العقاد في رده عليه[21] حيث كتب : فمما قاله الأستاذ في رده : ولا أعرف هذا الصمويل الكسندر الذي يصفه الاستاذ العقاد انه أبو فلسفة بعينها في انجلترا .

ومما قاله عن هذا الفيلسوف:ولم أعثر على معلومات عن هذا العلم من أعلام الفلسفة الانجليزية ودائرة المعارف البريطانية لا تعرفه ولا أدري هل هو فيلسوف لجأ الى العلوم ليثبت نظرياته ام هو أصلا عالم طبيعي امتد به التفكير العلمي الى أن شمل المباحث الفلسفية ؟

وقال عن فلسفة الكسندر ايضا .. ولو قرأ الاستاذ العقاد كتاب ـ عسير لرأى فيه اشياء كثيرة لا يمكن ان تكون في كتاب صمويل هذا .

وقال عن العقاد : ان الاستاذ العقاد . . ليس صادق الحس في البحوث العلمية لأن صدق الحس في العلوم ينشأ من ممارستها ممارسة طويلة وقد خانه الحس حين ذكر أن التشابه تام بين كتابي وكتاب الكسندر لأن الفرق بين المذاهب العلمية وما يقوم عليها ، قد يدق حتى على من يحسن العلم بها .

وقال ايضا : واني ارجو الاستاذ العقاد رجاء حارا ان يقرأ كتاب وحدة المعرفة قراءة درس واستيعاب وهو قد لخص كتاب صمويل وقد يرى أن يلخص كتابي أيضا وهو قد شرح فلسفة صمويل في كتابه عن الله ولعله يشرح فلسفتي في كتابه عن نفسه وهو الكتاب الذي سيظهر قريبا والذي سيكون عنوانه من غير شك ـ التواضع » .

وقد رد العقاد ردا عنيفا فيه أكد أن الدكتور محمد كامل حسين تأثر في كتابه وحدة المعرفة بكتاب هذا الفيلسوف الانجليزي . وتعجب بل وسخر من استاذ كبيرا مثل الدكتور محمد

---

(٢١) يوميات الاخبار ـ العقاد ٢٢/ ١١/ ١٩٦٢

كامل حسين لا يعرف هذا الفيلسوف وبانه يذكر عدم ذكر اسمه في دائرة المعارف البريطانية وفي هذا يذكر الصفحات التي كتبت في دائرة المعارف البريطانية عن هذا الفيلسوف والاكثر يتعجب لماذا لا يبحث عنه في دوائر المعارف الفلسفية كرجل متخصص وليس من العوام وينهي مقاله قائلا : وبالدليل القاطع يثبت الى الان نقيض كل ما ادعاه الاستاذ لنفسه وادعاه علينا .

فليس هو طويل الدراسة للمباحث الفكرية لان من كان طويل الدراسة لها لن يبلغ من جهله بفلسفة القرن العشرين القريبة ان يخفى عليه مذهب المثالية التجريبية وهو بهذه المكانة من عالم الفلسفة .

وليس الدكتور بالرجل الذي يعلمنا ادب التواضع لان المتواضع يذكر الحياء الواجب حين تحدثه نفسه باحتقار هذا « الصمويل » بغير ذنب جناه غير فلسفته التي يتعالى بها السيد الهمام .

وليس الدكتور محققا في بحثه وتمحيصه لأن الباحث المحقق لا يدعى على دائرة معارف تملأ الارض انها خالية من ذكر الفيلسوف وهي تنوه بشأنه هذا التنويه .

ولا نريد بعد هذا كله ان نتعلم على يد الدكتور درسا في التواضع لأننا قد نحس بعد مقالاته ودعاويه أننا بحاجة شديدة الى درس آخر يعوزنا الى الآن .

ذلك الدرس هو الكبرياء التي كان ينبغي أن نتعلمها ليعلم الدكتور كيف يتواضع امام من هم أخبر منه بما يدرسون ولعله يراجع برنامج الدروس اللازمة لنا وله بعد استيفاء هذا البحث في اليوميات التي لا يستحيل « أن تبصره يومئذ بمواضع التبصير »[(٢٢)]

واتسعت دائرة المناقشة ليدخل فيها طرف ثان هو الدكتور زكي نجيب محمود الذي يؤكد دعوى العقاد في مقال له نشر بجريدة الاخبار في ٢٦/ ١١/ ١٩٦٢ ويقول معلقا حول هذه المعركة .

و« منذ نحو ثلاثة أعوام دعيت للاشتراك في ندوة اذاعية عن كتاب « وحدة المعرفة » الذي كان الدكتور محمد كامل حسين قد اخرجه منذ حين قصير فما كدت اقرأ الكتاب استعدادا للندوة حتى أخذتني الدهشة من كل ارجائي اذ رأيته صدى لكتاب معروف لدارس

---

(٢٢) الاخبار : ٢٢/ ١١/ ١٩٦٢ يوميات العقاد.

الفلسفة الانجليزية المعاصرة هو كتاب « المكان والزمان والربوبية » لصمويل الكسندر ـ وهو من مجلدين كبيرين وقد وجدت « الصدى » واضح المحاكاة حيناً ومبهماً حينا آخر ، على أنني رأيت كذلك أنه في حالات الابهام كان المؤلف يحاول أن يطمس معالم الاصل طمسا لم يكن دائما في صالح الفكرة الرئيسية ووضوحها ـ اقول ان الدهشة قد ملأتني عندئذ لأنني لم اجد اشارة في الكتاب تدل على الصلة التي ربطته بالكتاب الاصلي وتبين أين يكون تلخيص الاصل تلخيصا صريحا واين تمتزج محاولات التغيير .

وأذكر انني بدأت كلمتي في الندوة الاذاعية المذكورة بقولي : ان الدكتور كامل حسين مشكور بغير شك على تقديمه هذه المادة لقراء العربية ولكنني كنت أتوقع ان يشير الى كتاب « المكان والزمان والربوبية » لصمويل الكسندر لعل قارئا مستقصيا يحب ان يتوسع في الموضوع بعد ان قرا خلاصة له وارجح جدا ان يكون الدكتور كامل حسين قد سمع تلك الاذاعة عندئذ ـ وعندي شاهد على ذلك ـ لكنه سكت عن الموضوع حينئذ ولعل مرجع سكوته اذ ذاك هو ان صاحب القول لم يكن في رأيه بذي خطر فلماذا يثير غبارا يجوز ان تمضي الامور ولا يثور » .

وذكر الدكتور زكي نجيب محمود في نهاية مقاله مواضع التشابه بين كتاب الدكتور محمد كامل حسين والفيلسوف الانجليزي حيث قال : « اما بعد فلو قال الدكتور كامل حسين انه استوحى ذلك الكتاب لقلنا قد يكون ذلك أما أن ينكر كل علاقة له بالكتاب وصاحبه فامر يستحيل تصديقه ولا عبرة بعد ذلك ان يكون صمويل الكسندر ذا مكانة عالية أو خفيضة في تاريخ الفكر المعاصر لان قيمة الرجل لا شأن لها بما نحن بصدد الحديث فيه فقد يكون أتفه التافهين ومع ذلك رعا عن لأحد أن يأخذ عنه بل ربما كانت العلة في السكوت عن ذكر المصدر الاصيل هي انه في رأي الناقل مصدر مظلم مجهول قد لا تراه الأبصار » .

ورد الدكتور محمد كامل حسين في اليوم التالي ١٩٦٢/١١/٢٧ على الدكتور زكي نجيب محمود فكان رده مؤكدا لحقيقة اقتباسه ففي بداية الرد ذكر واقعة لم يذكرها من قبل وهي نقد الدكتور زكي نجيب محمود للكتاب فور صدوره بالاذاعة وكان الاحرى به ان يذكر هذه الواقعة التي فيها ولا شك سمع باسم صمويل الكسندر الذي ينكره ويقول في رده على العقاد انه لم يسمع من قبل بهذا الصمويل ولا يدري من هو ولا أين كان ؟

ولم تنته المعركة عند هذا الحد . وانما استمرت حيث كتب العقاد في يومياته بالأخبار

بتاريخ ٢٨/ ١١/ ١٩٦٢ مقالا بعنوان « مثل التحقيق والخبرة للدراسة العلمية » فيه اضاف جديدا الى ما كان قد قال من قبل حول اقتباس الدكتور محمد كامل حسين من الفيلسوف الانجليزي صمويل الكسندر الى درجة « تأثره بالالفاظ نفسها دون الاشارة الى مراجعه ».

وقد كان العقاد في رده على الدكتور محمد كامل حسين عنيفا ذلك العنف الذي تشتم منه السخرية اللاذعة طريقة تفرد بها العقاد في ادبنا العربي أمرا جعل الدكتور محمد كامل حسين يلوذ بعد ذلك بالصمت وكيف يرد على مقال للعقاد ضمنه العديد من الحقائق التي تدينه ادانة تامة « وكان يجدر به ان يكتفي بتجبير العظام بدلا من الخوض في المسائل الفكرية التي لا يقدر عليها » .

وختم العقاد مقاله بعد ان قابل كل ما ورد بكتاب وحدة المعرفة وما قال به الفيلسوف من قبل قائلا وهو يوجه الكلام للدكتور محمد كامل حسين .

ونضع أمامك ما ابتكرته انت حيث « وحدة المعرفة » بالعنوان المستعار من مذهب الصمويل في المعرفة الموحدة ثم نفتح الكتاب الهيرارشية التي تراها في دائرتك ثم تختمه بنظام التطور الكوني من ادنى كل شيء الى سماء الربوبية ثم ماذا يا هذا ؟ او يا هؤلاء إكبارا لك عن ذاك وهذا ؟.

نقول نحن ان التشابه تام بين مبتكراتك ومنتحلات الصمويل قبلك . ثم تقول أنت انه جهل منا بالتمييز بين المذاهب والاراء لان هذا التمييز يحتاج الى زمن طويل ويشترط فيه البدء بالقدرة على تجبير العظام ثم لا يكفي فيه اكثر من قراءة خمسين سنة واكثر من عشرين مبحثا وكتابا في مذاهب الفلاسفة والمفكرين ثم لا غنى فيه عن طريقة واحدة من البحث هي طريقتك في بحث دوائر المعارف ومراجع العلوم .

يا دكتور :

ان كنت بعد هذا لا تحس حاجتك الى التمييز الذي جردتنا منه فأنت من اسعد خلق الله .

الشيخ امين الخولي .

معركة العقاد مع الشيخ أمين الخولي اتخذت شكلا مختلفاً . . فقد بدأت حيث بدأ

الشيخ هجومه على العقاد وسرعان ما انضم الى صف الشيخ أفراد جماعته المعروفة بجماعة الامناء فكأن العقاد كان لا يواجه فردا لكنه كان يواجه جماعة .

والمعركة تبدأ بعد نشر الشيخ امين كتابا في سلسلة أعلام العرب عن الامام مالك رضى الله عنه في مقدمته هاجم اسلوب العقاد في الاسلاميات وعلى وجه الخصوص أنه لا يفرق من حيث تحليل المضمون بين العبقريات والشخصيات الاسلامية حيث قال : ليس من التاريخ ولا العلم في شيء أن تسمى عبقريات محمد وفلان من اصحابه ثم يكون الحديث عن فلان آخر من هؤلاء الصحابة فاذا الكتاب فلان في الميزان ، وانما الامر ان الكل جميعا في الميزان ».

وقال : لا تكون الترجمة مع شيء من هذا موضوعية وعلى هذا الاصل تدرك ما تكون عبقرية عمر حين يقول السيد مؤلفها : فانك اذا قرأت مثلا عبقرية عمر فانك تقرأ العقاد في عمر وما ينبغي الا ان تقرأ عمر كما أدرك العقاد من امره .

وقال ايضا : من خفيف الملاحظة التي تغير سيرة المترجم له تغييرا عنيفا وتتبين بها الحاجة الشديدة للأصول التاريخية في رسم الصورة الادبية ان عبقرية الامام . . في طبعة الهلال تزين غلافها صورة فارس شاكي السلاح . . فكلمة التاريخ أن عليا ليس في خير أحواله فارسا ـ راجع « الامتاع والمؤانسة » . . لأبي حيان فصورة الغلاف ضد هذه الحقيقة واحترام التاريخ يستبعدها .

وتلقى العقاد عديدا من الرسائل كما يذكر ابن اخيه عامر العقاد في كتابه « العقاد معارك في السياسة والادب » كلها تطالبه ابداء الراي فيما ذهب اليه الشيخ امين فكتب على صفحات الاخبار ردا عنوانه « دعوى في الميزان » قال فيه : « ما رايت احداً يأخذ الشيخ أمين الخولي مأخذ الجد فيما يدعيه لنفسه وما يدعيه على غيره بل ما عرفت انسانا يتعالم على الناس وهو احوج منه الى ان يتعلم مما يتعالم عليهم ، وليس أضيع من كلام يذهب في مناقشة صاحب دعوى يحسب أن اللياقة تسمح له ان يقدم كتابا فلا تكون مقدمته الا عرضا رخيصا قصاراه أن يقول فيه : هذه هي الترجمة والا فلا . . فاقرأوني ولا تقرأوا احداً سواي !

وليس أضيع من كلام يقال لمن يدعى أنه هو وحده قد اختصه الله بحق الكتابة في العلم والتاريخ والادب رخصة من عنده بالمشاركة في فضلات هذا الحق فعلى شرط واحد وهو استثناء من يسمى عباس العقاد بعد ان جرده من كل قدرة على كتابة الكتب حتى العنوان والغلاف .

فاذا تناولنا أول حبات الموضوعية فعلامة ألتحقيق فيها أن هذا الموضوعي الوحيد يقرأ الكتاب ويلغيه وهو لا يفهم موضوعه .

فما كان موضوع العبقريات كما يدل عليه عنوانها الا دراسة نفسية ووصفا لصاحب العبقرية فان لم يستطع الناقد من العنوان ان يفهم الفرق بين وصف الملكات والأخلاق وبين سرد الأرقام والاخبار فقد يفهمه من الموضوع الذي بيناه وفصلناه وقلنا اننا نقصده ولا نقصد ما عداه .

وما قلناه وكررناه عن العبقريات يكفي لفهم الموضوع المقصود ولكنه مع هذا لم يكن بالتعريف الوحيد للترجمة كما نعنيها بل ذكرناه مرات قبل ذلك وسبقنا الى تقريره قبل العبقريات بأكثر من عشر سنوات حيث نقول في مقدمة كتابنا عن ابن الرومي : انها ترجمة وليست ترجمة لان الترجمة يغلب أن تكون قصة حياة ولان تكون ترجمة ابن الرومي صورة خير من أن تكون قصة .

وربما خلت العبقرية بجملتها من ذكر رقم من أرقام السنين بل ربما خلت من ذكر رقم السنة التي ولد فيها صاحب العبقرية او توفي فيها او حانت فيها وفاته بتاريخها المعروف وما من أحد يستطيع ان يزعم ـ ولو كان من طراز الشيخ الموضوعي ـ ان ذكر هذه السنين أمر يعجز عنه كاتب سيرة ولو كان من اجهل الجهلاء بين اصحاب الجزازات والفهارس والهوامش والعنعنات ، فهي متروكة لانها غير لازمة لجلاء الملكات والاخلاق وليست متروكة لانها منهج غير مستطاع من مناهج التأليف .

وهذه هي الحبة الأولى من المسبحة الطويلة :

والحبة الثانية لا تزال واقفة منا عند العنوان :

ان الناقد الموضوعي صاحب التمييز الدقيق الذي وهبه الله له وحرمنا نحن وحدنا منه على الخصوص .

صاحب التمييز هذا يتساءل لماذا يسمى بعض الكتب باسم العبقريات ويسمى بعضها الاخر باسم فلان في الميزان وكلهم جميعا في الميزان .

والناقد الموضوعي الذي يفوته التمييز بين العنوانين ينبغي أن يكف لسانه على الأقل عن التعالم على الاولين والآخرين ، كلهم جميعا ، باسم التمييز .

فالحكاية كلها جميعا أن العباقرة ومن هم في الميزان هم كلهم في الميزان .

نعم ولكنهم في الميزان ليسوا كلهم جميعا عباقرة .

أمفهوم هذا . . إن لم يكن مفهوما فالحق على المنهجية والموضوعية ولا علينا ولا على اسم العبقرية والميزانية .

وهبهم سواء بلا خلاف كثير ولا قليل فمن أين للتاريخ ان يحرم على المؤلف تنويع العناوين بين كتاب وكتاب ولو كانت كلها عبقريات وكلها موازين ؟

اما الحبة الثالثة من المسبحة الالفية فلا تنتقل بنا من صفحة الغلاف لانها تلغي العبقرية كلها جميعا اكراما لصورة عليه . ومما يسقط العبقرية كلها جميعا أن يتحلى الغلاف بصورة علي بن ابي طالب على ظهر فرس شاكي السلاح ، وقد كان راجلا خيراً منه فارساً كما جاء في رواية ابي حيان .

ولقد ظهرت من عبقرية الامام ثلاث طبعات قبل طبعة الصورة فهل كانت العبقرية في طبعاتها الاولى موضوعية منهجية ثم جاءت صورة الغلاف على الطبعة الرابعة فخرجت بها عن الموضوع .

منهجياً يجوز . .

ومنهجيا ايضا يجوز أن يحسب على المؤلف عمل الفنان الذي يسند اليه الطابعون والناشرون تحضير الغلاف .

ولكن المنهجية ـ لسوء الحظ ـ مطية جامحة اصعب مراسا من كل فرس على كل غلاف ويوشك ان ترمي براكبها تحت قدميها وتنطلق بعنانها حين يرمي هو بهذا العنان بين يدي ابي حيان ومن أبو حيان هذا فيما يجهله الموضوعيون المحققون ؟

أبو حيان هذا هو الرجل الذي جعل همه تلفيق القصص على الامام علي بن ابي طالب وافتراء الاحاديث عنه ليوقع بها بين الطالبيين وهو مشهور بين أهل السنة والشيعة بأنه أكبر زنادقة الاسلام ويقول عنه عالم من فضلاء علماء الشيعة وهو ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة انه ملحد زنديق لفق حديث المفاضلة بين علي واخيه جعفر ليوقع بين الطالبيين .

فهل هناك حبة رابعة أو خامسة من حبات المسبحة الألفية لهذه التحقيقات « العلمية » في اسناد الروايات الى الرواة الثقات ؟

آخر الروايات في امر علي بن ابي طالب رواية يعتمدها ابو حيان .

وآخر الناقلين حقا في النقل عن ابي حيان من ينقله فلا يصيب ولا يفقه مرماه فحقيقة الخبر على خلاف ما نقله الناقد الناقل الامين ونص الخبر من كتاب الامتاع والمؤ انسة : ان عليا قال للمقداد اعطني فرسك اركبه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت تقاتل راجلا خير منك فارسا قال : فركبه ووتر قوسه ورمى فأصاب أذن الفرس فخرمه فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى أمسك على فيه فلما رأى علي ضحكه غضب فسل سيفه ثم شد على المشركين فقتل ثمانية قبل ان يرجع فقال علي . . لو أصابني شر من هذا كنت اهله حين يقول : انت تقاتل راجلا خير منك فارساً . . ويعقب العقاد على هذه الرواية قائلا :

« وكفى بهذه الرواية عن ضحك النبي في ذلك الموقف غن اضطراب معناها دليلا على قيمة الخبر في ذمة ابي حيان فانه على هذه الرواية يثبت ان عليا يقاتل فارسا فيقتل ثمانية في كرة واحدة وأدعى من الكلام عن ضحك النبي الشك في قيمة الخبر أن يقال ان عليا رضى الله عنه يعصيه ثم يقول عن قتله ثمانية من المشركين انه شر اصابه .

ولكن . . فليكن الخبر صحيحا على علاته ، فهل معنى ذلك ان عليا لم يكن فارسا وأن تصويره على ظهر فرس يهدم التاريخ ؟

لقد كانت وقائع صفين تشهد بفروسية علي وغلبته على انداده وكان في وقعة الجمل يواصل ركوب الفرس حتى يرفق على قربوس سرجه كما جاء في مروج الذهب ولئن صح ان النبي صلوات الله عليه نهاه عن خوض المعركة فارسا فقد نهاه بعد ذلك عن الخروج راجلاً لنزال عمرو بن ود ، فهل كلمة التاريخ في ذلك انه ليس بفارس ولا براجل ؟ وقد كان علي كرم الله وجهه يخلع درعه احيانا فهل كلمة التاريخ فيه انه كذلك ليس بدارع ولا صاحب عدة للقتال ؟

على أن المؤ رخ الذي يهمل أثر المترجم له في نفوس الناس غير جدير بكتابة التاريخ وقد كان أثر على الفارس في نفوس الناس ابلغ الآثار فكان السعدي شاعر قومه يسميه فارسا وهو يركب الدلدل بغلته الموروثة كما جاء في قصائد البستان الفارسي وقد ذكره حافظ في العمرية فسماه فارس عدنان :

ما كان غير أبي حفص بفوه بها   امام فارس عدنان وحاميها

وما كان لقب الفارس أولى بذي شجاعة من قاتل عمرو بن ود فارس الفرسان أو قائد خيل المسلمين الى اليمن وهو أول خيل لهم دخلت تلك البلاد ومن جاز أن يكون قائد حملة

الخيل وفيها خالد بن الوليد جاز أن يرسم على ظهر فرس في صفحة غلاف .

وبعد فلماذا نمسك بحبات المسبحة ولا نمسك بتلابيب الموضوع واقعيا منهجيا ذاتيا مع الشاهد الحي من شخص الشيخ أمين ؟

لقد رأينا الشيخ بخمسة أزياء في مدى شهرين اثنين : رأيناه يلبس الفيصلية والقميص المفتوح والسروال القصير ورأيناه يلبس الجبة على الياقة المنشاة وفي يده أساور النشا بالأزرار الذهبية ، ورأيناه يلبس الجلباب البلدي والصندل في قدميه ورأيناه يلبس الجاكتة والبنطلون عاري الراس او لابساً العمامة ورأيناه ورأيناه ورآه مثلنا الطلاب والأساتذة في الجامعة كما رأيناه .

فمن من هؤلاء هو الخولي العلمي التاريخي الموضوعي ومن منهم يبيح التاريخ وضع صورته على غلاف ترجمته ؟ ومن منهم تبطله كلمة التاريخ ؟

وتدخل في المعركة بين العقاد والشيخ الخولي القراء الى جانب جماعة الأمناء فكتب العقاد في يومياته بجريدة الاخبار بتاريخ ١٩/ ١٢/ ١٩٦٢ مقالا عنوانه « عبث لا يسكت عليه » فيه أشار الى الرسائل التي جاءته من القراء حول ما ورد في باب السياسة ومالك حيث يقول الشيخ أمين الخولي ما نقله العقاد بحرفه وكذلك الأمر مع الرشيد يوشك أن يشد فيتردد في اتيانه حينما دعاه وهو بالمدينة ثم يرضى ويأتيه اخيرا لكنه يشد في حديث السفرجل وهي الشنشنة الحمقاء من الحكام دائما اذ يحسبون انهم يطمسون الحقيقة ويمحون ما في الكتب وذلك ان حديث السفرجل هذا يذكر أنه اهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرجل فأعطى أصحابه واحدة واحدة وأعطى معاوية ثلاث سفرجلات وقال له : القنى بهن في الجنة . . وهو وجه من الفضل لمعاوية رأس الأمويين أعداء العباسيين . فلما جاء النبي مالكا تلا قوله تعالى « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ؟

ثم قال : والله لا خبرن بها في هذه العرضة حدثني نافع عن ابن عمر قال : « كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى اليه سفر جل الحديث .

انتهى كلام الشيخ امين الخولي سند الاسانيد ومعلم المؤ رخين .

انتهى كلام الشيخ في خبر من أخباره المحققة وأوجز ما يقال فيه انه مكذوب على كل من ذكر فيه مكذوب على الله وعلى النبي وعلى مالك وعلى هارون الرشيد وعلى نافع وعلى ابن عمر وعلى المذكورين والمحذوفين ممن ينسب اليه .

نعم كل من ذكر في هذا الخبر مكذوب عليه حتى الله جل وعلا وحتى النبي صلوات الله عليه .

(اولاً) حذف الشيخ امين جزءا في وسط الآية الكريمة التي نقلها وهو قوله تعالى « في الكتاب«بعد « ما بيناه للناس » .

وتمام الآية الكريمة بنصها هو : (ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

وإنما حذف هذا الجزء من الآية الكريمة وليس هو في نهاية الكلام لأنه لو ذكر كما جاء في القرآن الكريم لثبت افتراء الخبر على مالك رضي الله عنه لأن مالكا يعف عن الخلط بين الحديث والكتاب فلا يجترىء على جعل الحديث من الآيات المنزلة في القرآن .

وهذا هو الكذب على الله .

اما الكذب على النبي صلوات الله عليه فهو ثابت من الروايات الصحيحة جميعا وهو أثبت من ذلك بسند التاريخ الذي لا شك فيه .

فليس في روايات الحديث الصحيحة خبر عن هذه القصة بحذافيرها وجميع المصادر المعول عليها التي ألفها الثقات عن الأحاديث الموضوعة قد ذكرتها بين الاحاديث المكذوبة وعقب عليها بعضهم بلعن الكاذبين .

على أن كذب الخبر بالسند الذي لا شك فيه من التاريخ يغني عن النظر في اقوال الرواة الثقات وغير الثقات فان الخبر يروى عن جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه انه أهدى السفارج الى النبي صلوات الله عليه » .

والمعلوم علم اليقين أن جعفراً قتل في غزوة « مؤتة » في شهر جمادى الأولى ومعاوية بن أبي سفيان اسلم بعد فتح مكة في شهر رمضان فبين مقتل جعفر واسلام معاوية اكثر من خمسة شهور ، ولا محل بعد ذلك للسؤال عن صدق الرواة للاحاديث فان كذب الخبر بالتاريخ المحقق ثابت ثبوت اليقين الذي لا يحتمل الخلاف .

والشيخ أمين الخولي ـ الذي وضع التاريخ كله جميعا تحت حمايته ـ يحذف اسم جعفر من الخبر فيقول ان النبي اهدى اليه السفرجل بصيغة المجهول فلماذا يختزل اختزاله حتى في نقله للخبر المكذوب ؟ أيحذف الاسم هنا كما حذف الكلمتين من الآية الكريمة لان ذكر اسم جعفر قاطع في تكذيب ما رواه ؟

قال الشوكاني في كتاب « الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة » بعد ايراد ذلك الحديث المكذوب وجعفر قتل في مؤته ومعاوية انما أسلم عام الفتح فلعن الله الكاذبين .

اما الكذب على الامام مالك فشاهده الذي لا حاجة الى شاهد غيره ان موطا مالك خال من ذكره ومن الاشارة اليه » .

وشاهده الذي هو أقوى من كل شاهد آخر أن مالكا رضي الله عنه لا يجعل الحديث من الايات البينات المنزلة في القرآن الكريم .

ولا محل للافاضة في بيان الكذب على الخليفة هارون الرشيد الذي رماه الرجل الثبت المتحرج بالحماقة وهو يستند الى كل تلك الاباطيل فان مالكا رضي الله عنه لم يرو الحديث ولم يكن للرشيد من داع الى الحجر على روايته وليس الرشيد بالذي يجهل الخبر عن مقتل جعفر بن ابي طالب وهو على علمه وعلم عترته بتاريخ اهل البيت .

أما الكّذب على نافع وابن عمر فيكفي في اثباته ان الخبر لم يرد في موطأ مالك ولم يأت له ذكر في غير رواية يعيش بن هشام .

وعقب الشيخ أمين الخولي معلنا ان الكلمتين كتابة سقطتا من المطبعة ولم تسقطا من قلمه وهما :

(في الكتاب) في الآية الكريمة ١٥٩ من سورة البقرة : « الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس في الكتاب يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون .

وهنا كتب العقاد مقالا ساخنا لاذعا عن الشيخ امين الخولي عنوانه : « نطق دهرا وسكت قهرا » بتاريخ ٢/ ١/ ١٩٦٣ قال فيه : قضى الشيخ أمين الخولي نحو عشرين سنة يكتب ويشطب ثم يشطب ويكتب فيما يسمونه لقد اثاره ، وفيما يسميه تحليلا موضوعيا تارة اخرى ومداره كله على موضوعات الادب الغربي والثقافة العصرية أوجز ما يقال عنها اننا قرأنا فيها كتب النقد والتحليل اكثر مما يحفظ الشيخ امين من أبيات ألفية ابن مالك مع التواضع الكثير .

وكنّا نقرأ ما كتب وشطب ونسمع ببعضه ولانقرؤه ثم نشطبه جميعا ولا نرى فيه ما يحتمل المناقشة ولعلنا وغيرنا سواء في النظرة الى كل ما يكتبه الشيخ نقدا لموضوعات الادب الحديث ، هل رأيتم ذلك الريفي الذي يدخل المطعم مرة او مرتين وينطلق بعدها الى مجالس الحاضرة ليعلم الناس كيف يأكلون بالشوكة والسكين .

من لم يره فقد رأى الشيخ في نقده الموضوعي لتلك الموضوعات وعرف كل منهما حقه في المناقشة والتعليق .

ثم ألف الشيخ امين أو اعاد تأليف كتابه عن الامام مالك فقدم له بفصل طويل في الموضوع أو في النقد الموضوعي ولا مؤ اخذة . . وما هذا الموضوع يا ترى ؟ ليس مالكا ولا ابن مالك ولا هو ذلك ولا شبيه ذلك .

كلا . . لكنه هو الموضوع الذي خلاصته على لسان الشيخ امين : « انا الموصوع انا التاريخ ـ انا السند ـ أنا الموضوعية . . انا العلم . . انا العلماء . . أنا أنا أنا الامناء . . أنا كذلك وكل ذلك ولكن من هو العقاد موضوع المقدمة دون مالك واهل مالك . . هو بالايجاز ما ليس كذلك ؟

ولقد كان في وسع الشيخ امين ان يحمل شوكته وسكينه كما يشاء ليعلم بهما الحضريين السذج كيف يأكلون بل كيف يشربون الماء بالشوك والسكاكين .

كان في وسعه ذلك كله جميعا دون أن نحاسبه على لقمة واحدة غصب بها حلوق المساكين على هذه المائدة .

ولكننا سئلنا عما يخصنا منها وجاءنا السؤ ال ممن يستحقون الجواب وأجبنا وانكسرت الشوكة والسكين في يمين الشيخ أمين .

ولقد صاح التاريخ والموضوع والسند و« الأنا » المكررة مرات عداد الأسطر في الصفحات ولقد صاح معها « الأمناء » الذين يتعددون بعدد الاشكال والأزياء ولجوا في الصياح وهم يعلنون السكوت عن المباح وغير المباح .

ان اللامفهومية ـ على ما يظهر ـ مذهب « لبدنى » لمن يخرج عن كل موضوع في الكتابة الموضوعية .

فمن المفهوم ان يعتصم بالسكوت من تحرش به الناس وألحوا عليه بالحرش ليتكلم على كره منه فاذا سبق الى الكلام مرة بعد مرة قالها مرة واحدة ليعلن النية على السكوت الطويل أو القصير .

ولكن هذا غير مفهوم ممن يتصدى للكلام ويعيد الكلام ويعود الى الاعادة والناس معرضون عنه لا يتلفتون اليه فاذا تكلم دهرا ثم سكت قهرا فمعنى ذلك أنه قد عرف أخيرا ان الله حق وأن الكلام باطل لا يغنى عن الحق وان اعلم الخلق ومعلم الغرب والشرق

خليق أن يخفي الشوكة والسكين في موضع « موضوعي » امين .

ويعدد العقاد أخطاء الشيخ امين الخولي في هذا المقال الكبير مؤكدا أنه موفق أسوأ التوفيق لاثبات ما يؤخذ عليه من الخطأ والعبث والجهل .

عندئذ صمت الشيخ امين الخولي . . ولكنه لم يصمت طويلا . . فقد مات العقاد وغاب عن دنيانا فعاد الشيخ ليهاجمه بعد مماته في صورة نشر مقالات الرافعي عنه في مجلة الادب .

الدكتورة بنت الشاطىء :

معركة العقاد مع الدكتورة بنت الشاطىء (الدكتورة عائشة عبد الرحمن) من المعارك الهامة التي كان العقاد طرفا فيها . . وترجع أهمية هذه المعركة الى أن المفروض أن الطرف الاخر في هذه المعركة هي حواء نفسها . . تلك التي قيل عن العقاد انه ضدها أو عدوها وهو ما عارضناه على الصفحات السابقة[٢٣] .

لقد بدأت هذه المعركة بعد صدور كتاب « المرأة » في القرآن ، للعقاد فاستوقفت بعض فقرات من الكتاب الدكتورة بنت الشاطىء ومن هذه الفقرات ومنها . . الرجل يتزين ليعزز ارادته وتتزين المرأة لتعزز ارادة غيرها في طلبها .

الارادة التي تتمثل في العناد مؤنثة والارادة التي تتمثل في العزيمة مذكرة .

النظافة ليست هي من خصائص الانوثة لاتصالها بالزينة وحب الحظوة في اعين الجنس الآخر . . ولو لم تكن النظافة قيمة خلقية ـ مفروضة عليها باشراف الرجل على حياتها العامة وحياتها الخاصة ـ لكان استقلالها بنفسها وشيكا أن يضعها موضع الاهمال والاستثقال .

من ضلال الفهم أن يخطر على البال أنّ الحياء صفة انثوية وان النساء اشد استحياء من الرجال فالواقع كما لاحظ شوبنهور ـ ان المرأة لا تعرف الحياء بمعزل عن تلك الغريزة العامة وان الرجال يستحون حيث لا يستحي النساء فيستترون في الحمامات العامة . . ولا تستتر المرأة مع المرأة الا لعيب جسدي تواريه .

وهي ـ المرأة ـ تتقلب وتراوغ وترائي وتكذب وتحرف وتميل مع الهوى وتنسى في لحظة واحدة عشرة السنين الطوال .

---

(٢٣) راجع العقاد ناقدا ـ عبد الحي دياب .

وغيرها من الفقرات التي ولا شك استفزت المرأة عامة فتصرح الدكتورة بنت الشاطىء في حديث صحفي بعد ان كتبت مقالها الاول للرد على العقاد حيث تقول بعد أن هبت العاصفة وهبوب العاصفة هي حين يرد العقاد .

لقد علقت الدكتورة بنت الشاطىء قائلة :« انا لايعنيني شيء في رأي الاستاذ العقاد . . بل سلمت بما قاله في استئثار الرجل بالتفوق والبراعة في الفنون التي يظن أنها أنثوية كأستاذية الرقص واشباهها كل الذي يثيرني هو اتهامه للمرأة بالقذارة وأنها لولا اشراف الرجل عليها لما فكرت في النظافة وانه ينعى عليها أصالة الحياء والحنان » .

ومن الطبيعي ان يكون هناك رد من بنت الشاطىء فيه تدفع التهمة عن بنات جنسها ممن ظلمهن العقاد مع أن الكثيرات من المشهورات أو حتى غير المشهورات ممن يجدن القراءة لم يعلقن على كتاب العقاد بعد قراءته بأكثر من عبارة واحدة : بقى يصح العقاد يقول كده ؟

وهكذا ترجمت الدكتورة بنت الشاطىء غضبها وغضب الباقيات في مقالة ظهرت في رمضان بالاهرام عنوانها « اللهم اني صائمة » اتبعته بمقالين آخرين .

والسؤال : أين مواقف الاخريات وخاصة المشهورات من تهمة تمس المرأة عامة ؟

يبدو ان المرأة في هذه المعركة اصيبت بعقدة جديدة اسمها العقاد ؟ وأهم مظاهرها الهرب أو الخوف أو الارتعاش عند الرد على رأى من آرائه وهي عقدة لم يذكرها العقاد في كتابه هذا ولنعد الى صحف الايام التي ثارت فيها هذه المعارك لنتبين مواقف المرأة من هذه القضية .

الدكتورة سهير القلماوي يتضح موقفها من حديثها مع الدكتورة بنت الشاطىء حيث تقول لها : يا عائشة خليك بعيدا أسلم .

امينة السعيد رئيسة تحرير حواء تعتذر وبشدة .

الدكتورة منيرة حلمي تعارض الكتاب لكنها تنسحب قائلة اعفوني من الرد . . أنا عندي أبحاث .

الدكتورة لطيفة الزيات تعد بالرد بعد يومين . . لكن بعد اليومين تنسحب قائلة : معليش انا والنبي أصل العقاد . . . . » .

صوفي عبد الله تهرب من الرد على ما جاء في هذا الكتاب حيث تقول انها عارضت من قبل ما جاء في كتاب عن المرأة للعقاد باسم « هذه الشجرة » ومع احترامي الشديد لأستاذي الكبير لم أزل عند رأيي هذا وهو أنه لا يمكن القطع بوجه عام على الجنس بأكمله . . وكفاية بقى ؟

والاذاعية النابهة آمال فهمي تعلن انها ستكتب «حتة رد لانها قرأت الكتاب وقالت ده القرآن بيقول « وللرجال عليهن درجة » الا أن العقاد عملهم الف درجة . . على فكرة اتصلوا بي بكرة فسوف أعد هذا الرد . . وبالطبع بكره هذا لم يأت بعد فقد اختفت امال في ظروف غامضة . »

وحتى فاتن حمامة وعدت بأنها ستقرأ الكتاب بعناية واهتمام لانها لازم ترد . . فهذا كلام لا يحسن السكوت عليه . لكن عند الرد تقول فاتن : لا يا خويا . . أكتب في موضوع تاني . . اصل العقاد لسانه طويل .

ولبنى عبد العزيز توصد ابوابا كثيرة حيث تبدأ ردها : اعذروني انا لم اقرا الكتاب ولكنها تتساءل بعد متابعتها للمعركة الدائرة حول الكتاب : « لماذا يحكم العقاد بتفوق الرجل على المرأة ؟ ولماذا يعتقد ان الجولة قد انتهت لصالح الرجل ؟ ولماذا لا ينتظر العقاد عشرين قرنا ويحكم بعدها من هو المخلوق المتفوق الرجل ام المرأة »

ولم يبق في الميدان ـ اذن ـ غير الدكتورة بنت الشاطىء التي يثيرها اكثر وأكثر حديث العقاد على صفحات احدى مجلات دار الهلال حيث سئل عما كتبته بنت الشاطىء فأجاب العقاد بسخرية لاذعة :

ان كاتبة المقال لا اضعها في عالم النساء ولا في عالم الرجال وانها ـ أي بنت الشاطىء ـ مثله الوحيد على تناقض المرأة

فعقبت على كلام العقاد وعابت عليه أن يقول للمحرر ان رأيه هو رأي الطبيعة ورأي الخالق وقالت انه لا يصح أن ينسب الرأي إلى الخالق .

ويتجاهل العقاد تعقيب بنت الشاطىء حتى أرسل له احد قرائه سؤالا على صفحات اليوميات يسأله فيما نقلته عنه الدكتورة بنت الشاطىء وتعليله المقنع وتفسيره فأجابه قائلا : ان السيدة التي يسألنا الطالب النجيب عن تعليقها تستند الى قول رجل مبشر ـ أعجمي لتتخذ منه حجة في اللغة والدين وكلاهما بمنزلة واحدة من العلم بما يكتبان فيه .

والرأي هو مصدر رأى سواء بمعنى البعد وبمعنى الحكم والتقدير وقد جاء في القرآن الكريم ان الله تعالى يرى بكل معنى هذه الكلمة .

يرونهم مثليهم رأي العين

قد نرى تقلب وجهك في السماء

انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا .

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون .

والمعلوم لكل قارىء يفهم معنى القران الكريم ان كل كلمة تنسب الى الخالق لها تفسير غير تفسيرها بالنسبة الى المخلوق وكذلك نفهم الوجه والعين واليد ونفهم المكر حين ينسب الى الله في قوله تعالى : ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ، او قوله تعالى : ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون .

فليس بالممتنع اذن أن ينسب الرأي الى الله بمعنى البصر أو بمعنى الحكم والتقدير أو بكل معنى من المعاني نفهمه على الوجه الذي يناسب مقام الخالق وان ورد في واحدة منسوبا الى الله والى الرسل والى المؤمنين وليسوا في الرأي على اي معنى من المعاني سوء .

ولولا ان السيدة التي يشير اليها الطالب النجيب مسلطه على نفسها لما انساقت مرة بعد مرة الى هذه اللجاجة التي علم من يقرأونها حقيقة ما تنطوي عليه ولم يبق أحد ولا واحدة يفهم انها مناقشة بريئة تتحرى مواقع الصواب والموافقة كما تتحرى مواقع الخطأ والانتقاد وانها لتسيء الى نفسها والى المرأة فيما تزعمه من الدفاع عنها فقد كادت -وهي تثور على الحجاب- ان تقنع الناس بأنها في حاجة الى برقع لعقلها يستر ما لا يحسن كشفه من الأخطاء وعيوب التفكير وقد كانت المشكلة كلها من قبل في براقع الوجوه .

وعقب ذلك المقال تلقى العقاد رسالة اخرى من احد قراء يومياته يسأله ان يزيده ايضاحا عما ينسب الى الله من الصفات يقول السائل في رسالته للعقاد :

« فهمنا من كلام الست بنت الشاطىء انها تدرس تفسير القرآن لطلبة المعاهد العالية فان لم يكن بيانكم لمعاني القران اهتماما بالست المذكورة فمن الواجب ان يكون اهتماما باولئك الطلبة ولا اخفي عنكم ان نسبة الوجه واليد الى الله غير نسبة الرأي والمكر لان تفسيرها - مجازاً - قريب الى الذهن فهل لنا أن ننتظر منكم بياناً في موضوع الألفاظ التي تذكر في وصف الخالق ويجوز في الوقت نفسه ان تذكر في وصف المخلوقات » .

ويومها أجاب العقاد سائله بقوله :

« لا نرى رأي السيد ».. في التفرقة بين نسبة الوجه واليد الى الله ونسبة الرأي والمكر اليه سبحانه لان المعنى في جميع هذه الكلمات ينتهي الى تنزيه الخالق عن مشابهة المخلوق في كل صفة تنسب الى الله والى العباد فلا مشابهة بين رأي الآله ورأي الرسول ورأي المؤمنين ورأي غير المؤمنين ولكن الرأي قد ورد في القران الكريم منسوبا إلى الله والى عباده في قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » وورد كذلك منسوبا الى الله والى المشركين في قوله تعالى : « انهم يرونه بعيدا و نراه قريباولا مشابهة بين حقيقه الرأي في جميع هذه الحالات . وما دامت المسألة على « راي » صاحب الرسالة مسألة انقاذ لعقول الطلبة او القراء فنحن نسوق اليهم مثلا تمتنع فيه كل مماراة ويتضح منه كل الوضوح ان الكلمة متى نسبت الى الله وجب ان يكون لها معنى غير معناها المنسوب الى المخلوقات فالله جل شانه يقول في كتابه المبين : « قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ».

وفي الكتاب المبين ايضا قوله تعالى :

« فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء ربهم هذا » « نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون » .

« فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم »

« وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ».

فهذه صفة واحدة هي صفة النسيان ينفيها القرآن الكريم عن الخالق جل شأنه لانه لا يضل ولا ينسى ولكنها تذكر في مواضع اخرى من الكتاب - فيجب علينا فهمها بالمعنى الذي يخالف صفة النسيان حين تعرض للعباد وهو نسيان المنافقين بمعنى الاهمال والهوان وفوات الرحمة والرضوان ».

ولعل « الست » مفسرة القرآن لم تنس هذا التفسير وهي تستمد العلم الغزير من الاب « لامنسي » واخوانه وشركائه الاقطاب العارفين باللغة والكتاب .

وانتهت المعركة مع العقاد بأن لاذت الدكتورة بنت الشاطىء بالصمت والتزم الأمناء السكوت .

الدكتور محمد مندور

الخلاف بين العقاد والدكتور محمد مندور كان متوقعا فكلا الاثنين جبلت عقليته على حب المعارك وكانت البداية حين قرأ الدكتور محمد مندور كتاب « المطالعات في الكتب والحياة » بعد عودته من باريس عام ١٩٤٣ . ذلك الكتاب الذي شمل مقالات كان قد نشرها العقاد في البلاغ عام ١٩٢٣ وجمعها في كتاب صدر عام ١٩٢٤ وكان قد أشار في بعض هذه المقالات الى ولع المتنبي بالتصغير حيث أقام علاقة نفسية بين تصغير المتنبي وتكبره .

ثم يعود الدكتور مندور الى نقد العقاد ومنهجه وكان السبب [٢] في هذه المرة هو ما كتبه العقاد عن رسالة الغفران لابي العلاء المعري فيكتب مقالا بعنوان « ابو العلاء والنقاد » يقول فيه : « فها هو الاستاذ العقاد يقحم النظريات الفلسفية التي تقوم كمذاهب ذات أسس نظرية عميقة شاملة في ميدان الأدب فيكتب فصولا طويلة ليدلل على أن أبا العلاء قال بالاشتراكية او ببقاء الأصلح وما الى ذلك مما قد يدل على براعة الناقد ولكنه لا يعني شيئا من فهمنا لنفسية أبي العلاء ومأساته التي صدر عنها في كل ما كتب من شعر احساس او فكرة » . وقال الدكتور مندور في مقاله هذا . . والعقاد يبدأ فيؤكد فيما يعلم ان فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبقه اليها أحد غير لوسيان في محاوراته في الأولمب والهاوية وهذا قول عجيب يدخل في سلسلة تأكيدات الاستاذ العقاد التي لا حصر لها في كل ما كتب والتي كثيراً ما تدهشنا لجرأتها ففكرة الرحلة الى العالم الاخر قديمة قدم الانسانية عرفها اليونان قبل لوسيان وعرفها العرب قبل ابي العلاء .

ويعقب العقاد على ما كتبه الدكتور محمد مندور في مقال كتبه في مجلة الرسالة عنوانه « مساجلات ردا على مندور » فيه يذكر فقرات من مقال الدكتور مندور ثم يرد عليها معلقا حتى يقول مخاطبا الدكتور مندور فيما كتب قائلا : لا يا شيخ .

العالم الاخر قديم قبل لوسيان والجنة والنار قديمتان قبل أبي العلاء .

سبحان الله أكنا نظن غير هذا . .أكنا نظن أن الجنة والنار خلقتا بعد المعري بثلاث أو أربع سنوات وأن لوسيان ظهر على الارض فظهر معه الجحيم السفلي الذي تحدث به اليونان .

---

(٢٤) ارجع معارك العقاد الادبية ـ عامر العقاد ، العقاد ناقدا ـ عبد الحي دياب

أما وصاحبنا المدهوش من جرأتنا يؤكد لنا ان الأمر على غير ذلك فلنرجع اذن عن توكيداتنا الجريئة ولنعلن التوبة بين يديه لنقول له : صحيح صحيح والله . . الجنة والنار كانتا معروفتين قبل أبي العلاء والعالم السفلي كان معروفا قبل لوسيان . . ولندن . . لندن . . نعم لاجل خاطرك كانت موجودة قبل رحلات المسافرين اليها وكذلك والله باريس وكذلك والله القاهرة وكذلك والله الهند والصين وبلاد تركب الافيال او بلاد تمشي على الارض ولا تركب حتى النعال .

أفادك الله يا مولانا الذي يتربع على الكرسي العريض لينكر على المساكين من أمثالنا توكيداتهم الجريئة ويعلمهم كيف تكون التوكيدات من آخر طراز .

وأي توكيدات ؟

توكيداته التي لا جرأة فيها هي أننا نحن المساكين ، أو أن أحدا من خلق الله اجمعين يجهل ان أبا العلاء قد تكلم عن شيء معروف حين تكلم عن الجنة والنار وأن لوسيان لم يكن أول من سمع بالعالم السفلي بين قدماء اليونان .

فنحن بعد الاستئذان في قليل من الجرأة التي يدهش لها صاحبنا نجترىء مرة أخرى فنقول له : اننا لم نجهل معرفة الناس بالجنة والنار وهبوط الملائكة وصعود الشياطين قبل أبي العلاء وان أحدا من القارئين لم يجهل هذا ولا يحسن بأحد أن يرمي أحدا بجهله فهذا تحصيل حاصل مفروغ منه وليس أدعى الى الدهشة من مجازف يجترىء على توكيده ولكننا إذا تكلمنا عن الآثار الادبية التي تتخذ من الرحلة بين الجنة والنار موضوعا لها فهذا كلام آخر يجمل به أن يصغي اليه واذا جمعنا بين المعري ولوسيان في هذا الصدد فذلك مبحث يصح النظر فيه والاستفادة منه أما أن يتربع متربع على كرسي الفتاوى ليحدث قراءه بوجود السماء والارض والملائكة والشياطين قبل الكتابة عنهم بالرحلة اليهم او بوجود لندن وبرلين قبل كتب السياحة والرحالين فلا يستغرب أن يجترىء بعض القراء ويا له من اجتراء فيزحزح له كرسيه قليلا إلى الوراء بل لا نظن أن القارىء يكتفي بزحزحة الكرسي قليلا الى الوراء اذا كان ممن يعلمون ان « العقاد » قد سبق الى كتابة هذا فقال قبل عشرين سنة عن رحلة أبي العلاء : « اي شيء من هذه الاشياء لم يكن من قبل هذا معروفا موصوفا ؟ وأي خبر من أخبار الجنة المذكورة لم يكن في عصر معروفاً للناس مألوفا ؟ كل أولئك كان عندهم من حقائق الاخبار ووقائع العيان .

ثم قال : « فهي رحلة قديمة كما قلنا ولكنه أعادها علينا كأنه قد خطا خطواتها بقدميه

وروى لنا أحاديثها كأنما هو الذي ابتدعها اول مرة .

ومن يدري ؟ فقد يكون من اجتراء العقاد أنه اختلس هذه الحقيقة قبل عشرين سنة ولم ينتظر الاذن قبل اجترائه على الاختلاس والادعاء .

ثم يواصل العقاد رده على مندور فيقول في سخرية لاذعة :

ولا شك أن « المندورين » في هذا البلد كثيرون مع اختلاف في الأسماء والعناوين . . فمنهم ذلك الذي تسمى في احدى المجلات باسم « مصطفى » ليستر ما في مقاله من سوء النية وهو يتكلم عن النبي العربي ويتميز غيظا لاننا عرضنا لتعدد زوجات النبي في كتابنا عبقرية محمد « فرددنا أسبابه الى مصلحة الدعوة الاسلامية ولم نتخذ منه ذريعة لتلويث السمعة كما فعل المتعصبون من المبشرين والمستشرقين » .

ويرد الدكتور مندور على العقاد في مقال عنوانه « مساجلات جورجياس المصري » قال فيه : كتب الاستاذ العقاد في العدد ٤٦٧ من الرسالة تحت عنوان مساجلات يقول (نبهت الى كلمة لاديب يكتب في الثقافة بتوقيع محمد مندور قال فيها عني بصدد الكلام عن أبي العلاء ورسالة الغفران .

وانا أحمد الله اذ تنبه الأستاذ الى كلمة محمد مندور هذا فالعقاد رجل لديه ما يشغله عن الثقافة وعن محمد مندور وهو منهمك في قراءة امهات كتب الادب فوجد فيها ان فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة الى العالم الاخر لم يسبقه اليها احد غير لوسيان في محاوراته ، فأنى له بقراء الثقافة وما هي بشيء الى جوار عيون الادب ومن هو محمد مندور ليقرأ له وهو مأخوذ بسحر لوسيان .

وفي عام ١٩٥٩ كتب الدكتور محمد مندور سلسلة مقالات في مجلة « المجلة » عن العقاد تعرض في احداها لدراسات العقاد الادبية وكيف أنها تنصب أولا وقبل كل شيء على التعليل والتفسير اكثر من انصبابها على التقويم والنظر في القيم الجمالية ومن ناحية اخرى ذهب الدكتور محمد مندور الى ان العقاد اختار لدراساته الادبية الشعراء الذين تنطبق عليهم فلسفته الادبية العامة المتصلة بفلسفته في الحياة وذلك لأنه اختار من بين شعراء العرب القدماء ابا نواس والمتنبي وابا العلاء وابن الرومي وهؤلاء الشعراء الاربعة في تصور الدكتور مندور دوو اصالة فردية تتضح شخصياتهم في شعرهم وليسوا من الغارقين في عمود الشعر العربي وقوالبه التقليدية .

وفي عام ١٩٦١ عاب الدكتور محمد مندور على العقاد استخدامه المنهج النفسي في دراساته الادبية والنقدية ويرد العقاد بان تفضيله للمنهج النفسي ناشىء عن انه يحيط بالمناهج كلها في جميع مزاياها وينفي ان يكون من اتباع مدرسة فرويد وتلاميذه في الدراسات النفسية كما ينفي أنه لم يقل يوما أن التحليلات النفسية هي غرضه من دراسة نفوس الشعراء ،ولكنه أثبت أن نفس الشاعر هي التي يرجع اليها حين تلتمس الفوارق التي لا تفسرها البيئة الاجتماعية وهي واحدة حيث يختلف العشرات بل المئات من الشعراء وانه.لم يكتب عن شاعر واحد من غير ان يحيط الكلام عليه بالبحوث المطولة عن احوال عصره وعن معنى ظاهرته الادبية من الوجهة الاجتماعية .

وكان يمكن ان تتوقف المعارك بين العقاد والدكتور محمد مندور الا انها عادت من جديد بعد أن اعلن الدكتور مندور في ندوة اقامتها وزارة الثقافة بمناسبة معرض الكتاب الدولي عام ١٩٦٣ حيث رد على سؤال حول الفرق بين مدرسته النقدية ومدرسة العقاد وقال ان مدرسة العقاد تأخذ بمنهج التفسير النفسي للاديب على حين أنه اي - الدكتور مندور - يرى للادب قيما جمالية اخرى تنأى به عن النزول الى مستوى ذلك التفسير النفسي .

وبديهي ان يستفز هذا الحديث المنقول عن الدكتور محمد مندور . . العقاد فيرد في مقال كتبه بجريدة الاخبار بتاريخ ٢٠/ ١١/ ١٩٦٣ يبدؤه بقوله : « نحن نعرف من أسئلة الطالب الأديب انه جيد الفهم لما يسمع وأنه بحسن السؤال يجاب عنه ولكننا نقدر على سبيل الظن ان الكلام الذي رواه عن الدكتور محمد مندور فيقول بمعناه الغالب دون الفاظه وكلماته لان المسألة هنا ليست مسألة صواب او خطأ يقع فيه الدكتور مندور ولكنها مسألة وجود او عدم او مسألة كائن حقيقي في عالم الواقع او خرافة لا تتفق صفاتها وصفات الموجودات اذ كان الانسان الذي يتصدى لرسالة النقد الادبي ويجهل أثر النفس على العقول وصاحبنا في صور الجهال ومذاهب الخيال مخلوقا وهميا لا تصدقه العقول وصاحبنا المندور بحمد الله الذي يحمد على كل شيء مساحة ثابتة في الفراغ قابلة للتصديق على الأقل بشهود العيان .

ويستطرد العقاد في مقاله هذا مؤكدا قيمة الدراسات النفسية ليس في النقد والادب والتعبير بوجه عام وانما ايضا في مجالات الاعمال الصناعية والشئون المادية بوجه عام وينهي مقاله موجها كلامه للقراء : ولينحدر الدكتور المندور او يرتفع ولينزل المندور او يطلع وليشرق حيث يحب ويهوي او يغرب او يستغرب وليكن حيث كان فيما يحسبه على هواه في عليين .

إننا لراضون أن نقيم حيث نحن مقيمون لأن مكانا لا محل فيه للنفس الانسانية ولا للقيم النفسية نحسبه نحن أسفل سافلين ولا الضالين . . آمين آمين .

ويهاجم الدكتور مندور آراء العقاد مرة اخرى في الشعر الحر مؤ يدا من يدعون اليه وهنا خرج بمقال بجريدة الاخبار بتاريخ ١٩٦٣/١٢/٤ عنوانه « شيخ النقاد . . هل ولد ؟ اسألوه بدأه بقوله : « شيخ النقاد ـ بلا قافية ـ ينسى دروس صباه . . يا ولداه .

وشيخ النقاد ـ بشهادته لنفسه ـ هو الدكتور المندور .

ودروس صباه التي ينساها هي دروس كثيرة جدا نستعيد منها في هذه اليوميات درسا واحدا صغيرا كان موضوعه التصغير في شعر المتنبي شاعر العربية الكبير .

وبلا قافية ليست من مخترعاتنا نحن ولكنها هي مذهب الشيخ المندور ـ شيخ النقاد ـ بعد دعوته الى الشعر الذي يكون شعرا ويسمى شعرا ويلغى الشعر كله بلا وزن ولا قافية . . ولماذا لا يسمى نثرا ونخلص من القاء الاوزان والقوافي ؟ هكذا والسلام على عهدة المشايخ الكرام » .

ويعلل العقاد في مقاله هذا اتجاهات هذه الطائفة التي ينتمي ويدعو اليها الدكتور مندور بأنها طائفة من : يسمون أنفسهم اليوم بأدباء الشباب ففي الصبغة الحمراء تفسير لما يعلنون ويضمرون وفي غير ذلك من العلل تفسيرات اخرى تتفرع إلى فروع شتى يبرز بينها أصحاب الدجل الديني وأصحاب الدجل الحزبي وأصحاب الدجل من كل طائفة تعرضت للحملة عليها من كاتب هذه السطور وتتخللهم جميعا طائفة المغرورين بالألقاب المدرسية وليس عندهم من محصول الثقافة غير الغرور والقشور .

ولقد كان مسلكنا مع هؤلاء المتربصين بنا على الواهم الكثيرة أن نعرض عنهم ونتركهم يهدمون ما استطاعوا ليعلموا بعد حين أن الغبار الذي يثيرونه انما هو أنقاضهم المزيلة تتهاوى فوق رؤوسهم وتتساقط تحت أقدامنا دون أن تحوجنا بعد ذلك حتى الى الطلاء لتلميع الحذاء فما أصبنا أحداً منهم إلا أن يكون في كلامه موضوع سؤال نتلقاه من اصدقائنا القراء ويومئذ نعرض له بالبيان الضروري لانه حق للقارىء على كاتبه الذي يحرص على تمحيص آرائه بين الموافقين لها والمعترضين عليها .

وكان شيخ النقاد في تلك الايام من صبيان النقد بلا قافية . . قبل ثلاثين سنة .

وكان همه في هذه السنين تتبع جميع ما نقوله بالانكار والتسفيه في الجملة والتفصيل كأنما

خلقنا الله معجزة اخرى من معجزات الخلق في هذه الدنيا وهي معجزة العصمة من الصواب ولعلها اندر من معجزات النبوة التي تتصف بالعصمة من الاخطاء .

كل ما نقوله خطأ ، وكل ما يكتبه شيخ النقاد اليوم ضبي الامس بلا قافية تصريح او غمز بالاعادة والابداء في « تسفيه كل ما نقول ». ويختم العقاد مقاله قائلا : « انها لباقة يا شيخ .. لكنها لباقة في زعبوط ، ولم يتغير لون فروه الاصيل ، ومن ذا يغفل عن ذلك الزعبوط المعتبر حتى يبحث عن الطرفين المتهمين ، ومن بينهما البادىء في كلمته ، ومن هو المجيب بعد اعراض سؤ ال ».

ويرد الدكتور محمد مندور على هجوم العقاد .. في جريدة الجمهورية في عددها الصادر في ١٩٦٣/١٢/١٢ يـ ـ ان وصلته رسالة من احد القراء الادباء فيها يحتج على ما كتبه العقاد بجريدة الاخبار ـت عنوان « شيخ النقاد هل ولد »؟ وهذا نص رد الدكتور محمد مندور .

جاءني من الاديب السعيد بيومي الورقى بجامعة الاسكندرية خطاب يخبرني فيه انه كتب الى الاستاذ عباس محمود العقاد خطابا يستنكر فيه الاسلوب الذي يستخدمه في مناقشاته الازلية معي ومع غيري من قبل ومن بعد ، ويضيف هذا الأديب انني قد استخدمت أيضا هذا الأسلوب في ردي الاخير على العقاد .. وبالطبع اهمل العقاد كما لاحظ الورقى هذه الرسالة لانه لا يرد الا على رسائل الحواريين وذلك بالرغم من أن رسالة الورقي الضافية التي جاءت تنم عن نضج واتزان وتحر للحق ، وتدعو الى الموضوعية في المناقشات الادبية والفنية المثمرة .

وردي على الاديب السائل هو انني لم استخدم اسلوب العقاد في المناقشة في المرة الاخيرة الا لانبهه الى انه من السهل أن تخاطبه بنفس الاسلوب ، وان يكن عشرات من القراء قد لاحظوا بحق ان ردي كان بالغ الرفق بل ولاحظ ذلك العقاد نفسه عندما عاد ففرش الصفحة الاخيرة من عدد الاربعاء الماضي في جريدة « الاخبار » لشيخ النقاد وهل ولد أم لم يولد ، بدعوى أن شيخ النقاد وهو بتعبير العقاد « بالشيخ المندور » الذي يجادل في الحقائق البديهية التي يقول بها العقاد ، وقد تجرأ منذ ربع قرن حتى اليوم على هذا الجدل وتلك هي الطامة الكبرى التي تدل على أن الشيخ المندور من بين من يسميهم العقاد بالمتربصين به ، ويدعوهم كما قال حرفيا أن يعلموا ان الغبار الذي يثيرونه حوله انما هو أنقاضهم الهزيلة تتهاوى فوق رؤ وسهم وتتساقط تحت اقدامه وعندما قرأت هذه العبارات

احسست لأول مرة بأهمية التحليل النفسي فهو وحده الذي يستطيع ان يعيننا على فهم مثل هذا الكلام عندما يصدر عن رجل جاوز سن الرشد منذ زمن طويل كالعملاق العقاد المعقود ، ومع ذلك ، فانني اتجاوز عن كل هذا لأنني لم ابلغ بعد سن الرشد او لا زلت في فترة الخطرفة .

لقد رددت على العقاد في رفق فوصف هذا الرفق بأنه لياقة تعلمها المندور في السنين الثلاثين الاخيرة ، ولكنها لياقة في زعبوط لم يتغير فيه لون فروه الاصيل » . . وأنا بالبداهة على استعداد تام لأن أتخلى عن تلك اللياقة التي لم ترق العملاق . ولكن يمنعني عن ذلك احساس شديد بمسؤ وليتي ازاء الجيل الذي نرجو أن يكون أحسن حظا منا واكثر موضوعية واسلس نفسا واسلم ضميرا وأرقى مستوى في اسلوب المناقشات الادبية والدينية الذي لا يجوز ان يتلف للود قضية بين من يتصدى لقيادة الفكر وتصفية الذوق ، وبخاصة وأنني كما قال العملاق بحق الناقد الاجتماعي العصري الصناعي المادي الذي لم يكتب حرفا واحدا في نقد المذهب الماركسي ، وانا بعد ذلك أحمد الله الذي مكن لثورتنا الشعبية من أن تنتصر وتحطم الاقطاع والرأسمالية المستغلة والانانية الفردية الجشعة التي لم يكتب ضدها العقاد العملاق حرفا واحدا . ولم أعد أخشى منذ نجاح هذه الثورة أن يتهمني العملاق وأمثاله او يشرفني بوصفي بأنني « الناقد الاجتماعي العصري الصناعي المادي وان كنت احتفظ لنفسي بحق مناقشة تهمته الاخرى التي تقول بأنني لم اكتب حرفا واحدا في نقد المذهب الماركسي ، فأنا الآخر استطيع ان أصطنع اسلوب دون كيشوت فأزعم انني بطول الدراسة والتأمل قد انتهيت الى آراء خاصة بي في كافة ميادين الفكر والاجتماع والسياسة ، ولكنني لا ارى داعيا لان اتحدث عن كل ذلك في مجال المناقشة حول مناهج النقد الادبي والا كنت مقتحما او متطفلا او مغرضا او مستعديا للسلطات على احد الزملاء وحاشاي أن افعل واذا كنت قد ناقشت دائماً ومنذ ربع قرن حتى اليوم كما يقول العقاد بحث الكثير من مغالطاته واقيسته الفاسدة ، لا ملاحقة له كما يتوهم ، بل بحثا عن الحق وخدمة للمجتمع والوطن والثقافة والفن ـ فانني لا ارى اي مبرر للتخلي اليوم عن هذه الخطة ، وبخاصة بعد أن جاوزت انا الاخر سن الرشد . لكل هذا لا ارى بداً من ان اقبض على ما ساقه العملاق في الصفة التي فرشها لي اخيراً على كل ما جاء فيها من مغالطات متعمدة او غير متعمدة .

ولذا كان العملاق قد راح يبحث في الدفاتر القديمة عن عدد كبير من جزئيات خلافي معه كقضية تفسيره كثرة استخدام المتنبي لصيغة التصغير في الهجاء وغيرها فانني اترك امثال

هذه التفصيلات للتاريخ ومن سيبحثون عنه لأكتفي بالمغالطات الكبيرة التي جددها العملاق او اخترعها اخيرا مثل قوله « وان الهمس في الشعر آخر أساليب التعبيرعن ضوضاء الصناعة وثورات الاجتماع » فانا لم اقل ان من وظيفة الشعر مهموسا او غير مهموس التعبيرعن ضوضاء الصناعة ، فالشعر ايا كان لونه لا يمكن ان يتحول الى ضوضاء ، وانما هو تعبير عن النفس الانسانية وعن الوجدان الفردي والاجتماعي . فهدفي الحقيقي من الأسلوب الهامس هو الصدق الذي تتناجى به العقول والقلوب والارواح لا الضجيج والافتعال والكذب والنفاق او الصنعة الخاوية والطنطنة الجوفاء والصدق وهو السبيل السليم الى ثورات الاجتماع التي تبدأ بتهامس العقول والقلوب وصدق نجواها .

والمغالطة الثانية الكبيرة هي اتهام العملاق لنا بالقول بأن الوزن والقافية فضول في الشعر العربي فانا لم اقل يوما بان الوزن او الموسيقى فضول في الشعر العربي او غير العربي وعلى العكس من ذلك قلت للعقاد وجماعته ان الشعر الجديد الذي يهيجهم ليس خاليا من الموسيقى والا لخرج من مجال الشعر الى مجال النثر ، ولكن موسيقاه من نوع جديد يلوح أن العقاقدة عاجزون عن الاحساس بها لخروجها عما الفوه من موسيقى تقوم على جهارة الايقاع وصخبه قبل كل شيء وانا اتحدى جميع العقاقدة ان يدلوني على قول زعمت فيه ان موسيقى الشعر فضول سواء في كتبي او مقالاتي او محاضراتي .

وتبقى بعد ذلك المغالطة العظمى حول القضية التي جددت هياج العملاق ضد شيخ النقاد ، وهي قضية المنهج النفسي في دراسة الادب ونقده التي اثارها احد السائلين في الندوة التي عقدت لي بمعرض الكتاب العربي في القاهرة . فالعملاق يزعم انني قلت في ردي الاخيرعليه انني ارفض النزول الى مستوى الوثائق النفسية فحسب ، وذلك لكي يتخذ من هذه العبارة المحرفة مجالا لاتهامي بأنني أحتقر الدراسات النفسية وأعزض عنها وأترفع من أن انز ل الى مستواها .

مع ان كل هذا باطل وقبض الريح ومهاجمة لطواحين الهواء وذلك لسبب بسيط هو انني لم أقل ما زعمه العقاد بل قلت « انني أرفض أن انزل بالادب الى مستوى الوثائق النفسية فحسب » .

بمعنى انني لا اريد للناقد ان يقصر عمله ومنهجه على النظر الى النصوص الادبية كوثائق نفسية فحسب ، فهذا الموقف يقفه علماء النفس والباحثون في هذا العلم لان هذا هو صميم عملهم .

واما الناقد الادبي فلا ينبغي له ان يهمل دراسة القيم الجمالية والاجتماعية والاخلاقية في النصوص الادبية قاصرا عمله على استخدام تلك النصوص كوثائق نفسية يستنتج منها نفسية الاديب وما فيها من عقد او حالات خاصة ، كما يفعل العقاد وحواريوه في احيان كثيرة وهذا هو محور الخلاف بيني وبينه في منهج النقد الادبي فهو يريد ان يجعل من الادب ذيلا او تابعا لعلم النفس، بينما أزعم أنا ان الادب له قيمته الذاتية ولنقده ودراسته منهجهما الخاص المتميز عن غيره من مناهج العلوم . واذا كان العقاد يعز عليه ان يصدقني فانا احيله في تواضع على كتاب صغير ترجمته عن الفرنسية منذ ربع قرن تقريبا ونشر في بيروت بعنوان « منهج البحث في الادب واللغة » وهو يتضمن مقالين طويلين كتب احدهما استاذنا الناقد العالمي جوستاف لانسون عن منهج البحث في الادب وكتب الآخر عالم اللغات العالمي ايضا انطوان مييه عن منهج البحث في اللغة ولسوف يرى العملاق في مقال الاستاذ لانسون مدى غيرته على استقلال منهج البحث في الادب عن غيره من مناهج البحث في العلوم المختلفة ، وأصالة هذا المنهج . وان كنت اخشى أن يشن العملاق بعد ذلك هجوما دونكيشوتيا اخر على لانسون ايضا ، فليس ذلك بمستبعد عن عملاقنا الهمام وان كنت على ثقة من أن العقاد لن يستطيع فيما لو شن مثل هذا الهجوم على لانسون أن يشهر ضده سلاحا سياسيا مفلولاً كما حاول للاسف ان يفعل معي بينما أترفع أنا بحق عن هذا السلاح بالرغم من مضائه المؤكد فيما لو طاوعني ضميري على استخدامه ضد هذا العملاق الذي ارجو له رغم كل شيء ـ السلامة والعافية .

الدكتور عبد العظيم انيس ومحمود العالم

قد لا يستغرب القارىء اذا جمعنا اسمين في عنوان واحد . . إذا علم أنهما اشتركا في كتاب واحد في الثقافة المصرية تضمنت بعض صفحاته آراء في نظرة العقاد إلى الشعر فيذهب كل من الدكتور عبد العظيم انيس ومحمود امين العالم في كتابهما هذا الى أن الوحدة العضوية التي كانت في ذهن العقاد هي وحدة الموضوع،وحدة الخاطر،وحدة المعنى وحدة العنوان . . لا أكثر ولا أقل كما أن الوحدة الفنية عنده هي الوحدة المعنوية لا الوحدة العضوية .

واستدل الناقدان على عدم فهم العقاد لمعايير النقد الادبي وفي مقدمتها الوحدة العضوية بدراسة العقاد لابن الرومي فانه طالما تحدث عن الوحدة المعنوية وعن الوحدة الموضوعية ذاتها لسقطة فكرية سقطها العقاد اذ تصور أن فهمه للوحدة هو نفسه القول بالبنية الحية او

الوحدة العضوية للعمل الادبي كما أخذ الدكتور انيس والعالم على العقاد في أن دراسته لابن الرومي سطحية للغاية وأنها من خارج الشعر لا من داخل تراكيبه وعلاقاته الفنية على الرغم من أن ابن الرومي يتميز في بعض شعره بوحدة عضوية حقيقية تستطيع الدراسة الجادة أن تستقصيها عنده وعند بعض الشعراء وبخاصة شعراء العصر الجاهلي والشعراء الصعاليك .

ويرد العقاد على صفحات جريدة الاخبار بتاريخ ٢٧/ ٢/ ١٩٥٤ بمقال كبير عنوانه « اقرأوا ما تنقدونه » فيبدؤه قائلا : يعلم أصدقائي انني لا أحفل بالاقاويل التي تكتب عني في بعض الصحف وأنني قلما اتم قراءتها إذا بدأت فيها . .

ويستطرد العقاد في مقاله ساخراً : ماذا يقول القارىء إذا سمع أن كاتباً كتب تاريخ أحمد عرابي ليقول انه هو خديوي مصر الذي ثار عليه الفلاح محمد توفيق ؟

وماذا يقول القارىء اذا سمع أن كاتباً تصدى لنقد حكيم المعرة فزعم أنه رجل عربي قضى حياته في معاقرة الخمر وأكل لحم الخنزير ومطاردة النساء على قوارع الطرقات ؟

شيء من هذا بل أغرب من هذا قيل عن كاتب هذه السطور : وهو أنني جان على مذهب الأقدمين في نقد الشعر والأدب وأنني لا أفهم وحدة القصيدة ولا أصول البنية الحية في الكتابة وخير من الاستطراد في الحكاية عن هؤلاء القائلين أنقل هنا كلامهم كما قالوه . . قالوا ـ أفادهم الله ـ نجد هذا في الحكم النقدى وفي التعبير الأدبي نثره وشعره على السواء وكما كان نقاد العرب القدامي يعدون بيتا من الشعراء أبلغ ما قالته العرب وبيتاً آخر أهجى ما قالته العرب ، وبيتاً ثالثاً أمدح ما قالته العرب وإلى غير ذلك من أفعال التفضيل ولا يزال نقادنا وأدباؤ نا من المدرسة القديمة يحتفلون كذلك بهذا المعنى الواحد أو البيت المنفرد لما فيه من أسلوب رائق ومعنى شائق . .

فالعقاد مثلا يترنم بهذا البيت .

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

فلا نلبث ان نقرر انه يساوي عنده الف قصيدة . . لماذا . . ؟ لان العقاد مثله في ذلك مثل بقية ادبائنا القدامى ولا يهتم بالظاهرة الادبية في الوحدة العضوية المتكاملة للعمل الادبي وإنما في البيت ، في المعنى ، في النادرة اللطيفة في العبارة المفردة .

أعلمت أيها القارىء إذن ما هو مذهب العقاد ؟ مذهبه في الأدب هو ذلك الخلط الذي

قضى حياته ينحى عليه وينكره ويشرح عيوبه وسخافاته ثم لا يعدم اللاغطون بهذا اللغط المخجل صحيفة يومية تنشره لهم بالعناوين العريضة وتزعم لقرائها أنها تنشر عليهم بياناً جديداً عن الادب بين الصياغة والمضمون من عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم وهما ـ فيما علمت ـ أستاذان في مدارس ثانوية أو عالية . . ويا لخيبة الأدب والتعليم ان صح ما علمناه .

ويذكر العقاد آراءه في هذا المجال على فترات مختلفة تبدأ من عام ١٩٠٩ ثم عام ١٩٢١ ثم عام ١٩٢٨ ثم عام ١٩٣٠ ثم عام ١٩٤٧ حتى يصل إلى القول في نفس مقاله هذا : وقبل ربع قرن ـ أي قبل ان يعرف الأدعياء كيف يتهجون كلمة المجتمع كنا نكتب فنقول ان آفة الأدب المصري أنه يعيش بمعزل عن الأمة فما هو السر إذن ؟

ويجيب العقاد في مقاله : السر الذي لا يحتاج إلى بحث طويل أنها حملات لغير وجه الادب والأمانة الثقافية ، فلو كانت لوجه الأدب لكان كاتب هذه السطور خليقاً بالحمد والثناء ممن يقتدون بمذهبه بعد أربعين سنة من نشره وترديده وتوكيده وسواء كان هؤلاء الادعياء قد اطلعوا على مذهبه فتجاهلوه أم حملوا عليه دون أن يطلعوا عليه . . فالحقيقة الباقية في الحالتين أنه مقصود بالحملة لغير وجه الادب والأمانة الثقافية .

وقد فهمنا . .

نعم . . وقد فهمنا ولا حاجة بنا الى ذكاء خارق لنفهم ما وراء هذه الحملة أو هذه الحملات من أناس يترغمون بالخواجة إيليا أهرنبرج وأمثاله ويكتبون ذلك صريحاً بعد ما نقلناه من كلامهم فيقولون لو قارنا بين هذه الرواية ورواية العاصفة لايليا أهرنبرج لوجدنا فارقاً ضخماً في المضمون وفارقاً ضخماً في الصياغة كذلك فرواية أهرنبرج لاتصور واقعاً مريضاً متحللا بل معركة تتتابع عملياتها المتطورة من الكفاح المرير للقضاء على الأخطبوط النازي في أوروبا وما يواجه هذه العمليات من عقبات وصعاب إلى أن قالوا : « ولو قارنا بين اليوت وشاعر آخر هو ماياكوفسكي لوجدنا كذلك فارقاً ضخماً في المضمون والصياغة . . فماياكوفسكي فنان صائغ للشعر كذلك ولكنه يمجد الحضارة الصناعية الحديثة ويستبصر بالحركة الصاعدة للتاريخ . .

فمن هو أهرنبرج ؟ ومن هو ماياكوفسكي ؟

إهرنبرج يهودي روسي ألف رواية « العاصفة » لشفاء حزازة اليهود من ألمانيا النازية لا

لوجه الادب ولا لوجه الانسانية . . وجاراه الدعاة الشيوعيون في الحملة على المانيا يوم كانت تحاربهم ويحاربونها فلما دارت الدفة بعد الحرب العالمية وبدا لاولئك الدعاة ان يتقربوا من الألمان ويمهدوا لضمهم الى الحدود الحمراء أمروه بأن يؤلف في غير هذا الموضوع وحولوه الى الميدان الفرنسي فوضع روايته الجديدة بعنوان « الموجة الاخيرة » ليشيد فيها بهمة الشيوعيين الفرنسيين وينعى فيها على الجمهورية الذاهبة ما ينعاه أولئك الدعاة .

اما مایاکوفسكي فهو الشاعر الشيوعي الذي انتحر سنة ١٩٣٠ ولحق بزميله بسينى الذي انتحر قبله بخمس سنوات ، وأولهما لم يجاوز السابعة والثلاثين والثاني لم يجاوز الثلاثين . .

وهذا هو المثل الأعلى عند أصحابنا للشعر الحي في سبيل الحياة .

فإذا كان هذا هو الادب المطلوب منا فقد فهمنا وفهم الناس ووجب على هؤلاء الادعياء إن كان لهم نصيب من أمانة الثقافة ان يدعوا هذه المماحكة ويعلنوا الحقيقة ولا يضللوا بقرائهم فيخدعوهم باسم الادب وهم لم يطلعوا على حرف مما ينقدونه ويفترون الكذب على ذويه .

وختم العقاد يومذاك مقاله هذا موجهاً كلامه للدكتور طه حسين الذي وجه الناقدان اليه هذا البيان عند نشره فقال :

« وبعد ضبط هؤلاء الادعياء - ولا نقول مناقشتهم - يؤسفنا أن ننتقل من حديثهم تواً الى حديث مع الدكتور طه حسين ولا يسوغ عندنا هذه النقلة الا اننا نبلؤها بتعزية واجبة للدكتور حماه الله من السوء ووقاه فضول الدعوى والادعياء .

لقد نسينا ان هذين الامامين المجددين وجها البيان الى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين وليس في الدنيا مصيبة أحق بالتعزية من عمادة يبايع عليها هذان وما أشبه هذين » .

وانتهت المعركة بين العقاد وكل من الدكتور عبد العظيم انيس ومحمود أمين العالم .

* الدكتور رشاد رشدي :

موقف العقاد من الدكتور رشاد أستاذ الادب الانجليزي بكلية الآداب في جامعة القاهرة والكاتب المسرحي المعروف في ذلك الوقت يدل دلالة قاطعة على أن العقاد لم يكن مناصراً الا للحق . . فالمعروف ان الدكتور رشاد رشدي في عقيدته معتدل . . او بمعنى اوضح

ليس من اليساريين الذين يناصبون العقاد العداوة والمعروف ايضا انه رجل علم والعقاد كان يجل رجال العلم ويحترمهم واخيراً هو من طليعة المثقفين الذين ثقفوا ثقافة اجنبية ولهم دورهم المشكور في البناء الثقافي المعاصر .

يضاف الى كل هذا عامل جديد . . هو ان الدكتور رشاد رشدي وغيره من اساتذة الجامعة كانوا يجلون ويحترمون العقاد ويرون انه في طليعة الرواد الافذاذ . . بل وصل الامر بهم ان جماعة من هؤلاء الاساتذة كان بينهم الدكتور عبد الحميد يونس استاذ الادب العربي بكلية الاداب توجهت الى العقاد لتطلعه على مشروع كانوا قد اتفقوا عليه وهو منحه الدكتوراه الفخرية تقديراً لعلمه وثقافته ودوره في خدمة الثقافة المصرية .

إلا أن العقاد ـ وهنا يقص علينا الدكتور يونس ما حدث ـ رفض مشروعهم شاكراً هذا السعي اليه ووجه الحديث للدكتور يونس قائلا : ومن الذي يستطيع ان يمنح العقاد درجة الدكتوراه فرد الدكتور يونس قائلا عدد من اساتذة الجامعة . فقال له العقاد وهل هناك في الجامعة من يستطيع ان يراجع العقاد ؟ فرد الدكتور يونس ومن معه بالنفي . فقال العقاد اذن وجب الشكر لكم على هذا المسعى .

باختصار كان الاحترام متبادلا بين العقاد ورجال الجامعة . . لكن كرامة العقاد كانت لا تسمح أن يرى خطأ ويسكت عليه . . حتى لو كان من عالم واستاذ ومثقف هو الدكتور رشاد رشدي حين يدعو الى ان الكتابة لا تحتاج الى لغة والشعر لا يحتاج الى وزن او قافية . وانه ينبغي ان تكون اللهجة العامية وهي لهجة الكلام الطبيعية من الواجب ان تكون هي لغة الفن ولغة المسرح ولغة البيان .

عندئذ تصدى العقاد بالرد على الدكتور رشاد رشدي . . وكان في رده عنيفاً قاسياً فقد استفز الدكتور رشاد فيه نقطة التحدي . . فكتب مقالاً في الاخبار عنوانه « ما هذا العبط يا استاذ » .

بتاريخ ٢٣/ ٥/ ١٩٦٢ هذا نصه :

ايها الاديب لا تتعلم . . .

هذه ـ على ما يظهر ـ هي المفارقة العصرية في بلدنا الذي اشتهر قديماً بأنه بلد المفارقات ولم تنقطع هذه المفارقات منذ اكثر من خمسة وعشرين قرناً أو منذ القرن الخامس قبل الميلاد ـ وهو القرن الذي كتب فيه هيرودوت تاريخه ليقول عن هذا البلد انه بلد المفارقات أو بلد النقائض والاعاجيب .

وهذه المفارقة العصرية ـ مفارقة الادب بغير تعليم ـ هي مفارقة بلدنا على قول القائلين بالتجديد والاستعداد للادب بغير عدة غير بركة العجز . . وفيها الكفاية .

وموضع المفارقة في هذه الدعوة أنها تصدر عن الدكتور رشاد رشدي وهو من أناس ينتسبون الى الجامعات ويلقون الدروس على طلابها ، ويعلمونهم ان الكتابة لا تحتاج الى لغة وأن الشعر لا يحتاج الى وزن ، وأن القاعدة الذهبية في الدراسات الادبية هي إهمال كل قاعدة ذهبية بل كل قاعدة فضية أو نحاسية او قصديرية او طينية إذا وصل الأمر الى الطين . وقد وصل الى ما دون الطين بحمد الله رب العالمين . . .

فالمعهود في الدعوات الجامعية أنها هي دعوات (التعبئة العلمية) بمختلف الشروط والقواعد والأصول وبكل ضرب من ضروب الاستعداد والتحضير والاستيعاب .

أما بلدنا فهو والحمد لله عند شهرته القديمة بالمفارقات والتناقض والاعاجيب يعطينا ـ ولا يبالي علامة او علامتين أو ثلاثة علامات او علامين يقلبونها رأساً على عقب ولا يزالون يصيحون ثم يعيدون الصياح ثم يكررون الاعادة قائلين مرددين مجلدين ومهلدين ومرغين ومزبدين .

ما لك ولقواعد اللغة أيها الكاتب ؟ اليست أمامك اللغة العامية ؟ وما لك ولقواعد العروض والبلاغة أيها الشاعر ؟ اليس أمامك الشعر بلا قافية ولو بالعافية ؟

وما لك وما للدراسة الثقافية أيها الاديب ؟ اليست أمامك (الحدوتة تسميها قصة فنية أو تسميها بما تشاء من اسماء الفنون الخنفشارية ؟

ومن المألوف في كل دعوة جامعية ـ ولو من قبيل هذه الدعوة الخنفشارية أنها تتحلى بشيء من وقار الحذلقة يخيف السامع من بعيد ثم يرتفع عنه الخوف قليلا قليلاً كلما اقترب من بيت القصيد .

لكن هذه المفارقة العصرية لا تعتصم في دعواها بشيء غير بركة العجز الصريح أو بركة (العبط) الذي رفع الكلفة واستغنى عن التلميح . .

فلماذا نهمل الكتابة الفصيحة في القصة الفنية أو في الرواية المسرحية ؟

ان السبب الذي نسمعه من العلامة الفهامة الدكتور رشاد رشدي آخر ما يصدر عن علم وفهم في هذا الموضوع .

إنهم يقولون لك ان اللهجة العامية هي لهجة الكلام الطبيعية فمن الواجب إذن ان تكون هي لغة الفن ولغة المسرح ولغة البيان .

ما هذا العبط « يا استاذ » !؟

ومتى كان العمل الفني هو نقل الطبيعة كما تنقلها الآلة ؟ متى كانت الصورة الشمسية هي المثل الاعلى للتصوير أو للنحت في فنونكم التي تسمونها بالتشكيلية ؟

ان الفن ـ بغير عبط ـ هو التعبير عن الطبيعة وليس هو نقل الطبيعة فلو لم يكن للفنان عمل في التعبير عن شكله لما استحق ان يوجد ولا أن يوجد معه فنه لان الطبيعة تغنينا عنه وعن صورته في كل مخلوق نراه .

وأنت تلغو باسم شكسبير ، وخلفاء شكسبير وأسلاف شكسبير من الزمن الاول الى الزمن الاخير . فاذا كان في روايات شكسبير ألف متكلم ومتكلمة فمن منهم كان ينطق بتلك الألفاظ التي وضعها شكسبير على لسانه بل كم من هؤلاء الألف كان يعرف من اللغة الانجليزية كلمة واحدة يفهمها شكسبير ؟

كليوباترة المصرية ؟ جولييت الايطالية ؟ هملت الدنمركي ؟ يوليوس قيصر اللاتيني ؟ تيموف الاثيني؟ عفاريت الغاب ؟ كليبان الجزيرة المسحورة ؟ خلائق الجن وأشباح الهاوية ؟

ليس من هؤلاء مخلوق واحد نطق بكلمة انجليزية في حياته ، ولكنهم نطقوا بكلماتنا العربية الفصحى بما نقلناه من تلك الروايات ولو رددناها الى الاصل الذي يخيل اليك أنها كانت اليق به وكان اليق بها لنقصت فناً وأدباً وشعراً ومسرحاً ولم تزد شيئاً يحرص عليه القارىء او المستمع أو الناقد أو الملحقون بالمسرح من أسفله الى أعلاه .

ومن آيات العبط البالغ أن هؤلاء الذين يسومون الفن أن ينقل (العطسة) بلغتها العامية حرصاً على مشابهة الطبيعة ـ هم بأعينهم الذين يهللون للمصور (الخنفشاري) حين ينقل لك وجهاً آدمياً ، فلا تدري هل هو كرنبة او انسان وهل وجهه فيه انف واحد أو أنفان ؟ . او ينقل لك شكلا من الاشكال فاذا هو خليط من جميع الاشكال لا مثال له في الواقع ولا في الخيال .

والفن الذي لا يسمح لك ان تقول (نعم) بدل (أيوه) هو الفن الذي ينخلع له وسط العلامة رشاد رشدي رقصاً وطرباً حين ينظر الى صورته (السريالية) فلا يعرفها برأس ولا ذنب ولا يشترط لها شبهاً من الأشياء ، ولا حكاية صادقة أو غير صادقة لمثال او غير مثال في واقع ولا في خيال . .

ولا يجوز في العقل أن يجمع احد بين الدعوتين في فهم وصدق وايمان بصحة القول الذي يدعو رشاد رشدي باسم الفن او باسم الطبيعة . لأنهما نقيضان يقوم كل منهما على بطلان الآخر كل البطلان .

فهو لا يستطيع أن يقول للمؤلف المسرحي : استمع يا صاح الى الحوار الطبيعي في

عرض الطريق ، واياك أن تجترىء عليه بشيء من التعديل ، التبديل : اذا سمعت متكلماً يقول « بلاش » فاياك أن تجعلها (بلاشئ) . . بل هي الباء المفتوحة امام الباء المفتوحة واللام امام اللام والالف امام الألف والشين ساكنة أمام الشين ساكنة بلا فتحة عليها ولا همزة بعدها ولا تحريف ولا تبديل لانه لا تبديل في محكم التنزيل . .

ومن استطاع أن يقول ذلك فما هو بمستطيع أن يعود الى الفنان المصور ليقول له باسم هذا التنزيل : انظر يا صاح الى وجه ذلك الادمي في الطبيعة واحذر كل الحذر أن تجعله آدمياً وان تجعله طبيعياً وان تنظر فيه الى شبه من اللون او شبه من الرسم او شبه من الملامح او شبه من كائن واحد بين كائنات الطبيعة تبصره العينان ويدل عليه اسم فلان بن فلان .

إياك ثم إياك فإن الفن هكذا وان الطبيعة ليست هكذا وان هكذا ليست هكذا ولا هكذا ولكنها لا فهم ولا معنى ولا شبه ولا دلالة وافهم كما تريد او ارد كما تفهم بلا كلام . .

فمن قال ان تحريف (حرف) في الكلمة العامية كفر بالطبيعة والفن لا يستطيع أن يقول ان مسخ الطبيعة بكل ما اشتملت عليه هو الفن الطبيعي الصادق او هو الطبع الفني الاصيل .

لكن الدعوتين المتناقضتين تجتمعان معاً وتجتمع معهما الف دعوة مناقضة لكل ما في العالم باسره إذا تم الاتفاق على (المبدأ) الاول من مبادىء هذا التجديد الموفق السعيد ، وهو التجديد بلا قواعد ولا مقاييس ولا دليل على صحة هذا وبطلان ذاك . من صورة أو تمثال او قصيدة أو مقال . صور وأقوال بلا اسماء ولا اوزان ولا أقيسة ولا مراجع للاستحسان والانتقاد غير فهاهة (العبط) وبركة العجز بحمد الله الذي يحمد على المكروه ، ولا اكراه .

وبهذا نعود الى الاديب لنقول له : أيها الاديب لا تتعلم ولا تتفهم ولا تبال كيف تكتب لانك ستكتب على كل حال كما سيتكلم الناس على كل حال .

وبهذه (الرخصة) المباحة لكل مستبيح يصح ان يقول العلامة الجامعي رشاد رشدي ان قواعد اللغة فضول وان قواعد الشعر لغو مرذول ، وان الأدب كلام أي كلام ؟ وأن الادباء أعلام وأي اعلام مقدار ما يجهلون هو مقدار ما يرشحهم للفهم والافهام ومقدار ما يحفظ لنا المفارقات والنقائض والاعاجيب من عهد ابي التاريخ الى مسيرة الف عام بعد هذه الايام . .

الدكتور ابراهيم مدكور

موقف العقاد من استاذ الفلسفة الاسلامية بالجامعة الدكتور ابراهيم بيومي مدكور ، رئيس مجمع الخالدين الآن . . تسبب فيه أحد القراء حين بعث برسالة للعقاد قال فيها

« إنني اشتغل بتحضير بحث عن مؤسسة الاونسكو وعن الامل في نجاح سعيها والانتفاع بهذا السعي في توحيد الثقافات العنصرية أو تعميمها . وقد قرأت مقالاتكم عن الدعوات الى جامعات الأمم ورأيكم في نجاح الجامعات الثقافية دون الجامعات الحكومية وفيما انا مهتم بمراجعة المصادر التي تناولت هذه المسألة اطلعت على عبارة وردت في صدر كتاب الفلسفة الاسلامية لمؤلفه الدكتور ابراهيم مدكور يقول فيها ما نصه (ومن الغريب ان الفرنسيين ـ خصوم العنصرية السياسية ـ هم الذين اثاروها في القرن الماضي وبذروا بذور عنصرية علمية وفلسفية امتدت بعض آثارها الى القرن الحاضر . فقد صرح « رينان » انه اول من قرر ان الجنس السامي دون الجنس الآري وكان لرأيه وزنه في فريق من معاصريه .

هذه هي العبارة التي إستوقفت القارىء فبعث يستزيد علماً من العقاد حيث أضاف في رسالته المطلوبة فلم أفهم وجه الغرابة في ظهور الدعوة العنصرية بين الفرنسيين ولم أفهم كذلك معنى وصفه للفرنسيين بأنهم خصوم العنصرية السياسية فهل لكم ان تزيدونا بياناً في هذا الموضوع إن كنتم قد فهمتم شيئاً من كلام المؤلف المذكور .

ويبدو أن الرسالة وجدت صدى عند العقاد . . لأسباب أولها أنه قرأ الكتاب المذكور واستوقفته نفس هذه العبارة وثانيها أن له دراساته وأبحاثه في الموضوعات العنصرية وربما تكون هذه العبارة قد أثارته فوجد المناسبة التي يرد عليها ، وثالثها جدية القارىء الذي يطلب الاجابة والتوضيح وهنا رد العقاد على القارىء بموضوع عنوانه « اصول الدعوة العنصرية» ما نصه : وأقول للفاضل صاحب الرسالة ان العبارة التي استوقفته في كتاب الفلسفة الاسلامية ، قد استوقفتني كذلك لأنني لا اعتقد ان الاستاذ مؤلف الكتاب قد أتى بتلك الكلمات من قبيل الحشو أو تزجية الكلام ولكنه استغرب ما استغربه لأنه لم يستقص اسباب الدعوة العنصرية بين الفرنسيين وقد كان استقصاؤها لازماً له جد اللزوم في موضوعه لأنه موضوع يقوم على اثبات الفلسفة الاسلامية وانكار العوامل المزعومة التي يستند اليها « رينان » وأمثاله في نفيهم لوجود الفلسفة عند المسلمين ولعل الاستاذ المؤلف كان يبطل العجب لو علم السبب او كان يبدو له ان وصف الفرنسيين بعداوة العنصرية السياسية كلام خلو من المعنى مناقض للمعروف عن نشأة الدعوة العنصرية بين الاوربيين .

فالواقع ان اسم فرنسا نفسه مستمد من التمييز بين عنصر السادة الحاكمين وعنصر العبيد المحكومين ، فان اسم فرنسا مستمد من اسم قبائل الفرانك الذي أصبح علماً للحرية والاحرار لأنهم كانوا ينظرون الى الشعب الاصيل في تلك البلاد كما ينظر السادة الى

المستعبدين ولا تزال هذه الكلمة في اللغات الاوربية مقترنة بمعنى الحرية والصراحة ومعنى الحقوق السياسية وحقوق الانتخاب وما إليها من مزايا الحكم والنيابة .

يقابلها في اللغة العربيّة تعبيرنا بالنسب الحر الصراح عن نسب السادة الاحرار الذين سلمت دماؤ هم من لوثة العبودية والهجنة أو الاختلاط فقد كان النسب الصراح مرادفاً للنسب الحر أو نسب السادة في كثير من اللغات .

اما ان كان المقصود بعداوة العنصرية السياسية ان الفرنسيين يعادون الالمان وأن الالمان قد نشروا الدعوة العنصرية في العهد الاخير فلا وجه هنا أيضاً للغرابة ولا للقول بعداوة فرنسا للعنصرية السياسية .

فإن الالمان قد نقلوا فلسفة العنصرية من علماء الفرنسيين وتعرف هذه الفلسفة أحياناً باسم الجوبينزم نسبة الى العالم الفرنسي الذي اذاعها في القرن التاسع عشر الكونت « جوزيف آرثر دي جوبينو » وقد كان له فيها شريك من الفرنسيين أيضاً هو الكونت « جورج فاشر لا بوجيه » صاحب كتاب الجنس الآري ورسالته في عالم الاجتماع .

أما قبل انتقال هذه الفلسفة من فرنسا الى المانيا فقد كان المفكرون الالمانيون ـ وعلى رأسهم هردر وجيتي ونوفاليس ـ يسفهون أراء القائلين بالتفرقة بين الاجناس البيضاء والصفراء والسوداء . وكان من مؤلفات ذلك العصر المعدودة كتاب « هردر » عن فلسفة الفوارق بين الاجناس البشرية وخلاصة رأيه فيه أنه لا توجد أجناس اربعة او خمسة كما يقال وان الفوارق بينها ليست بالفوارق الحاسمة التي تدل على انفصال ولكنها تتداخل وتتقارب في جميع الالوان فلما ظهر كتاب « جوبينو » في فرنسا عن الفوارق بين الاجناس البشرية شاعت منه دعوى المزايا الآرية وزعم المؤلف أنه يعتمد على أدلة التشريح للمفاضلة بين الاريين الساميين وغيرهم من الأجناس الأوربية والشرقية وأطلق على الجنس التيوتوني اسم طوال الرؤوس تمييزاً لهم من اصحاب الرؤوس المستديرة وقال ان مزايا الحكم والسيادة طبيعة في التيوتون لانه هو نفسه ينتمي مع النبلاء الفرنسيين الى قبائل الفرانك الجرمانيين الذين حكموا أبناء البلاد الاصلاء عدة قرون .

وقد ظهر في الوقت نفسه ـ أي اواسط القرن التاسع عشر ـ مذهب رينان عن المفاضلة بين الجنس الآري والجنس السامي وكان رينان وجوبينو زميلين في الاستشراق يكتبان عن الفرس واليهود .

وقد راق الالمان أن يشيد الفرنسيون بعراقة أصولهم وامتياز جنسهم الجرماني بالسيادة والحرية فتهافتوا على هذا المذهب ورددوه واضافوا اليه ولم يكونوا مبدعين له ، ولا مهتمين بنشره قبل ان يجيئهم من قبل الفرنسيين على التخصيص .

على ان الباحثين في العلل الطبيعية التي يرجع اليها رواج الدعوة العنصرية يحصرونها في علل ثلاث كان لفرنسا خاصة من كل منها أوفى نصيب .

تلك العلل الثلاث هي حركة **تحرير الرقيق وحركة الاستعمار** ومبادىء الثورة الفرنسية .

فالذين قاموا بالدعوة الى تحرير الرقيق بنوا دعوتهم على المساواة بين البشر واستنكروا ان يباع الانسان ويشرى في الاسواق كأنه من الحيوان الاعجم وهو ومن يبيعه ويشتريه سواء في الحقوق الادمية .

فكان المتجرون بالرقيق يردون هذه الدعوى بانكارهم للمساواة بين البيض والسود وقيام الفوارق الاصيلة بين السادة والعبيد وقد كانت لفرنسا تجارة واسعة في الرقيق الاسود والخلاسيين وكانت جزائر هايتي التي كانت معروفة يومئذ باسم جزائر القديس دومنيك تابعة لفرنسا ومركزاً من اهم مراكز الاتجار بالرقيق على اختلاف أنواعه وظلت فرنسا تقاوم حركة التحرير حتى في إبان الثورة الفرنسية ولم تشترك في حركة التحرير إلا بعد خروج تلك الجزائر من حكمها وعودة نابليون من جزيرة (إلبا) في سنة ١٨١٥ خلال حكومته المقتضبة التي اشتهرت باسم حكومة الايام المائة فجاء هذا القرار البائس بعد فوات الأوان .

ويعلم القراء أن حركة الاستعمار قامت على ما يسمونه برسالة الرجل الابيض أو بحقه في حكم الاجناس الأخرى لامتيازه عليها في العقل والخلق والصفات النفسية وكانت فرنسا يومئذ تنشىء « إمبراطورية المستعمرات » ويؤيدها العلماء والادباء ومنهم رينان على الخصوص فهو الذي أنحى على الثورة الفرنسية في رسائله عن مسائل العصر لاعتقاده انها صدت حركة الاستعمار وهي عنده خير علاج تعتمد عليه الأمة الفرنسية في مكافحة النزعات الاشتراكية ، وقد ذكر في كلامه عن الاصلاح الفكري والاخلاقي بعد سنة **١٨٧١** أن حرب فرنسا والمانيا كانت صدمة قاسية له لأنها بددت الحلم الذي كان ينوط به رجاءه في خلاص العالم ، وفحوى ذلك الحلم ان تعقد الأمتان مع إنجلترا حلفاً مقدساً يدير شؤون الأمم المختلفة من شرقيين وغربيين .

ومن فرنسا أيضاً نجمت الحركة التي يسمونها بحركة « رد الفعل » بعد عصر الثورة الاولى فقام فيها جوبينو وامثاله يعلنون بطلان المساواة بين الطبقات وينادون بحق النبلاء في حكم الدهماء لما بينهم من التفاوت في العنصر والاستعداد للرئاسة والقيادة فجاءت دعوى العنصر الحاكم رداً على دعوى المساواة بين الحاكمين والمحكومين وشاع « رد

الفعل » هذا في فرنسا نفسها قبل أن يشيع في غيرها من الاقطار .
فاذا كانت هذه هي العلل الطبيعية التي يرجع اليها رواج فلسفة العنصر أو فلسفة التفرقة بين الاجناس فهذه التفرقة متصلة بالتاريخ الفرنسي أوثق اتصال من جوانبها الثلاثة جانب الرق وجانب الاستعمار ، وجانب الثورة ومعقباتها. ولا محل لاستغراب ظهور هذه الفلسفة بين الفرنسيين سواء نظرنا الى اسبابها العلمية او اسبابها السياسية او اسبابها القومية التي تتعلق بتركيب بنية الأمة بل الغريب حقاً ألا تظهر هذه الفلسفة كلها بين الفرنسيين .
ونعود فنقول ان كتاب « الفلسفة الاسلامية » ليس بالمرجع الذي يعول عليه الفاضل صاحب الاستفسار في بحثه عن الثقافات العنصرية فله ان يأخذه على علاته في هذا الموضوع .
على أن العقاد والدكتور مدكور نشأت بينهما علاقة صداقة ومصدرها الزمالة في المجمع اللغوي ، وكثيراً ما نجد رئيس مجمع الخالدين الدكتور مدكور يذكره بالخير كلما ذكر اولئك الرواد الافذاذ الذين كان لهم كبير الاثر في ثقافتنا ولا يعتد بمحاولات البعض في إثارة الفتنة بين الرجلين العظيمين .

* ابراهيم الورداني

موقف العقاد من ابراهيم الورداني لم يكن ابداً ضمن موقف عام للعقاد من الجيل الذي يمثله الورداني كما تصور البعض ابان قيام المناقشة بين الطرفين .
فالمسألة لم تخرج عن كونها تصحيحاً لوضع لغوي ـ لا اكثر ولا اقل ـ اراده العقاد كعضو في مجمع الخالدين وكمفكر موثوق به بعث اليه قارىء يستوضحه الرأي فيه .
أما ان تتحول المسألة الى اكثر من ذلك كأن يقال مثلا ان السبب هو معاداة العقاد للجيل الجديد الذي يمثله الورداني ، أو مجافاته لعصره فهذا ما لا يحتمل بأي حال من الاحوال .
فالقصة تبدأ من حيث بعث أحد القراء واسمه « الصردي » الى العقاد يستوضح : هل ترجمة كلمة التليفزيون « المرناه» كما كتبها في يومياته بالاخبار او « المرناة » كما جاءت في يوميات ابراهيم الورداني بجريدة الجمهورية .
ويسأل القارىء مستوضحاً لماذا يتهكم الورداني على العقاد حيث يقول عنه « ما كان اخف دمه » في يومياته ايضاً .
هذه هي كل المسألة . . الا ان الورداني حملها اكثر مما تحتمل . . حملها مثلا ان العقاد هو من بقايا جيل قديم لا يسره أن يرى جديداً يغطي وجه الحياة .
حملها أيضاً بعدم تفاعله مع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وبانه لم يكتب عنها او عن منجزاتها كأديب او كمفكر .

وأخيراً حملها مسائل شخصية بعيدة كل البعد عن الموضوعية فلولا ان الورداني كتب قبل ذلك بأشهر في يومياته ما يؤ يد رجاء النقاش في معركته مع العقاد والتي قال فيها الورداني ما نصه:الخناقة الادبية القائمة بين عجوز الادب وناشيء الادب . . العقاد والنقاش . . معركة تستفز الاحساس وتعلن عن المنظر الادبي السيء هذه الايام في بلادنا .. وسوف آخذ على العقاد قسوته وفظاظة قلمه وطول اظافره امام هذا الناشيء الطرى فهل تلك استاذيته . ثم منذ متى والعقاد يسخن لفتاته ازاء الناشئين الحيارى . ؟ هل نصحهم يوما؟ هل رعاهم يوما . ؟ هل جرب الأبوة واياهم يوما ابدا ابدا . ؟ انه لا يملك لهم واحسرتاه غير التجريح والتمييع والتوبيخ ، وكأنه عملاق متغطرس في مدينة للاقزام .

نقول المسالة لم تزد عن كونها تصحيحا لغويا لكلمة اختلطت على قاريء وهو نفس ما انتهى اليه الورداني نفسه في لحظة مراجعة للنفس فكتب عن العقاد في الجمهورية في عددها الصادر ٥/ ٢/ ١٩٦٩ ما يؤكد وجهة نظرنا هذه حيث يقول : وعندما أخذت انفاسي وعدت استطلع ما كتبته منشوراً ـ يقصد هجومه على العقاد الذي سنسجله أصابني الفزع والروع . .

واعتراف الورداني هذا يبرر ما فعل اذا وضعنا في الحسبان حقيقة هامة . . هي ان العقاد كثيراً ما يفرض على الذين يناقشونه ـ عندما يغضب ـ ان يستخدموا ضده كل الاسلحة . . حماية لهم من اسلحته التي يستخدمها هو . . والتي كانت بلا حدود .

ونعود الى اصل الحكاية : الورداني يكتب في يومياته ما يجعل قارئاً يبعث للعقاد يستفسر . .

فيرد في يومياته قائلا : أشرنا في يومية سابقة الى اقتراح زميل في المجمع اللغوي يستحسن فيه ترجمة التليفزيون بالمرناء . . ويسأل الاستاذ « السيد احمد الصردي » المدرس بدسوق بعد تلخيص يوميات قرأها في هذا الموضوع للاستاذ ابراهيم ناصف الورداني فيقول « لقد جاءت كلمة المرناء هكذا في يوميات سيادتكم بينما جاءت في يوميات الاستاذ ابراهيم الورداني هكذا (المرناة) فايهما الصحيح وماذا يقصد الاستاذ الورداني بقوله عنكم ما كان اخف دمه . . فان كان حسن النية فشكراً له . وان كان يريد غير ذلك فما اكثر خفة دمه الخ الخ .

ولا اظن ان الاستاذ الصردي يطالبني بان اعلم شيئاً عن ذلك الاستاذ الورداني غير ما اعلمه من جملة شأنه استدلالا على سنة من اسمه فهو بهذا الدليل الذى ناسبه بعض مواليد السنة فيه يتهم العقاد اتهامات كثيرة . . اقلها انه لا يعيش عصره وانه معاد لكل

ما هو جديد وعظيم في حياتنا وانه عجوز تنتابه غطرسة الشيخوخة وفي هذا يقول الورداني مخاطباً العقاد : « ولكن أستاذنا الشيخ الجليل شاء أن يتكلم عن « خفة الدم » فسماني « ابرهيم ناصف الورداني » « . . وكأنه اكتشف في شخصي مثلا « خنفس » شهير الاسم الذي خان عرابي . . ثم قال جل جلاله للقارىء الصردي انه لا يعلم شيئاً عن ذلك الأستاذ الورداني غير ما يعلمه من جملة شأنه استدلالا على سنه من اسمه وهو أنه في الثالثة والخمسين لأن حادث الورداني حدث منذ ثلاثة وخمسين عاماً . . ثم حاول أن يدلل على ان الذي يصبح في هذا العمر لا يحل لمثله أن يعرض بضاعته في سوق خفة الدم ولو كان من الدم المحفوظ في العلب بعد فوات الاوان . . يا حلاوة . . يا حلاوة يا شيخ . . وسوف أستوقف أبانا الشيخ لأقول له من أنا . .

انا يا والدي مواطن مـ ري جداً من قمر ريف الدلتا ابن بلدة كان يملكها عمر طوسون « كلها كلها » اسمها « ردان » من مواليد نوفمبر ١٩١٩ وعندي من الاخوة اربعة غيري ، وأبي مات منذ زمان ، وأمي ما زالت هناك في بيتها الفقير . . وليس اسمي ابراهيم ناصف الورداني . . ولكنه ابراهيم محمود احمد . . وقد اضفت اسم الورداني مع مطلع الصبا حينما بدأت أكتب . . ربما اعجابا ببطولة الورداني . . ربما حباً لقريتي الجميلة ذات الصيت التاريخي .

وانا لم أبدا فأكتب يا والدي إلا بعد أن قرأت كل غرف دار الكتب في باب الخلق ودمنهور . . ثم قرأت الحياة على صفحة البحر والأرض والسماء . .
ومنذ بدأت فكتبت أول مقال وأول قصة وأنا مرغوب يا سيدي . . مطلوب يا سيدي . . أنمو بلا فيتامين . . يشتد عودي بلا أقراص أو مقومات . . لقد كانت الصحف والمجلات في فترة النشأة تشتريني بأغلى الأثمان لتحول طوابير القراء الى دورها . . وقد شبعت من حب الجماهير . شبعت إلى درجة لا طمع البتة . . ورحت أحاول في حسن نية شديدة أن أمسك مسؤ ولية هذه الأمانة التي بيني وبين القارئين في معارك فدائية رهيبة خضتها والله وحيداً . . معارك أثخنتني بالجراح . . مزقتني . . أمرضتني . . وانتشرت طوابير الحقد من حولي ، وكلنا نعرف هذا التجمع الخبيث الحقود الذي ما زال يحدث حتى الآن لطعن أية موهبة غضة ناشئة . . وقد كان هذا التجمع يا سيدي بطريقة مؤثرة مستترة لم يحس بها أحد فقد انصرفت . . أعطيت ظهري للا أخلاقيين . . جلست في داري أنتظر ٢٣ يوليو . . وهكذا يا أبي الشيخ بهمة اللا أخلاقيين استقبلت يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . كنت في الثالثة والثلاثين . . عندي طفل وزوجة . . عاطل ومريض لا يجد ثمن الفستان لزوجته . .

تجارب وتجارب ـ وترى متى أتمكن فأحكيها درساً ونصحاً للزاحفين من خلفي حتى اعتدل صواب المجتمع ومدت لنا الاشتراكية يد النجاة . . ويا خسارة يا أستاذ يا عقاد يا من تعرف تفاصيل مخ العصفور أحياناً إنك لم تعرف عن هذا الاستاذ الورداني الا أنه في الثالثة والخمسين من عمر حادث الورداني وقصصي مقالاتي ، حملاتي ، ويومياتي ، كتبي ، أفلامي . . انها مكتبة كاملة وموقعها ولا فخر ، في أوردة الجيل الجديد . . أسلوبي وبصماته على كل جيل الناشئين . . بل أنت تكتب به دون أن تدري . . ان تعبير « خفة الدم المحفوظة في العلب » هو تعبير ورداني قح ليغفر الله لي . . أنت تفقأ عيني يا أبي . . كيف أتركك ؟! .

وينتهي مقال الورداني بأن المسألة هي معركة بين جديد يصنع الحياة وقديم متهالك لا يريد للجديد أن يعمل ! . ؟

ويبدو أن مقالة الورداني كانت من التجني والعنف والتهجم أمراً جعل واحداً ممن كانوا هدفاً لهجوم العقاد يرد مدافعاً عن العقاد . . وهو الشاعر احمد عبد المعطي حجازي حيث رد في مجلة روز اليوسف بتاريخ ٢٣/ ٩/ ١٩٦٣ بمقال عنوانه « ليس دفاعاً عن العقاد » هذا نصه :

لا اظن ان العقاد قد صب اضطهاده على أحد من أدباء هذا الجيل كما فعل مع اصحاب الشعر الجديد .

ولا شك أن كثيراً من الأدباء قد تعرضوا للسان العقاد ونالوا منه ما نالوا . . ولكن الشعراء المجددين وحدهم هم الذين تعرضوا لما هو أقسى من الشتائم والاتهامات . . لقد تعرض انتاجهم للمصادرة فوق تعرضه للاتهام . . فالعقاد لا يملك للروائي إلا أن يقول رأيه في إنتاجه ولكنه يستطيع بالنسبة للشاعر أن يجند الدولة كلها ضد انتاجه مستخدماً في ذلك مكانه في المجلس الاعلى للآداب والفنون .

ولهذا فقد اتخذت معركة العقاد مع الشعراء المجددين طابعاً من العنف جعلني مثلا أقول قصيدة في هجائه وجعله هو يهدد بالاستقالة من المجلس إذا سمح لي بالاشتراك في مهرجان الشعر . .

ومع هذا فلم أشعر في حياتي بالأشمئزاز من أسلوب في المناقشة الادبية كما شعرت بالاشمئزاز من أسلوب الاستاذ ابراهيم الورداني في المقال الذي وجهه الى العقاد على صفحات جريدة الجمهورية . .

ولقد كان من حق الورداني أن يرد على العقاد الذي أعلن في يومياته أنه لا يعرف الكثير عن ابراهيم الورداني وان ما يعرفه عنه لا يعطيه الحق في ان يحشر نفسه في مسألة من مسائل اللغة والتعبير .

كان من حق الورداني ان يرد على العقاد معرفاً نفسه دافعاً عنها تهمة الجهل باللغة التي هي صناعته الوحيدة ولكن الورداني لم يقم بهذا الواجب نحو نفنسه بل انه أثبت بصورة قاطعة أنه يجهل اللغة كما يجهل أشياء كثيرة غير اللغة تعرض لها في مقاله التعيس . .

ولو كان الورداني قد اكتفى باثبات جهله - وكثيراً ما يحلو له أن يفعل - لما كان لمثلي حق في التعرض لهذه المشادة الشخصية . .

ولكن المحنق في الأمر ادعاء الورداني انه يكتب هذه المقالة الحمقاء بوصفه واحداً من كتاب هذا الجيل الذين دأب العقاد على مهاجمتهم والانتقاص من ادبهم وثقافتهم . .

من هنا أصبح من الواجب أن نقول للأستاذ الورداني ان مقاله هذا لا علاقة له بأي تجديد ولا علاقة له قبل التجديد بأي أدب . .

وكيف يكون أديباً من يتعامل مع اللغة بهذه الخفة التي تجعله يخطىء في أبسط قواعدها بينما هو يحاول اثبات معرفته بها فيقول وفيهم أدباء وصحفيين .

ويقول عن صوت عبد الحليم حافظ انه يملأ السماء العربية بصوته وصورته في واقعية ملموسة تشبه توزيع الماء .

ما هي علاقة الواقعية بتوزيع الماء ؟ يريد الورداني العبقري أن يقول ان كل بيت يأخذ من صوت عبد الحليم حافظ نصيباً كنصيبه من الماء . . ولكنه يحب دائماً أن تكون علاقته باللغة علاقة بهلوانية تدهش ولا تفيد .

وكيف يكون مجدداً من يبيح لنفسه أن يخترع احصائية تثبت أن قراء العقاد قد انقرضوا فيقول انهم قلة من الصحفيين المتبعين . . أما قراء القاعدة الشعبية فتجد ٣ ٪ مثلا من الازهريين و٣ ٪ أخرى من الجامعيين - الخريجين أقصد - و ٣٪ أخرى من الرجعيين السياسيين .

هل قال أحد للاستاذ الورداني ان الثقافة الجديدة تبيح للناس أن يتقنوا الاحصائيات ، ويخترعوا الأرقام ويخدعوا القراء بهذه البساطة التي لا يجيدها إلا القتلة المحترفون ؟

ومن الذي قال للورداني ان التجديد معناه احتقار التراث العربي واعتباره ضريحاً لا يسكنه إلا الموتى . . من الذي علمه هذا الجهل وشجعه على التباهي به ؟

ومن الذي انبأه ان جيل ثورة ١٩١٩ هو جيل جريمة الخيانة الشعبية ؟

كيف يمكن ان نتهم جيلا كاملا بالخيانة بدعوى اننا كتاب مجددون ؟

واذا كان جيل الثورة قد خانها فمن هو الذي صنعها ؟

إن الزعماء السياسيين الذين خانوا ثورة ١٩١٩ ليسوا هم كل جيل الثورة التي جددت شباب النثر والشعر وجعلتها ضرورة من ضرورات الحياة لاوسيلة من وسائل ازجاء

الوقت وقتل الفراغ . وان من أبناء هذا الجيل ـ لو كان الورداني يعلم ـ مختار أبو البحث ، وسيد كرويش أبو الموسيقى وتوفيق الحكيم أبو المسرح وطه حسين بطل حرية الفكر ، وسلامة موسى المبشر بالمنهج العلمي ، مهما كانت الانحرافات السياسية والفكرية التي وقع فيها بعض هؤلاء عن طريق العمد او الخطأ وإذا كان من حقنا الآن أن نقول للعقاد لقد جندت قلمك إلى جانب الاقلية ونظمت شعرك في مدح فاروق . . فإن من حقه علينا أن نعرف عنه أنه دخل السجن بتهمة العيب في فؤاد وأنه الناقد الذي دعا ان يكون الأدب ضرورة لا تسلية وأنه القائل عن الأدب انه لم يهبط ولا كثرت عيوبه الا في العهد الذي صار فيه هدية تحمل الى الملوك والامراء لارضائهم وتسليتهم ومنادمتهم .

وانه المفكر الذي بشر بأن كل ما في الحياة حق من عمل الانسان فليس فيها طهر من عمل الملائكة ولا رجس من عمل الشيطان . . أو كما قال هو « ان الفلاسفة السطحيين يعيبون على النظرة الفنية إلى الأشياء أنها نظرة إلى الظواهر فما هي الظواهر في هذا الوجود هل لهذا الوجود سطوح وأعماق ؟ وهل فيه « كينونة زائفة » و « كينونة صحيحة » ؟

أليس كل شيء فيه على مسافة واحدة من أعماقه أو من سطوحه ؟ . .

لقد قال العقاد هذا الكلام منذ أربعين عاماً داعياً إلى التفكير الموضوعي الذي يهتم بكل شيء في الحياة لأن كل شيء له دلالة .

وقد اتفق العقاد مع ماكس نوردو منذ اربعين عاماً ايضاً على ان الديمقراطية الغربية أكذوبة سخيفة لأن الحكم في الأمم الديمقراطية لا يؤول إلى أشرف الناس نفساً وأعظمهم كفاءة وأرضهم لباً وأخلصهم غرضاً ولكنه يؤول إلى اصفق الناس وجهاً وأكبرهم دعوى أعزهم جاهاً وأكثرهم مالا وأقدرهم على شراء أصوات المنتخبين والتغرير بالجمهور وليست حكومة الديمقراطية بحكومة الشعب كما يقولون ولكنها هي حكومة فئة قليلة من ذوي المطامع المقتدرين على تنظيم الاحزاب ونشر الدعوة ومخادعة الجمهور واستجلاب الأعوان بالوعود والمكافآت والمناصب . فالديمقراطية طراز جديد من الحكم المطلق القديم أو هي خمرة عتيقة في باطية جديدة » .

والعقاد هو الذي علم قراءه أن البلاغة ليست طبعاً خاصاً بالاقدمين وإنما هي شيء يكتسب بالممارسة وأن البلاغة ليست لها مقاييس محددة وانما يكتسب الادب بلاغته من صدق تعبيره عن عصره وليس أسلوب الجاحظ في جماعه بأبلغ من الأساليب التي يكتب بها اليوم الصحفيون المثقفون والعقاد هو الذي بشر بالشعر المرسل الذي لا يلتزم أي قافية على الاطلاق قائلا وما كانت العرب تنكر القافية المرسلة كما نتوهم ـ فقد كان شعراؤهم يتساهلون في التزام القافية كما في قول الشاعر :

الا هل ترى ان لم تكن ام مالك بملك يدي أن الكفاء قليل .
رأى من رفيقيه جفاء وغلظة .
اذا قام يبتاع القلوص ذميم
فقال أقلا واتركا الرجل انني بمهلكة والعاقبات تدور
فبيناه يشرى رحله قال قائل لمن جمل رخو الملاط نجيب .

كل هذه الافكار التي غيرت مجرى الثقافة العربية في هذا القرن بشر بها العقاد منذ ما يقرب من نصف قرن . . وإذا كنا نعيب عليه شيئاً فهو أنه تنكر لأفكاره ونصب من نفسه عدواً لدوداً لها أيا كانت الأسباب التي دفعته إلى اتخاذ هذا الموقف .

ومع ذلك فهو الآن لا يعادي هذه الافكار سراً . . انه يعلن في كل وقت معارضته للتجديد وسخريته من الادباء الشبان وهو في ذلك لا يختلف كثيراً عن معظم زملائه من أبناء الجيل الماضي . . غير أنه أكثر شجاعة وأشد حيوية من معظمهم فهو يصر أن يكون له رأيه في كل جديد يطرأ على الشعر أو المسرح أو الفنون التشكيلية .

الرجل يعلن أنه ضد هذا التجديد ولا يعدم مبررات معارضته له .

والى هنا يقوم العقاد بواجبه خير قيام فمن الطبيعي أن تختلف الآراء حول الأدب والفن والسياسة . . ومن الطبيعي أيضاً أن يبدأ بعض الناس مجددين ثم ينتهوا إلى التقليد والمحافظة . . ولقد اختلف كثير من المجددين مع طه حسين وتوفيق الحكيم كما اختلفوا مع العقاد ولكن الخصومة بين المجددين وبين طه حسين لم تأخذ هذا العنف الذي سببه وجود العقاد على رأس أجهزة ثقافية يمارس عن طريقها حرية الشطب والمصادرة .

ولكن الذنب في ذلك ليس ذنب العقاد لانه لا يظهر غير ما يبطن . . فهو لم يقل لأحد انه من أنصار الثقافة الجديدة ليصل إلى منصب من المناصب التي يتولاها . .

ان الذنب هو ذنب الذين وضعوا العقاد على رأس هذه الاجهزة الثقافية وطلبوا منه أن يسيرها . .

علينا أن نعرف كل ذلك ونحن نتعرض لمناقشة العقاد حتى يمكن أن نحترم الرجل ونحن نهاجمه وأن نفهم سر غروره الذي اعتقد أن له ما يبرره .

وعلينا بالتالي أن نسأل الاستاذ الورداني ما هي مبررات غروره الذي فاق غرور العقاد والذي جعله يقول في مقالته الجاهلية لقد كانت الصحف والمجلات في فترة النشأة تشتريني بأغلى الاثمان لتحول طوابير القراء الى دورها .

ونحن نعلم ان هذه الفترة التي يتحدث عنها الاستاذ الورداني هي الفترة التي ظهرت فيها تجارة « الاورنس » وراجت فيها الكباريهات واشتهرت خلالها بعض القصص من أمثال « عودي الى قناعك يا ليلى » .

لا يمكن لمن يرصد مواقف العقاد ومعاركه الادبية أن يغفل أو حتى يمر مرورا عابرا على المعركة التي قامت بينه وبين رجاء النقاش صحيح أن ما حدث كان يثير الاسف بعد أن دخلت كلمات الأطراف المشتركة . . إلى ما يقع في اختصاص جهات مفتوحة الاعين نشهد لها بأنها واعية حريصة على مبادئنا وقيمنا الثقافية . . فالعقاد اكبر من أن يتهم بما اتهمه به رجاء النقاش . هذا من ناحية ورجاء النقاش أوضح من أن يرمى بما رماه به العقاد من تهامات من ناحية اخرى وان حياتنا الثقافية في ذلك الوقت ـ من ازدهارها كانت تحتاج الى عقل العقاد وفكره الموسوعي كما كانت تحتاج الى نمو رجاء النقاش وتطوره .

لكن على أي حال نرى أن هذه المعركة التي لم يسجل لها قبل ذلك تعتبر من المعارك الهامة التي خاضها العقاد في حياته لأسباب كثيرة منها .

أولا : انها كانت تتسم بصفة معينة هي الدفاع عن النفس . حيث تكون في موضع لا تحسد عليه مستهدفة للاتهام والهجوم وممن ؟ من العقاد الذي يشهد له تاريخنا الادبي بانه كان أعنف مهاجم وأقوى من يملك الحجج والبراهين على الاتهام لهذا فقد استخدم النقاش في الدفاع عن نفسه شتى الأسلحة تلك التي اعترف بها في مقالة له قبل وفاته بأقل من أسبوع وبالتحديد في ١٩ مارس ١٩٦٤ بجريدة الجمهورية تحت عنوان محامي العباقرة قال فيه « ولكنني أحب أن أقول هنا كلمة اؤمن بها للحقيقة والتاريخ فالعقاد لم يكن في فكرة من أفكاره مأجورا ومواقفه الفكرية التي لا يوافقه عليها الاشتراكيون لم تكن لحساب أحد كما قال البعض كثيرا وأعترف ـ صادقا مستريح الضمير ـ أنني واحد من الذين أخطأوا في حق العقاد واتهموه بأنه كان مأجورا في بعض كتبه ودراساته . . فالعقاد كان كثيرا ما يفرض على الذين يناقشونه ـ عندما يغضب ـ أن يستخدموا ضده كل الأسلحة حماية له من أسلحته التي يستخدمها هو والتي كانت بلا حدود » .

وثاني هذه الأسباب أنها جاءت في نهاية عمر العقاد . قبل وفاته بأقل من عام فربما لو كانت هذه المعركة جاءت قبل ذلك لتردد العقاد . . خاصة واذا كان الطرف الاخر في المعركة شاباً مثل رجاء النقاش .

فربما نذكر للعقاد مواقف عظيمة اتخذها ولم يكن أحد يتوقع منه ذلك ربما نذكر له مثلا تأييده لموقف طه حسين إبان أزمة كتابه في الشعر الجاهلي . . منددا بأولئك الذين يمتهنون حرية الفكر . . فعل هذا ونحن نعلم ان طه حسين كان منافسا له في الأحرار الدستوريين خصماً له في ميدان السياسة حيث كان يمثل حزب الاقليات وهو الأحرار الدستوريين بينما كان العقاد يمثل حزب الاغلبية . .

وربما نذكر موقف العقاد المشابه حيث كان تأييده للشباب بالنسبة . . يوم أن اتخذ موقفا مؤيدا لرشدي صالح في أثارته قضية اقتباس توفيق الحكيم كما رأينا من قبل. أقول لو كان العقاد في مقتبل عمره لتردد في الدخول في معركة مع واحد من الشبان أولئك الذين كانوا يطمعون من العقاد بالذات أن يكون حبه أقوى من غضبه وأن يكون حرصه على شباب الادباء هو نفس حرصه على مستقبل الأدب في بلادنا،هؤلاء الشبان الذين يمثلهم رجاء النقاش كانوا يحتاجون من العقاد الشيخ العظيم صاحب المواقف العظيمة أن يمنحهم امكانيات التطور والنمو الصالح .

وثالث هذه الاسباب أن أهمية هذه المعركة ترجع الى انها تعد مواجهة حادة ليس بين جيل الشبان واساتذتهم ولكنها بين جيل الشبان وجيل الشيوخ . . او بين جيل الاحفاد والاجداد ولهذا لو كان في المعركة كلمة كثيرا ما ترددت على الالسنة في المانشتات والعناوين الصحفية وهي اللامعقول . . فان هذا اللامعقول هو في طرفي المعركة لهذا خرجت احداثها وتفاصيلها من دائرة المعقول واللامعقول الى ما هو اشد من مذهب بكيت واونيسكو في لامعقوليته ولا جدواه .

لكن ما هي الحكاية ؟

الحكاية تبدأ من تقديم مجلة الكواكب لنص مسرحي مزيف عنوانه « الهواء الاسود » قيل انه ترجمة عن الكاتب المسرحي السويسري ديرنمات لعدد من النقاد كان رجاء النقاش واحدا منهم وهنا وليسمح لي القارىء ان أترك طرفي المعركة يتحدثان عنها - كتب العقاد في يومياته بالاخبار مقالا بعنوان « محكمة لمحاسبة المزيفين واللامعقولين بتاريخ ٣/ ٤/ ١٩٦٣ نصها أن النقد اليدوي أصلح من النقد الفكري لكشف الستار عن حقيقة التزييف الذي يأبى اصحابه بطبيعة الحال ان يعتزفوا بتزييفهم .

والذي نقصده بالنقد اليدوي ذلك التدبير الواقعي الذي يعمد اليه الناقد لتسجيل السخافة على أصحابها بعمل محسوس لا شك فيه ينساقون اليه وهم يجهلون أنهم يغالطون أنفسهم أو يعرفون ولكنهم يحسبون أن الناس سوف لا يعرفون أنهم مغالطون .

مدير معرض يعلم علم اليقين ما وراء الفنون (التجريدية) من الزيف والدجل والجهالة ولكنه لا يريد ان يفتح للمزيفين ابواب الدعاية الصاخبة باسم الحرية الفنية والثورة على اعداء التقدم والتجديد فماذا يصنع ؟

يقلب الصورة ويعلقها مقلوبة ويترك « النقاد المحترفين » يهللون ويكبرون للابداع

الذي لم يسبق له نظير وللمعاني التي تخفى على الجامدين المقلدين وللاسرار التي تكمن في كل خط وكل نقطة وكل وعي باطن وراء الوعي الظاهر الذي تقرر الغاؤه والترفع عنه في قوانين الفن الحديث .

ثم تنجلي الحقيقة بعد ذلك فينقطع على الناقدين المحترمين سبيل المغالطة ويتبين لهم على الرغم منهم كما تبين للبسطاء المخدوعين بهم أن المعدول والمقلوب من ذلك الابداع على حد سواء وأنها رؤوس توضع في موضع الأقدام وأقدام ترفع إلى مقام الرؤوس بلا اختلاف .

وقصة الابداع الذي أفاضته العبقرية قبل ذلك على ذيل الحمار (الازعر) غنية عن التذكير . وقد وفق الكاتب الصحفي (أحمد رجب) الى حملة ناجحة على أسلوب (النقد اليدوى) منذ أيام فلفق رواية خنفشارية باسم « الهواء الاسود » ونسبها الى مؤلف خنفشارى فى احدى الديار الاوربية . . فاهتزت لها أعطاف النقاد المحترفين إعجابا وارتفعوا بها الى قمم العبقرية فنا وادبا وقارنوا بينها وبين بدائع المنثور والمنظوم التي فاضت بها قريحة المؤلف المعدوم وهنأوا العربية بهذه التحفة النادرة من السحر المفهوم وغير المفهوم ولو أمهلهم الصحفي الماكر أسبوعا واحدا لاحتدمت بينهم المعارك ودارت بينهم الدوائر فيما هو أفضل وأجمل من تلك الفصول والمناظر وفيمن هو أبلغ وأقدر من أولئك النظراء والنظائر .

هؤلاء النقاد المحترمون أول من ينبغي أن يساق الى محكمة التزييف لحماية الفكر الانسانى فى هذه الامة من وبال دعواه .

وأهون ما يستحقون عليه الجزاء الرادع أنهم استخفوا بدعوى القيادة الفكرية التي لا تكلفهم كثيرا ولا قليلا من العلم باصول شيء من الاشياء في عالم الثقافة .

واستهلوا هذا التهريج الذي يجعلهم شعراء بغير لغة ولا اعراب ولا وزن ولا عروض ولا رواية ولا اطلاع أو يجعلهم مصورين بغير رسم ولا شكل ولا لون ولا دراسة للقديم أو الحديث من تاريخ الفن الجميل، أو يجعلهم مسرحيين بغير مناظر ولا مواقف ولا شخصيات ولا حوادث ولا تمثيل، أو يجعلهم نقادا بغير مقاييس وبغير قواعد وبغير عقل وبغير معقول، أو يجعلهم روادا للتجديد والتقدم على رقعة من « الجغرافية » الخنفشارية لا يعرف لها رأس من قدم ولا يمين من شمال .

فوضى . . فوضى . . فوضى كريهة مخزية لا يعرف لها أول ولا آخر بل لها آخر محتوم لا مفر منه إذا هي صمدت على طريقها الوخيم إلى النهاية ولن تصمد عليه طويلا لأنه بحمد الله ـ غير قابل للبقاء .

استسهلوا هذه الدعوى التي تسهل على كل كسلان لا يبالي ما فيه كسله . فراحوا يضيعون على الناشئة الابرياء أوقاتهم ويصرفونهم عن طريق الجد النافع في دراساتهم ويزينون لهم ذلك الكسل الذي لا يحتاج الى براعة في التزيين والترغيب لأنه يسقط عنهم كل جهد ويكفل لهم كل دعوى بغير حذر من ظهور الباطل من دعاويهم لانها شيء لا يقام عليه برهان ولا فرق فيه بين أسوأ الاساءة وأحسن الاتقان .

وانما تظهرماذا ظهر ـ حيلة يدوية كتلك الحيلة تغني عن الاطالة في المناقشة والمناوشة ، وهي كلها مناقشة أو مناوشة لا تنتهي الى طائل لانها كالضرب في الهواء بغير سلاح ولا دروع ولو تحت طاقية الاخفاء .

وماذا تسمع من هؤلاء الادعياء اذا حيل بينهم وبين عقول الناشئين الأبرياء ؟

حجر على حرية الفكر
عثرة في طريق التقدم
جمود على القديم

خروج على منهج النقد القويم . ثم لا أمل في اصلاحهم ولا في الرجوع بهم الى شيء من الحياء بعد ضياع الوقت في النصيحة التي لا تجدي وفي البذاء الذي يجيبون به الناصحين ولا جواب لهم سواه .

اليدويات . . اليدويات

اليدويات من كل صنف مع هذه الأصناف . . أما العقليات والذوقيات فماذا تجدي في ساحة كهذه الساحة لا محل فيها للذوق ولا للمعقول ؟!

ويرد النقاش على العقاد في أخبار اليوم بمقال كبير عنوانه « تزييف الأعمال الادبية هل هو فضيحة للنقاد أم فضيحة للمزيفين » بتاريخ ٦/ ٤/ ١٩٦٣ ونشر بعد ذلك كاملا في كتاب « أدباء ومواقف » قال فيه مشيرا إلى غلطة عمرها عشرون عاما متسائلا هل يذكرها العقاد :

ومن هنا نجد أن المسرحية التي كتبها محرر الكواكب قد استوحت تجربة كبرى لم يعرفها المحرر وإنما عرفها الذين قلدهم وكتب على منوالهم بعد أن بذل جهدا كبيرا في هذا التقليد رغم اعتقادي أن هناك أدباء آخرين قد ساعدوا محرر الكواكب في عمله . . ومهما كانت الحقيقة وراء هذا العمل فان محرر الكواكب بهذا التقليد لم يصنع شيئا جديدا والتقليد مرض قديم عرفه أدب الغرب وأدب العرب منذ قديم الزمان .

والاستاذ العقاد كان أحد الذين دخلوا (حفلة الزار) وصفقوا لمحرر الكواكب وأعلنوا شماتتهم في النقاد ولست أدري هل نسي العقاد أنه وقع في هذا الامر أكثر من مرة . . ولن أكرر هنا ذكر التجارب التي تسيء حقا الى هيبة العقاد وكرامته بل سأكتفي بذكر تجربة واحدة لا شك ان العقاد قد نسيها في غمرة حماسه لفضيحة محرر الكواكب ففي سنة ١٩٤٢ تقدم أحد القراء الى العقاد بهذين البيتين على أنهما لابن الرومي وطلب من العقاد ان يتحدث عنهما بالمقاييس الفنية التي درس بها ابن الرومي في كتابه المشهور عنه .

اما البيتان فهما :

سقته ندى السحب من مرضعاتها
أفانين مما لم تقطره مرضع
كألفى رضيع من بني النضر ضمنوا
محاسن هذا الكون والكون أجمع

وقال القارىء للعقاد : انك تقول عن ابن الرومي انه شاعر عالمي . . فأين العالمية بل أين الشعر في هذين البيتين التافهين .

ولكن العقاد تصدى لهذا القارىء وكتب ردا عليه في مجلة الرسالة الصادرة في ٤ مايو سنة ١٩٤٢ ليبرر هذين البيتين ويقدم لهما تفسيرا معقولا ولم ينف العقاد أن البيتين لابن الرومي .

وقال بالحرف الواحد (إن هذين البيتين ليسا مما يعاب على ابن الرومي أو على غيره من الشعراء كل ذلك رغم ان البيتين في غاية الركاكة والتفاهة وهما في غاية السوء من حيث الالفاظ ومن حيث المعنى كما أنه ليس هناك مناسبة على الاطلاق لكي يفخر ابن الرومي (ببني النضر) فابن الرومي ليس عربيا من ناحية وهو من ناحية أخرى كان يعيش في عصر ليس لبني النضر (موضع) فيه يجعل شاعرا كابن الرومي يشبه الروض بألفى طفل من أطفالهم كما أن في البيتين نقصا واضحا فلا بد لكي يستقيم المعنى من بيت ثالث بين البيتين يكون معناه أن السحب أنبتت زهرا يشبه (ألفى رضيع) . . الخ .

ومع ذلك فقد (فات) البيتان على العقاد وناقشهما على انهما لابن الرومي .

---

(٢٦) راجع ادباء ومواقف رجاء النقاش ص ٨٩

وجاء القارىء ليقول بعد تعليق العقاد أنه هو مؤلف البيتين وليس ابن الرومي . . وأنه كتب البيتين بطريقة عشوائية . . وجمع فيهما بعض الالفاظ وبعض الصور دون أن يقصد معنى معينا . . ودون أن يكون في ذمته فكرة .

وقد حدث هذا كله رغم أن العقاد يعتبر نفسه مكتشفا لابن الرومي في النقد الادبي الحديث ويعتبر أعلم الناس بشعر ابن الرومي وشخصيته . . ويعتبر نفسه مرجع المراجع في هذا الموضوع . رغم ذلك كله فقد (اندب) العقاد و(شرب المقلب) .

ولكن الحياة الادبية سنة ١٩٤٢ كانت على شيء من الرسالة والعمق فلم يشمت أحد في العقاد بل حفظ الجميع له كرامته ومكانته واعتبروا عمل القارىء نوعا من العبث وكتب الزيات صاحب مجلة الرسالة التي نشرت رسالة القارىء وتعليق العقاد عليها يقول :

(ذلك عبث كنا نحب الكاتب وهو من رجال التعليم فيما نظن أن يتكرم عنه احتراما للرجل الذي يكتب اليه وللقارىء الذي يكتب له وللمجلة التي يكتب فيها وللادب الذي يعلمه)

ورغم أنني كنت صغيرا جدا عندما قرأت هذه الحادثة الادبية فقد أحسست يومها أنه لا يجوز الحكم على العقاد ولا على أي انسان من خلال هذا الخطأ الصغير . . ذلك لأن شخصية الانسان لا تظهر في مثل هذه المواقف السطحية .

وقد نسي العقاد هذه القصة بالتاكيد وانساق مع عبث أحد المحررين ولو اخذناه بمنهجه لحاسبناه حسابا عسيرا قاسيا على أنه وقع ضحية هذا العبث من قبل ولقلنا له بعنف كيف يختلط عليه شعر ابن الرومي رغم ادعائه العمق في دراسته ورغم وضوح شخصية ابن الرومي ومدرسته في فن الشعر ورغم التفاهة الواضحة في البيتين الزائفين اللذين كتبهما ذلك القارىء القديم .

ويرد العقاد في يومياته بالاخبار بتاريخ ١٠/ ٤/ ١٩٦٣ على النقاش بكلمة عنوانها « خبر لاحق لنبوم سابق » ونصه : نصيحتي للسيد رجاء النقاش أن يتدارك نفسه في مستهل سيرته الادبية سيرة جديدة واجتناب سيرة منقضية مدبرة لا فائدة الآن من الاستمرار عليها نصيحتي للشاب الثلاثيني ان يتدارك نفسه في أمر العمل النقدي الذي يتولاه لانه بحاجة الى التدارك الشديد في اهم صفات الناقد وهما الاناة والتثبيت مع الامانة في النقل والتعليق . يتعجل فيقول ان رواية دوريل كانت نتيجة لنجاحه في رواية اخرى فاذا قلنا له

ان هذه الرواية سابقة لتلك باكثر من خمس عشرة سنة كان الجواب تطاولا لا يجسر عليه غير امثاله المعهودين بمثل هذه الجرأة المدخولة .

ويتعرض للكلام عن رواية « خنفشارية » فيروج بها لمذهب اللامعقول وهو لا يعرف شيئا عن حقيقتها ولا حقيقة المذهب فاذا تكشفت له حقيقة دعواه كان الجواب تطاولا اخر وادعاء جديدا من قبيل تلك الدعوى التي سجلت عليه التزييف بغير تبصر ولا دراية ومن جرأته على التزييف أن يدعي علينا كلاما قلناه وصنعنا فيه مثل صنيعه جوابا على من سألنا عن بيتين نسبهما لابن الرومي ولم يكن في ذلك الجواب شيء من التعالم بالفنون اللامعقولة ولا الروايات الخنفشارية وإنما هو بنصه كما كتبناه في الرسالة « إنني لا أذكر أنني قرأت البيتين في ديوان ابن الرومي ولا أراهما مما يعاب سواء نسبا اليه أو إلى غيره ولا اعدهما من ابيات الوصف لأنهما اشبه بأبيات التخلص التي يأتي فيها الوصف عرضا غير مقصود وإنما عنيت بأبيات الوصف فانتظرت أن يذكرني من شاء بأبيات وصفية أبين له ما فيها من عناصر الاستيعاب » .

ولو لم يكن السيد رجاء النقاش هو السيد رجاء النقاش بكفاياته التي يريد أن يعلن عنها بمثل هذا الصنيع لعاد عشرين سنة الى ما كتبناه ليتعلم العزوف عن ادعاء ما يجهل وصحة الحكم على ما بين يديه ولكنه يصر على أن يبقى بعد الثلاثين كما كان قبل العشرين فلا ينفعه ذلك في صناعة النقد الادبي الذي يتصدى له الآن ولو كانت جرأته على التطاول أضعاف جرأته بالامس على التسليم .

بل لو تعلم مما كتبناه قبل عشرين سنة وكما قلنا لكان جوابه : « إن الرواية الخنفشارية لا نعرفها من كلام المؤلف المزعوم وانها على هذا ليست من اللامعقول وليست عيوبها من عيوبه » .. فيؤدي لأمانة النقد حقها ولا يقع حيث أوقعوه وان كان واقعا فيه وفي غيره بغير حيلة . . »

ثم يكتب العقاد كلمة اخرى في يومياته بالأخبار الصادرة في ٢٤/ ٤/ ١٩٦٣ يشير فيها الى خطاب بعث به القارىء مبارك ابراهيم يشير فيه الى واقعة معينة هي ان رجاء النقاش نشر في كتابه « التماثيل المكسورة » عبارات مترجمة لم يشر الى مترجمها الذي نشرها من قبل في مجلة الكتاب العربي في ديسمبر عام ١٩٤٩ قائلا تحت عنوان : « نصيحة اخرى للسيد رجاء النقاش » في صفحة « ٧٠٨ » من مجلة الكتاب التي صدرت في شهر ديسمبر سنة ١٩٤٩ هذه الاسطر التالية :

انه فرض علي أن اقول لنفسي اني أنا الذي أوردتها موارد الهلاك وان لا أحد في الدنيا مهما يكن عظيما أو حقيرا بقادر على أن يرد موارد الهلاك إلا إذا ألقى نفسه بيده في تلك المهالك اني أحاول ان أقول هذا القول وهذا الحكم القاسي اصدره على نفسي في غير شفقة او رحمة وفي الصفحة « ٧٨ » من كتاب التماثيل المكسورة لمؤلفه السيد (رجاء النقاش) يقول :

« انه واجب علي أن اقول لنفسي اني أنا الذي أوردتها موارد الهلاك وان لا احد في الدنيا مهما يكن عظيما او حقيرا بقادر على ان يدفعك الى موارد الهلاك الا اذا القيت نفسك بيدك في تلك المهالك اني اصدر هذا الحكم القاسي على نفسي في غير شفقة ولا رحمة » .

وفي مجلة الكتاب :

« . . اتخذت الشذوذ والتسكع والمغالاة في التأنق خطة لي في الحياة ومذهبا ، فأحطت نفسي بأصحاب العقول الصغيرة وبأصحاب النفوس الصغيرة وأسرفت في تبديد ذكائي وفي تبذير ما رزقته من شبابي كنت أظنه لا يفنى أبد الدهر وكنت أجد في هذا التبديد والتبذير لذة عجيبة » .

وفي صفحة « ٧٥ » من كتاب السيد رجاء النقاش ترد هذه العبارة بحروفها : « اتخذت الشذوذ والتسكع والمغالاة في التأنق خطة لي في الحياة فاحطت نفسي بأصحاب العقول الصغيرة وأصحاب النفوس الصغيرة وأسرفت في تبديد ذكائي وفي تبذير شبابي الذي كنت اظنه لا يفنى أبد الدهر وكنت أجد في هذا التبديد وهذا التبذير لذة عجيبة » .

وفي مجلة الكتاب أكثر من خمس عبارات أو ست وردت في مقال السيد مبارك ابراهيم عن أوسكار وايلد ونقلت بحروفها في كتاب السيد رجاء النقاش الذي تكلم فيه عن أوسكار وايلد على النحو الذي تقدم .

وقد رجعت الى مجلة الكتاب ولي فيها مقال عن الفن المسرحي فوجدت هذه المطابقة بين العبارات كما نبهني اليها الاستاذ مبارك ابراهيم في خطابه فلا أزيد هنا على نصيحة أخرى اسديها إلى السيد النقاش وأترك له أن يجرد نفسه لوظيفة « النقد التي تصدى لها في الزمن الاخير ليصوغ بقلم الناقد حكمه على هذا التصرف او يحسن تفسيره ما استطاع لانه لا يستغنى عن تفسيره . نصيحة لا نزيد فيها على التنبيه . . فماذا في جعبة النقد البريء من ذخيرة التطاول على الناصحين .

ويرد النقاش في الأخبار في مقال عنوانه « ماذا يريد العقاد » بتاريخ ٢٦/ ٤/ ١٩٦٣ هذا نصه : لم يعد عندي أدنى شك في أن العقاد يحمل في قلبه شيئا ما ضد حياتنا الادبية وقد أصبح هذا (الشيء) يحرمه من راحة القلب وهدوء البال فهو لا يستطيع أن يعيش بدون أن يكون حوله عدد من الضحايا ونسبة عالية من الدماء المسفوكة فهذا المنظر وحده هو الذي يرضيه وهذا المنظر وحده هو الذي يشعره بجبروته وقوته .

ولكن حملات العقاد كثيرا ما تتحول إلى حرب في الهواء مثل حروب دون كيشوت الشهيرة . . وكثيرا ما يصبح العقاد أشبه بطفل شاذ لا يستطيع أن يشعر بوجوده إلا اذا كسر شيئا أو ضرب شخصاً وإذا لم يجد شيئا يكسره أو شخصا يضربه فلا بأس من أن يضرب نفسه لكي يرضي غريزة التدمير فيه .

ويبدو أنني أصبحت في نظر العقاد فريسة جديدة يريد أن يسفك دمها أمام الناس ويقضي عليها . . والحقيقة أنني أفخر بهذا الموقف فكراهية العقاد للناس وسام يعلقه كثير من أفاضل العلماء والادباء في بلادنا على صدورهم .

ولكنني أريد أن أقف لحظة أمام الاتهام الجديد الذي يوجهه العقاد إلي فقد اتهمني العقاد أنني سرقت كلاما بنصه من الأستاذ مبارك ابراهيم ونسبته إلى نفسي .

والحقيقة كما يلي :

اولا : الكلام الذي نسبه العقاد للاستاذ مبارك ابراهيم ليس له وإنما هو ترجمة حرفية لقسم من كتاب اوسكار وايلد الصغير (من الأعماق) وكتاب وايلد أمامي وأنا اكتب هذه السطور (طبعة ١٩٣٨ ـ لندن ـ مقدمة روبرت روس سلسلة مكتبة فونتين أو النافورة)

ثانيا : الكلام الذي استخدمته في كتابي موضوع بين قوسين ومنسوب بوضوح تام لصاحبه الاصلي اوسكار وايلد .

ثالثا : لقد اعتمدت على ترجمة الاستاذ مبارك ابراهيم من باب اختصار الوقت وبعد أن تاكدت من دقة الترجمة ومطابقتها للاصل .

رابعا : لما كان كتابي صغيراً وشعبياً فقد آثرت الا اثقله بالهوامش فلم أنسب أي عبارة مترجمة فيه الى المترجم العربي اكتفاء بذكر اسم صاحب هذه العبارة مباشرة .

فهل هذا هو ما قاله العقاد ؟ . . بالعكس تماما لقد صورني بمظهر الذي سرق كلاما ثم نسبه إلى نفسه .

ومن حق صاحب الترجمة بالطبع أن يطالب بنسبة ترجمته اليه . . ولكن هذه مسألة اخرى غير ما حاول العقاد ان يظهرني به وهي في النهاية مسألة لا تستحق الضجة التي يريد العقاد أن يثيرها ، وان كان في الامر خطأ فهو أمر يسير لا يستحق اثارة الزوابع وهو خطأ يرجع الى سوء تقديري لقيمة الترجمة فلم أكن أتصور أن كل من يترجم كلمة يحرص على نسبتها إليه إلى جانب صاحبها الأصلي ولكن من الواضح وأنا اعترف انني مخطىء في هذا التقدير .

ولكنني أتحدى العقاد ولي اربعة كتب سوف أرسلها اليه أن يكشف فكرة واحدة أو عبارة واحدة أخذتها من غيري ونسبتها الى نفسي . . فهذا هو الميزان الحقيقي إذا أراد العقاد ان يزن الامور بالعدل . إن كان قد عرف العدل في يوم من الأيام .

وكان يجب على العقاد أن يبدأ بنفسه . . فليقل لنا وهو الذي يتشدق بالحديث عن الأدب الروسي والأدب الالماني والأدب الفرنسي رغم أنه لا يعرف إلا الانجليزية . . ليقل لنا من أين قرأ تولستوي أو جيته أو أناتول فرانس؟ألم يقرأ كل هذه الكتب في مترجمات إنجليزية أو عربية؟فلماذا لم يقل لنا من هم المترجمون الانجليز أو العرب الذين قرأ عنهم ترجماتهم عن الألمانية والروسية والفرنسية وهو لم يفعل شيئا من ذلك أبدا فيما كتبه عن هذه الآداب .

ولكن العقاد يغالط ولا يستطيع إلا أن يغالط فهذه هي طبيعته أنه لا يستريح إلا اذا كان على الدوام كما أراد لنفسه أن يكون فهو سوفسطائي تحق عليه تسمية أستاذنا الدكتور مندور له باسم « جورجياس المصري » نسبة إلى جورجياس زعيم السوفسطائيين في اليونان القديمة .

وهو عدو لدود لحركة التجديد في الأدب والشيء الذي لن يغفره لي أو لغيري هو أنني أحد أنصار الجديد في الشعر والمسرح والقصة . . وهو عدو لدود لكل من يوجد في الحياة الادبية ثم لا يذهب الى بيته للحج والركوع والسجود ولست واحدا من حجاجه ولا من الراكعين الساجدين . . ولن اكون ورغم انني لاحظت في الشهور الاخيرة أن العقاد يحاول في كل مناسبة صغيرة أو كبيرة أن يسيء إلى كاتب هذه السطور فانني سأظل مدى حياتي أمسك بقلمي في حب واحترام لكل ما هو جدير بالحب والاحترام في بلادنا وهو كثير والحمد لله وحسبي أنني في نهاية الامر لم آكل خبزي من كتب الدعاية الامريكية ولا من كتب الدعاية الانجليزية أيام الحرب الثانية وأنني شاب بسيط من أبناء جيل الثورة الذين يتطلعون إلى بناء عالم جديد فاضل والذين لم يتاجروا يوما بالسياسة ولا بمدح الملوك في أعياد القيام وأعياد الجلوس وانني لم أنشر في حياتي كتابا على حساب أحد « الوجهاء السعوديين » .

هذا حسبي . . وليفعل العقاد بعد ذلك ما يشاء ، وليقذف باساءاته ومغالطاته في وجه الجميع . . فلن يعطل هجومه على الناس سير الحياة لاننا ـ أراد العقاد أو لم يرد ـ في عالم جديد له قيمه واخلاقه الجديدة التي لم يعد يهزها مثل هذا الاسلوب الذي يلجأ اليه .

ويرد العقاد في يومياته بالاخبار الصادرة في ١ / ٥ / ١٩٦٣ على النقاش تحت عنوان « ملحوظة في ذيل اليومية » نصه :

والملحوظة في ذيل اليومية نعلق فيها على تعليقات السيد « رجاء النقاش » فنقول له عن يقين انها ستضعه في مكان لا يستطيع الهرب منه . . ولا يستطيع كذلك أن يجترىء فيه على عقول القراء . . لأن الجرأة على عقول الناس شيء له حدود .

فالأمانة التي تؤديها للفكر الانساني عمل نضطلع به منذ خمس وثلاثين سنة إذا وقفنا به عند هذا الحد الذي يكفي لجواب السؤال . . وقد كان ذلك قبل ميلاد السيد « رجاء النقاش » ببضع سنوات ولم نكن حين كتبناه نحسب حسابا لمقدمه إلى هذه الدنيا ولا للحج إلى « ندوتنا » يوم الجمعة كما يقول » .

وانما المسألة مع السيد النقاش وأمثاله أنهم يجب أن يستعدوا للصناعة التي يتصدون لها ويدعون فيها حق القيادة الفكرية وليكن في وسعه هو ومن وراءه أن يصيحوا على أقصى طاقة حناجرهم بما صاح به أمثالهم من قبلهم . . فلن يعفيه ذلك من ضرورة هذا الاستعداد .

فليس من اللائق بكرامة القراء أن يتصدى أمامهم للنقد كاتب يجهل موضوعاته . . وذلك ما يصنعه السيد النقاش وما قد صنعه فيما نبهناه اليه حين نسب إلى الاديب الايرلندي « لورنس دوريل » شيئا سماه ثلاثية روائية للجزر اليونانية صدرت بعد رباعية الاسكندرية . . ويعلم من نظر الى كتب هذا الاديب نظرة واحدة أنه لم يصدر ثلاثية روائية بعد تلك الرباعية ولكنها عدة كتب صدرت قبل ذلك وبعد ذلك عن الرحلات في البحر الابيض المتوسط غير مقصورة على جزر اليونان زادت على الأربعة وتناولت بلاد الصرب والبلقان . . كما تناولت جزيرة صقلية .

وليس من اللائق بكرامة الصحيفة التي يكتب فيها ولا بكرامة القراء أن يتصدى للحكم على أعمال أدبية يجهلها ويجهل مناسباتها . . فيقول بالحرف الواحد في صفحته الادبية ١٢ يونيو ١٩٦٢ .

بعد النجاح الساحق الذي أحرزته في أوربا رواية رباعية الاسكندرية التي كتبها الروائي الايرلندي « لورنس داريل » أصدر المؤلف اخيرا رواية جديدة عنوانها ثلاثية.

الجزر اليونانية واجزاؤ ها الثلاثة هي « الليمون الحامض » وتدور أحداثها في جزيرة قبرص وسفالو وتدور أحداثها في جزيرة كريت ثم فينوس والبحر وتدور أحداثها في جزيرة رودس .

والخطأ هنا غير الخطأ في عدد الكتب وموضوعها أن نجاح المؤلف في رباعية الاسكندرية لم يكن له شأن على الاطلاق بتأليفه هذه الكتب لأن كتاب « سفالو » مثلا قد صدر قبل الرباعية بخمس عشرة سنة وقد صدرت الرباعية بعد تمام هذه الرحلات لا قبلها ولا نتيجة للتشجيع الذي لقيه مؤلفها .

وليس من اللائق بالكاتب أن يعمد الى مجلة محتجبة فينقل منها ترجمة الصفحات بحروفها ولا يشير الى المجلة ولا الى مترجم فصولها ثم يزعم أن المقام لم يتسع للاشارة وهي لا تحتاج الى أكثر من ثلاث كلمات . . وقد نوى أن ينتحل الترجمة لانه غير فيها كلمة هنا وكلمة هناك كل عشرة سطور . . فدل بذلك على العجز حتى في أسلوب الانتحال والمداراة .

وليس من اللائق ان يطنب الكاتب في الثناء على رواية ملفقة باسم دورغمات كما صنع في التعليق على مهزلة الهواء الاسود وهو لا يعنيه من الامر الا أن ينشر مباديء الهدم في الأدب ولو لم يعرف منها الا أنها هدم لدعائم الادب الاصيل .

كل هذه وقائع « حرفية » تلزم السيد النقاش ان يعلم ان امانة النقد ليست كلها استغفالا للناس وتهويلا بالادعاء والتزييف ولكنه أبى الا ان يتعلم ما يوحيه اليه طبعه ويدفعه اليه من وراءه فعاد الى بضاعة التزييف والصياح بالاباطيل لا ينزه عنها أمانة ولا حرمة تتنزه عن الزج بها فيما يحيط به من التهم والشبهات .

فما شأن الثورة بما هو مجتريء عليه ومأخوذ بجريرته أمام القراء من الغش والعبث والاستخفاف ؟ ان القلم الذي يسف هذا الاسفاف أضعف من أن ينصر ثورة وطنية أو دعوة انسانية . . وما كان لكاتب صادق أن يتخذ اسم الثورة ستارا يهرب . . وراءه أو يتخذ من حديثها ثمنا لمداراته واستباحة مالا يباح لحامل قلم أمين .

أما « ندوتنا » يوم الجمعة فالسيد النقاش يعلم كما يعلم زوارها أنه لم ينقطع عن ندوة لنا باختياره وهو لو كان أهلا لشهودها لوجد فيها من يعلمه شيئا غير هذه اللجاجة وهذا المحال . . ولكنه زار الندوة مرات لغرض لم يصل اليه وانتهى به الأمر الى اليأس منه . . ولسنا نريد أن نأخذه بحديث يقدر على انكاره . . ولكننا ننقل له ما كتبه بحرفه في أكثر من عدد من مجلة البوليس حيث كتب في عدد الخامس من شهر اكتوبر سنة ١٩٥٨ يقول :

لقد كان العقاد جديرا بأن يصبح أعظم مفكر عربي في النصف الاول من القرن العشرين لو أنه . . تخلى عن عدائه المتطرف للنزعة الاشتراكية . .

وكتب في عدد الرابع عشر من شهر ديسمبر يستشهد بالنقاد الاشتراكيين كما يسميهم - فقال : ان ناقد الجيل الاستاذ محمود العالم قد وضع العقاد في المعارضة لفكرة ان الأدب تعبير عن الحياة .

ولقد كتب في المقال نفسه كثيرا عما سماه عداءنا للاشتراكية فقال مما قال ان هذا العداء ظهر في السنوات الاخيرة ظهورا واضحا عنيفا .

واذا علم القراء اننا لم نكتب كلمة واحدة في معارضة الاشتراكية في الزمن الاول ولا في الزمن الاخير فقد عرفوا ما هي تلك الاشتراكية التي ينتقم لها السيد النقاش ويذكر في مقدمة أبطالها محمود العالم الذي لا خفاء بأمره وعرفوا لماذا انقطع السيد عن تشريف الندوة غير مأسوف عليه . . لقد نبهنا هذا الفتى الى ضلاله بالقول الصريح الذي لا ينساه وان لم يستفد شيئا من ذكره ، وعرفوا ما وراء نقمته ونقمة محمود العالم ومن اليه فيما دأبوا عليه باسم الأدب الحر ، وأدب الحياة ، ووصفناه يومئذ بأنه أدب الانتحار .

ولا يعنينا أمر هذا الفتى كما لا يعنينا أمر الذين يكمنون وراءه ويروجون للأباطيل باسم الادب المتقدم والأدب المنطلق والادب الجديد وليس من وراء ذلك غير الهدم والفوضى وترويج المقاصد التي كان نقاد جيله « العلماء » من المسخرين عليها . .

وسيبقى التنبيه الى هذه الضلالات قائما « لا يفلت منه المحروس رجاء ولا من هم أبرع منه في صناعة الصياح للهرب من ضوء النهار . .»

وتنتهي المعركة بكلمة اخيرة يكتبها رجاء النقاش فيها يدفع عن نفسه كل الاتهامات التي وجهها اليه العقاد في مقال كتبه بأخبار اليوم بتاريخ ٤/ ٥/ ١٩٦٣ عنوانه « مرة اخرى . . ماذا يريد العقاد » هذا نصه .

عندما يتصدى الانسان لمحاسبة الآخرين ومراقبتهم بدقة وعنف فان عليه أن يراقب نفسه أولا فلا يقع في الأخطاء التي يأخذها على غيره ولا يقف في موقف يحاسب الآخرين عليه محاسبة عسيرة .

ولكن الأستاذ العقاد يحمل في يده « عصا غليظة » يضرب الناس بها في أهون الأمور وأيسرها ثم يسمح لنفسه بعد ذلك أن يقع عمدا في أخطاء كبيرة لا يجوز أن يقع فيها أحد فضلا عن رجل يحاسب الناس أعسر الحساب ويقف لهم بالمرصاد .

ويقول الاستاذ العقاد في يومياته الأخيرة انه حمل أمانة القلم أكثر من خمسين عاما متواصلة وكنت أود ان يتذكر امانة القلم هذه وهو يكتب يومياته الاخيرة فليس من أمانة القلم أن ينسب الاستاذ العقاد الى كاتب هذه السطور او الى غيره كلاما لم يقله وليس من أمانة القلم أن ينسب الى كاتب هذه السطور أو الى غيره وقائع لم تحدث على الاطلاق .

فهل من الأمانة الفكرية أن يحرف الى حد التزوير نصا من النصوص ليثبت رأيه وأفكاره . . أليس هذا التزوير من الأمور المعيبة التي لا تليق بصاحب قلم فضلا عن رجل في مثل مكانته وسنه ؟؟ أليس من الأفضل بدلا من أن « يترصد » الأستاذ العقاد مع سبق الأصرار لكاتب هذه السطور ويصوب اليه الاتهامات العنيفة حول خبر خاطىء أو مرجع ناقص وغير ذلك من الأمور التافهة أن يكون هو بمنأى عن هذا العيب الفكري وهو « تزوير النصوص » ؟

يقول الاستاذ العقاد في يومياته انني كتبت في عدد ١٤ ديسمبر سنة ١٩٥٨ من مجلة « البوليس » مقالا أقول فيه : « ان ناقد الجيل محمود العالم قد وضع العقاد في المعارضة لفكرة ان الأدب تعبير الحياة » .

وقد عدت الى المجلة التي يدعي الأستاذ العقاد أنه نقل منها هذه العبارة وعدت اليها وأنا واثق انني لم اطلق في حياتي صفة « ناقد الجيل » على ناقد أو كاتب في الغرب أو في الشرق ذلك لانني لا أميل بحال من الأحوال الى استخدام هذه العبارات التي تحمل أحكاما عامة ونهائية ومطلقة .

وكما توقعت . . لم أجد بالطبع العبارة التي نسبها الأستاذ العقاد الي ، بل وجدت مقالا لي بعنوان « العقاد والجيل الجديد » أقول فيه بالحرف : « وقد تفرع عن موقف العقاد من الاشتراكية موقف آخر هو موقفه من الأدب الجديد فقد وضعه بعض نقاد هذا الجيل وفي مقدمتهم الاستاذ محمود العالم في « موضع » المعارضة لفكرة أن الادب تعبير عن الحياة وتصوير لها وهدفه هو افادتها وتحسينها.

وقد وقف العقاد من الحركة النقدية التي عبر عنها محمود العالم موقفا عدائياومسؤولية هذا الموقف تقع على العالم وعلى العقاد فالعالم قد هاجم العقاد بعنف وبدون رفق أو هوادة ودافع العقاد عن نفسه بعنف ايضا فهو ليس قصير الباع في هذا الميدان فله في العنف تاريخ طويل وعلى ان العقاد اجمالا لم يناصر الحركات الادبية الجديدة التي نشأت خلال السنوات الاخيرة لم يناصر الشعر الجديد ولم يهتم بانتاج أصحابه ولم يلتفت كثيرا الى المسرح والقصة وعلى الأخص ما قدمه الشباب في هذين اللونين .

قرأ العقاد هذه الفقرة ثم ادعى انني أقول « ان ناقد الجيل محمود العالم . . الخ - من أين جاء الاستاذ العقاد بعبارة « ناقد الجيل هذه وكيف يستبيح لنفسه هذا النوع من التزوير » والعبارة التي كتبتها لا تحتمل اللبس ولا الغموض ؟ .

ورغم أن العقاد يزج باسم محمود العالم بغير مناسبة وبطريقة تجرح الضمير فأنا أحب ان اقول للعقاد بكل وضوح ان اختلافي الكامل مع محمود العالم لا يمنعني من أن أحمل له كل احترام وتقدير فهو - مهما كانت آراؤه - شخص جدير بالاحترام والتقدير .

هذا هو لون من « أمانة » الاستاذ العقاد العلمية . . وهي الأمانة التي يريد لنا أن نتعلم منها ونسير على هدي مبادئها ومناهجها المستقيمة ؟

والاستاذ العقاد لم ينسب لي كلاما لم أقله فقط بل ينسب لي أيضا بصورة مؤلمة وقائع لم تحدث على الاطلاق،فهو يوحي في يومياته الى القراء أنني كنت من زوار ندوته الدائمين وانني كنت أقوم بمهمة التجسس على صاحب الندوة وزواره،والحقيقة أن « شرف التجسس على الاستاذ وتلاميذه لم يخطر لي على بال بل ان مجرد زيارة الندوة بصورة دائمة أو غير دائمة هو شيء لم يخطر لي على بال . وأنا لم أذهب الى بيت الاستاذ العقاد الا مرة واحدة في حياتي وكان ذلك منذ خمس سنوات عندما ذهبت مع الصديق سعد الدين وهبة الى بيت الأستاذ العقاد حيث كان سعد يصدر في ذلك الحين مجلة الشهر وكان العقاد يكتب في هذه المجلة . . وقد ذهبنا الى بيت العقاد بعد انتهاء الندوة وقضينا عنده مالا يزيد عن نصف ساعة . . هي كل الوقت الذي أتيح لي فيه شرف رؤية العقاد في حياتي . . وما حاولت قبل هذه المرة التي جاءت بالمصادفة ولا بعدها ان أزور الاستاذ العقاد او أتردد على ندوته . . ثم « أتجسس بعد ذلك عليه أو على اصحابه » .

فماذا يهدف الاستاذ العقاد اليه من « تزوير » عبارة ونسبتها الي ثم « تزوير » حادثة لم تقع على الاطلاق . انه يهدف - كعادته دائما - الى اتهامي بالشيوعية وهو يردد هذا الاتهام بصراحة أكثر في يومياته عندما يقول :

لقد كتب النقاش كثيرا عما سماه عداءنا للاشتراكية فقال مما قال ان هذا العداء ظهر في السنوات الاخيرة ظهورا عنيفا واضحا واذا علم القراء اننا لم نكتب كلمة واحدة في معارضة الاشتراكية في الزمن الأول ولا في الزمن الاخير فقد عرفوا تلك الاشتراكية التي ينتقم لها السيد النقاش . . الخ . .

ومعنى هذا الكلام مرة اخرى أن الأستاذ العقاد يقول بوضوح انني شيوعي .

وردي على هذا الكلام هو أن اختلافي مع الشيوعيين ومع الفكر الشيوعي أمر واضح يعرفه اي قارىء بسيط يتابع ما أكتبه دائما وما كتبته منذ ان اتيحت لي الكتابة حتى اليوم وموقفي من أخطاء الشيوعيين العرب واضح ايضا ومعروف منذ اصطدام الشيوعيين بالثورة العربية القومية التقدمية . ولكن اختلافي مع الشيوعيين هو مسألة عقيدة اومن بها ايمانا فكريا خالصا وهي مسألة تنبع من ايماني بالثورة العربية التي تتفتح باستقلالها وشخصيتها الخاصة على أرض وطننا من المحيط الى الخليج يوما بعد يوم ولست في اختلاف مع الشيوعيين مأجورا لأحد ولا خادما لأية قوة على وجه الارض سوى ايماني بثورة بلادي وشعبها .

اما الاستاذ العقاد فيريد ان يستخدم الاتهام بالشيوعية كوسيلة من وسائل الارهاب ، وهو بهذه الوسيلة يريد ان ينتصر في مناقشاته الفكرية ولو بوسائل غير مشروعة وغير نزيهة .

ولكن هذا الاتهام من كثرة استخدامه وسوء استخدامه أيضا قد أصبح سلاحا لا جدوى منه ولا قيمة له ، وقد أصبحت الدولة وأصبح الرأي العام على وعي كامل بموقف كل كاتب واتجاهه وآرائه الحقيقية الصحيحة .

ثم يقول العقاد انني اتهمته بالعداء للاشتراكية مع انه لم يكتب في حياته شيئا ضد الاشتراكية وأنا بالفعل لا أذكر ان العقاد كتب يوما كلمة ضد الاشتراكية بطريقة مباشرة .

ولكنني أسال الاستاذ العقاد بوضوح سؤالا آخر . .

هل لك كتاب واحد بين كتبك التي تزيد عن السبعين تعالج فيه الفكر الاشتراكي او حاجة مجتمعنا الى الاشتراكية ؟

هل كتبت يوما مع الاشتراكية او عنها ؟

لقد كتب أبناء جيلك عن الاشتراكية وتحمسوا لها . . كتب عنها طه حسين وجعل من دعوة العدل الاجتماعي شعرا يتردد بين سطور المعذبين في الأرض وغيره من كتبه ، وكتب عنها توفيق الحكيم في « الصفقة » بطريقته الفنية الساحرة . . حيث جسد حلم الشعب في العدل والمساواة وسخر من الاقطاعيين سخرية رائعة وجعل سلامة موسى من الاشتراكية شغله الشاغل طيلة حياته كلها .

فماذا كتبت انت عن الاشتراكية وماذا فعلت لها ؟

انه مجرد سؤ ال . . ليس فيه اي نوع من الاتهام ، من الممكن أن نقول أن الأستاذ العقاد أديب لا علاقة له بالفكر السياسي ولكن العقاد على العكس ـ حرص طيلة حياته على أن يقول رأيه في كثير من المذاهب السياسية المعاصرة وفي كثير من الشخصيات السياسية العربية والاجنبية . . فالعقاد قد كتب عن النازية وقدم لها شرحا وتحليلا ثم هاجمها هجوما عنيفا وكتب عن الشيوعية اكثر من كتاب ثم حللها وهاجمها هجوما عنيفا وكتب العقاد ايضا عن الصهيونية وحللها وهاجمها هجوما عنيفا . .

وكتب العقاد عن كثير من الشخصيات السياسية : كتب عن زعيم الصين ومعلمها الثوري صن يات صن وكتب كتابا ضخما عن سعد زغلول وكتب كتابا عن غاندي .

اذن فالعقاد مهتم بالسياسة ومذاهبها ورجالها ومع ذلك فالعقاد لم يكتب لا قبل الثورة ولا بعدها كلمة عن الاشتراكية ولا عن مفكريها وزعمائها . . لم يكتب عن الفكر الاشتراكي في مدارسه الفكرية المعروفة عند الغربيين ولم يكتب عن تجربة عربية واحدة في الميدان الاشتراكي رغم أن الاشتراكية في بلادنا كانت حلم الناس الأكبر قبل الثورة وأصبحت عمل الناس الاكبر بعد الثورة .

فالحقيقة التي أمامنا هي أن العقاد لم يكتب عن الاشتراكية وأنه في ميدانه الأساسي وهو الميدان الأدبي قد وقف في وجه كل التطبيقات المنبثقة عن انتشار الفكرة الاشتراكية وخلال السنوات العشر الاخيرة ظهرت عشرات المسرحيات والقصص والدواوين تعبر كلها عن تجاربنا الجديدة وتتجاوب مع واقعنا الجديد ولم نسمع كلمة حب أو تأييد أو اهتمام من جانب الاستاذ العقاد لشيء من هذا الانتاج بل كل ما سمعناه وقرأناه له هو المعارضة والحرب المستمرة العنيفة القاسية الخالية من كل حنان وتعاطف .

على أنني أعتقد اعتقادا تاما ان الأستاذ العقاد في مواقفه المختلفة هو ضحية أخطاء فادحة في فهمه للفكر السياسي وقد جرت عليه هذه الاخطاء بل وجرت على حياتنا الادبية كلها كثيرا من مواقفه الغريبة في الأدب والحياة . . هذه المواقف التي كان من بينها عداؤ ه الشديد للجيل الجديد . .

فانا اعتقد ان الاستاذ العقاد لا يفرق بين الاشتراكية والشيوعية وانه يخلط خلطا شنيعا بين المفهومين ولذلك فهو لا يكتب عن الاشتراكية ظنا منه أن الاشتراكية هي كلمة « تغطية » للشيوعية وليس غريبا أن يخطيء الاستاذ العقاد في فهمه السياسي مثل هذا الخطأ الفادح .

فهو الذي كتب سنة ١٩٤١ في مجلة الهلال الصادرة في أول فبراير من ذلك العام مقالا يقول فيه :

« ان الانجليز حلفاء طبيعيون للشرق العربي لأن الشرق العربي حليف طبيعي للانجليز » . .

وقد يكون مبرر هذا الكلام أن معظم شعوب العالم قد تحالفت في ذلك الحين ضد النازية . . ولكن ما هو مبرر هذا الكلام الذي يقوله العقاد في نفس المقال :

ان الانجليز حلفاء طبيعيون لبلاد الشرق العربي بأسره لأسباب متعددة لا لسبب واحد فمن تلك الأسباب أنهم يؤمنون بالديمقراطية ومبادىء تقرير المصير . . ومن تلك الأسباب أن مصالحهم لا تضطرهم اضطرارا الى استعباد الأمم العربية ولا توجب عليهم أن يسلبوا خيراتها ويقمعوا أبناءها . .

وفي نفس المقال كلام غريب يقوله العقاد عن الهند ومعناه أن الهند تعاني من مشاكلها الخاصة ولا تعاني من الانجليز .

ولا يوجد اي استقراء عميق للتاريخ ولا اي فهم سياسي سليم . . لا يوجد شيء يبرر مثل هذا الكلام بحال من الأحوال سوى الاضطراب الكامل في الفهم السياسي وارتباك الموازين التي يزن بها العقاد أمور السياسة في الفكر والعمل على السواء .

وهذه العقلية السياسية المرتبكة هي التي ينظر بها العقاد الى الأمور . . وعلينا نحن بعد ذلك أن نشرب المر من أخطاء العقاد ونتحمل النتائج التي يصل اليها .

ليس غريبا بعد ذلك أن يخلط الأستاذ العقاد بين الشيوعية والاشتراكية . . وهو الذي لم يستطع ان يفهم هل للانجليز مصلحة في استغلالنا ام لا ، وهل هم استعماريون ام أنهم طلاب تعاون صادق مع الشرق العربي وغير الشرق العربي . . وليس غريبا بعد ذلك أن يبتعد العقاد عن الكتابة في الاشتراكية. وان يتصور كل تطور وتجديد في الأدب دعوة متسترة الى الشيوعية . .

وعلى العموم فان العقاد يستطيع أن يدعي لنفسه كل شيء . . الا انه كاتب اشتراكي أو نصير من أنصار الاشتراكية في مواقفه أو أعماله الفكرية . .

وأخيرا . . فأنا لا أريد ولا أملك ان أتهم احدا في وطنيته أو اخلاصه . . فالتهمة التي أوجهها للعقاد هي بكل تحديد ووضوح . . ان تفكيره السياسي مليء بالاخطاء

الفادحة . . وأن مخاوفه وأوهامه التي بينها حول أدباء الجيل الجديد هي من صنع افكاره الخاطئة وليست من صنع هؤلاء الأدباءهوان أساليبه في الهجوم على من يختلفون معه لم تعد اساليب مجدية ولا نافعة . . ولن تعود بالضرر الا على اصحابها . . فما عاد وعي الدولة ولا وعي الرأي العام يتأثران بمثل هذه الأساليب العقادية في الارهاب والتخويف .

وما عادت اجهزة الامن الوطنية الصلبة تستجيب لمثل هذه الاساليب .

احمد عبد المعطى حجازي

موقف العقاد من جماعة الشعر الحديث أو الشعر المرسل موقف قديم . . لعله منذ معركته مع الدكتور محمد مندور حيث كانت المعركة في جانب من جوانبها حول هذا اللون من الشعر .

لهذا لا نستغرب الخصومة الادبية بين العقاد والشعراء المحدثين ومنهم الشاعر أحمد عبد المعطى حجازي ولقد سجلت المراصد الادبية الكثير من مقالات الهجوم التي كان يكتبها العقاد حيث يرى هذه الجماعة لا تدعو الى التجديد في الشعر وإنما الى التخريب في هذا الفن العظيم . . وقد كان هجوم العقاد على هؤلاء الشعراء هجوما عنيفا . . فهو لا يرى ما يكتبونه شعرا وانما يراه كلاما منثورا لا أكثر ولا أقل .

وقد استفز هذا الموقف الحاد من العقاد الشعراء المحدثين فرأيناهم يدافعون عن فنهم الشعري ويرونه أكثر مرونة وأقرب الى الوجدان من الشعر التقليدي .

وقد اتخذ هجومهم أكثر من شكل . فتارة بالنثر وتارة بالشعر . . وثالثة بالنثر والشعر معا . . وها هو الشاعر أحمد عبد المعطى حجازي . . يهجوه بقصيدة طويلة نشرت في الأهرام في ٢٢ يونيو ١٩٦١ يقول فيها مخاطبا العقاد :

من أي بحر عصى النزع تطلبه
ان كنت تبكي عليه . . نحن نكتبه
يا من يحدث في كل الامور ولا
يكاد يحسن أمرا أو يقربه
تعيش في عصرنا ضيفا وتشتمنا
انا بايقاعه نشدو ونطربه
وانا نمنح الايام ما طلبت
وفيك ضاع من التاريخ مطلبه

وفيك لا أمسنا زاه ، ولا غدنا
وفيك أبهت ما فينا وأكذبه
وتدعي الرأي فيما أنت متهم
فيه ، وتدفعنا عما تخربه

الى آخر أبيات هذه القصيدة التي ترد على اتهام العقاد لشعراء هذه المدرسة الحديثة وبأنهم يلجأون الى التجديد عجزا من اتباع الشعر العمودي . فكتب عبد المعطى حجازي مهاجما العقاد بالطريقة الشعرية التي يفضلهاوهي الطريقة التقليدية التي يدافع عنها دائما ويبدو أن هذا الموقف مع غيره من المواقف من العقاد غير معترف بما يسمى الشعر الحديث هذا من ناحية . . ومن ناحية ثانية جعل أحمد عبد المعطى حجازي يتولى الدفاع عن نفسه وعن جماعته الذين يمثلون الشعر الحديث .

فالعقاد يكتب في يومياته بالأخبار مقالا عنوانه « الشعر . . قبل مهرجان الشعر » بتاريخ ١٣/ ١١/ ١٩٦٣ فيه يتحدث عن الشعر . . وكيف انصرف في الآونة الاخيرة الى الشعر الحر الذي لا يلتزم الوزن أو القافية . . بحجة أن الوزن والقافية يشكلان صعوبة على القارىء فيقول :
الشعر . . قبل مهرجان الشعر .

ما رأينا عدوا للشعب بلغ من الظلم له والقسوة عليه والاستخفاف بعقله وذكائه بعض ما بلغه أولئك المتيمون المتلهفون الذين يتهمونه بالجهل وسوء الفهم ويزيدون على ذلك أن يسجلوا عليه دوام هذه التهمة غدا وبعد غد الى يوم الدين بغير أمل في تبديل ولا تحويل وبغير احتمال بعيد أو قريب للتحسن أو التحسين .

يدعون الى ترك الكتابة بالفصحى وتعميم الكتابة باللهجات العامية لأنهم يستكثرون على الشعب أن يفهم كلاما باللغة الفصيحة ولو كتبه كاتبوه بلغة الصحافة التي لا فرق بين أكثرها وبين لغة السوق والطريق غير حركات الاعراب في أواخر الكلمات ثم يسجلون عليه أن يظل على جهله هذا مدى السنين ويدعون الى ترك الوزن في الشعر لأن الشعر الموزون لم يسلك سبيله الى قلوب الشعب ، وقد يجعله ترك الوزن وسطا بين الزجل والمقال المنثور .

ويدعون الى الهبوط (بمستوى الثقافة) لأن الثقافة العالية غير مفهومة عند سواد القراء .

هذه دعوات محبي الشعر المتيمين فكيف تكون دعوات الاعداء الناقمين ؟

هل من محبة الشعب أن يبلغ اليأس منه غايته التي لا أمل وراءها بعد عشر سنوات أو بعد عشرين سنة ؟

وهل من يضمر الأمل في تقدم الشعب وتقدم ادراكه للثقافة واللغة بعد عشرين سنة يملك عقله حين يشير عليه بهدم لغته واهمال تراثه من أجل حالة عارضة تزول في أقل من نصف حياة الجيل الواحد اذا قدرنا للجيل المشترك قرنا من الزمان .

على ان الحق الصراح الذي نلمس دلائله في كل يوم وفي كل مكان ان شعبنا لم يعجز عن فهم اللغة الفصحى ولم يذهب عنده كلام الكاتبين بها سدى في الصحافة ولا في خطب المساجد او المحافل السياسية .

ولم يكن الشعب غريبا عن فهم الفصحى وهي موزونة على أوزان البحور العروضية فضلا عن المنثور منها أو المكتوب بلغة الصحافة اليومية .

وقبل خمسين سنة ـ ولا نقول في أيامنا هذه ـ كان عامة الشعب يتغنون على قوارع الطرقات بأناشيد سلامة حجازي في الحماسة والغزل وأشيعها على الأفواه قصيدة الفخر على لسان صلاح الدين :

ان لم أصن بمهندي ويميني ملكي فلست اذن صلاح الدين

وأشيعها في الغزل قصائد شهداء الغرام وأشهرها :

اجوليت ما هذا السكوت ولم اكن لأعهد منك الصمت عني في قربي

والى اليوم نسمع في الطرقات غناء الكبار والصغار بأبيات شوقي التي يغنيها عبد الوهاب وبفون فيها :

لم ادر ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدي فطواك

او بأبياته الدينية التي تغنيها أم كلثوم وهي منظومة بأسلوب البردة وعلى منهجها في المعاني والكنايات .

وما كان الوزن يوما بالحائل بين العامة وفهم الكلام او التعبير به عما أرادوه فان الأزجال العامية كلها منظومة على أوزان البحور العروضية بل على أصعب من هذه البحور وأكثرها

عناية بضروب الجناس والمحسنات اللفظية ولم يحل وزن الزجل دون اقتدار الناظم على تسجيل الحوادث التاريخية وأسماء الأبطال المشهورين بها قبل مائة وخمسة وستين عاماً ، ولا نقول في هذه الأيام بعد انتشار الكتابة والقراءة وامتلاء الحضر والريف بمعاهد التعليم.

ففي سنة (١٢١٣) هجرية كانت حملة نابليون تنظم في ملحمة يحفظها الشعب ويذكر فيها الناظم سنين التواريخ وأسماء المجاهدين على مثال هذه الابيات .

في عام ثلاثة بعد عد العشرة   والألف والمايتين أشاع الامة

أن الفرنسيس بالمراكب صالوا   في اسكندرية بالقتال في همة

مير اللوى ابراهيم سريعا عدى   الى ابى ايوب يريد المشورة

قال له انا وحدي بقوة ربى   اجعل عساكرهم تعود مكسورة

اما ابو مرزوق نصب في بولاق   وصحبته الباشا ورامتراس

قال للرعايا ساعدوني لله
في نصب دالمتراس ونادوا الناس الخ . الخ . .

وناظم صعيدي هو الذي يتغنى لمحبوبته بلغة الوزن والجناس والكتابة والتورية :

خايف أقول لا يقول له
والقلب مشغول وراجف
أبقى قولي له ياقله
حين توردي ع الشفايف .

فاذا كانت صعوبة الوزن على « الشعب » هي التي تبكي عيون المتيمين المساكين اشفاقا عليه ورحمة به فليتفضل واحد منهم ـ بدلا من ارسال حفنة حارة من الدموع أن يدلنا على بيت واحد باللغة الفصحى أصعب وزنا وأكثر تنميقا وتحسينا من هذه المنظومة التي لا

حجاب فيها بين القلب والقلب في صميم الشعب ولا نزال نسمعها اليوم في أقصى الصعيد كما سمعناها في ماض بعيد يبلغ الخمسين من السنين أو يزيد .

وبالله عليكم يا متيمون يا « ذائبين » من الهوى والجنون .

أهو الشعب الذي تهيمون به أو هو معشوق آخر تهدرون من أجله كل شعب على الأرض وأولهم هذا الشعب الذي لا نجاح له في هدم تراثه ولا في تضييع لغته ولا في فقدان الرجاء في كل تقدم وكل ارتقاء الا أن يكون هبوطا الى الحضيض ورجوعا الى الوراء ؟

قولوها كلمة صريحة على غير العادة منكم وممن تسترونه وراءكم وأجركم على ذلك المعبود المستور ، ولا خفاء به بين السطور ولا فوق السطور .

ومن بحر الشعر في هذا الاسبوع الذي يسبق مهرجانه يخرج لنا هذا السؤال عن مولد الشعر في فجر التاريخ هل هو سابق لمولد النثر أو كان مولد النثر سابقا عليه ؟

يقول صاحب السؤال « عبد الصمد احمد مجذوب » انه سمع في أحاديث مذاعة توكيدا بأن النثر سابق للشعر بالطبع . . مما يذكرني برأي لي نشرته قبل سنوات يخالف هذا الرأي فيسألني اي الرأيين الآن هو الصواب ؟

والصواب البديهي « بالطبع » أن الشعر هو الفن الأسبق لجميع الفنون وليس لفن الكلام المنثور دون سواه .

ولكن الذي جزم بسبق النثر « بالطبع » انما يلتبس عليه الامر فيحسب ان النثر مرادف للنطق بألفاظ الكلمات الجارية على كل لسان .

وليس هذا هو المقصود « بالطبع » لأننا لا نقول عن الصبي المتكلم انه « ناثر » ولا عن المتحدثين في أحاديث المعيشة اليومية انهم ناثرون .

هؤلاء متكلمون أو ناطقون ولا يقال عنهم انهم « ناثرون » الا اذا انتقل الكلام الى فن مكتوب أو مسموع يقرن في التاريخ بفن الكلام المنظوم .

وينقسم « الكلام الفني » الى أقسامه الثلاثة النظم والنثر والخطابة .

ولا محل للشك في سبق الشعر بالطبع .

لان الانسان تغنى بالصوت الموزون والكلام الموزون أو بالشعر كيف كان قبل أن تكون للكتابة النثرية قاعدة وقبل أن يكون للكلام الملفوظ أو المكتوب نسق يدخل في عداد الفنون والصناعات .

وكذلك تغنى الانسان « بالطبع » قبل ان يتطور المجتمع الى هيئة منتظمة تستخدم فيها الخطابة ويظهر فيها الخطباء من الزعماء وغير الزعماء .

وليس مما يتصوره العقل أن تكون هناك رسالة نثرية أو خطابية سابقة لترديد الغناء ولو كان من قبيل ترجيع الاصداء فيما دون عالم الانسان من عوالم الاحياء .

وإلى هنا ينتهي رأي العقاد . . والذي يبدو أن فيه هجوماً عنيفاً على أسلوب الشعر الحر .

ويرد الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي بمقال عنوانه « العقاد يفبرك الشعر » وظاهر من عنوان المقال ـ الذي نشر بمجلة روز اليوسف في ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ أنه يتخذ وجهة هجومية هو صحيح يتولى مركز الدفاع . . الا أنه دفاع من النوع المهاجم حيث يقول :

عندما قرأت الرأي الذي كتبه العقاد في يومياته عن مهرجان الشعر استغربته . . وتأكد لدي أن العقاد في هذه الايام يحكمه الهوى أكثر مما تحكمه أصول النقد . . وأنه يتحدث عن مهرجان الشعر كما يتحدث البائع عن الصنف الذي يبيعه ويريد له أن يروج حتى لو اضطر الى أن يخالف ذوقه ويغالط ضميره .

يقول العقاد في يومياته ان المهرجان كان حجة قائمة للشعر العربي في هذا العصر بين سائر عصوره الزاهية وانها الحجة التي تحفظ للشعر العصري مكانته المرعية عند المقارنة بينه وبين الشعر في عصور اللغة العربية من ماضيها الى حاضرها . . فقد ألقيت في المهرجان بضع عشرة قصيدة على الأقل ترتفع في فن الصياغة الى الذروة العليا من طبقات النظم التي ارتفع اليها القصيد العربي في تاريخه العريق منذ أقدم عهود الجاهلية .

والواقع انني احترت في قصد العقاد من هذا الكلام . . هل هو يمدح المهرجان بما يشبه الذم . ام يذمه بما يشبه المدح ؟

انه يقرر أولا أن الشعر الذي ألقى في المهرجان دليل على أن الشعر في هذا العصر لا يقل ازدهارا وروعة عنه في ازهى عصوره الماضية .

ولكنه حين يتحدث عن القصائد النى رآها جيدة . . يقصر حديثه على فن الصياغة وطبقات النظم وغير ذلك من الالفاظ التي تصف شكل القصيدة ولا تتحدث عن اثرها في النفس .

فهل تحول العقاد واصبح شوقيا ؟ أم أنه ما زال العدو اللدود للبلاغة اللفظية ولكنه يسخر سخرية بليغة من الشعر السخيف الذى القى فى المهرجان ؟

الذي لا شك فيه أن مقلدي شوقي قد اكتسحوا المهرجان هذا العام . . كما اكتسحوه في العام الماضي . . عزيز اباظة . . احمد رامي . . صالح جودت . . علي الجندي . . محمد عبد الغني حسن . . وآخرون لا يجيدون حتى النظم .

وليس المهم الآن ان يعرف هل أصبح العقاد شوقيا بهذا الدليل ام انه ما زال كما هو لكنه لا يجد لتمثيل الشعر التقليدي الا هؤلاء الذين يقلدون شوقي .

المهم هو أن نعرف نصيب ما قالوه من الشعر .

لقد قال رامي وعزيز اباظة وصالح جودت ثلاث قصائد في الآثار . . رامي قال في معبد أبي سمبل . وعزيز أباظة قال في آثار العرب في الأندلس والقصائد الثلاث أضعف كثيرا من القصيدة التي قالها شوقي في قصر أنس الوجود . . وانتقدها العقاد بشدة في الأيام الخالية .

قف بتلك القصور في اليم غرقى .
ممسكا بعضها من الذعر بعضا .
كعذارى أبدين في الماء بضا .
سابحات به واخفين بضا .

لقد قال العقاد في نقده لهذه القصيدة كيف تكون هذه القصور غرقى ومذعورة ثمْ يشبهها شوقي في البيت التالي بالسابحات ولقد تعلمنا من هذا التساؤ ل ان الوصف في القصيدة ليس هدفا في ذاته وانما هو طريقة يعبر بها الشاعر عن حال من أحوال نفسه .

فاذا نظرنا الى قصيدة رامي من وجهة نظر العقاد وجدنا أن رامي يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه شوقي .

يقول رامي محدثا معبد أبي سمبل .
تطلع الشمس ثم تغرب ما بين روابيك .
بكرة وأصيلا .
فاذا انجاب عن مناكبك الليل
وولى الظلام عنك فلولا
وبدا الفجر ثم اشرقت الشمس
وجرت من الضياء ذيولا
لعب النور في عيون تماثيلك
حتى أرسلن طرفا كليلا

ونثر لونه البهي عليها
ذهباً سائلا وتبرا مهيلا
واذا اقبل المساء ومالت
شمسه للمغيب تنوي رحيلا
عكست صبغها على السحب
فارتد الى النيل مرمراً مطلولا

واول ما يلاحظ في هذه الابيات وفي القصيدة كلها كثرة التراكيب الشائعة التي كنا نحفظها في المدارس لننثر ما في موضوعات الانشاء من أمثال (ولى الظلام عنك فلولاً وجرت في الضياء ذيولا وتنوي رحيلا الخ . .
ونسأل الشاعر لماذا قال بكرة وأصيلا وهو يتحدث عن طلوع الشمس وغروبها ؟ هل يجهل أحد أن الشروق يكون في البكور وأن الغروب يكون في الاصيل ؟ . . ولكن . . ان الشاعر عليه أن يكمل البيت بأي كلام حتى ولو كان يمثل هذه السذاجة .

ونسأل الشاعر . هل تتفق صورة التماثيل التي تنظر نظرات كليلة مع صورة الذهب السائل والتبر المهيل ؟

ثم ماذا في صورة الذهب السائل والذهب المهيل هذه من الجلال والروعة ؟

ونسأل الشاعر لماذا ترك التماثيل واخذ يصف السحب القرمزية . . التي تنعكس صورتها على مياه النيل ؟

وأخيرا نسأل العقاد . . هل يرى هذه القصيدة دليلا على ازدهار الشعر في هذا العصر ؟

وما هي القصائد التي تزيد عن بضع عشرة قصيدة والتي يرى العقاد أنها ترتفع الى الذروة العليا في فن الصياغة .

ان العقاد يحدد هذه القصائد ولا يحدد أسماء اصحابها حتى نستطيع ان نناقشه في ذلك ان كان لنا فيها رأي اخر .

ولكن العقاد يخص قصيدة باعجابه هي قصيدة الفتاة التي فازت بالجائزة الاولى في مسابقة الشعراء الناشئين حيث يقول في يومياته هذه التي تحدث فيها عن المهرجان .

وقال:من الفائزين بالجوائز فتاة في طبقة من الشاعرية ترشحها لمستقبل ثابت في مجال الشعر المبتكر المطبوع والغريب ان يتحدث العقاد عن هذه القصيدة بالذات كمثل على

الشعر المبتكر المطبوع . . والغريب قبل هذا أن تفوز هذه القصيدة بالجائزة الاولى القصيدة اسمها (يا دولة العرب) وهي تبدأ هكذا .

خذي مكانك فوق السبعة الشهب فقد بلغت المنى يا دولة العرب
وفاخري بطلاك الجيل وابتهجي فليس في الارض اسمى منك في النسب
مضت سنون ودالت بينها امم . وشمس مجدك لم تأفل ولم تغب
أين الحضارات مهما كان مظهرها مما بلغت من الأمجاد والحسب
بنوك من قبل في تاريخهم عجب هارون سجله في عصره الذهبي
لك المفاخر ماضيها وحاضرها مهما تتابعت الازمان لم تغب
فيا بني الغرب غضوا من مفاخركم لستم لنا الند في علم ولا أدب

اين الابتكار في هذا الكلام . . الذي لا يكاد يسمعه الانسان الا ويتذكر قصيدة ركيكة اخرى مطلعها

الله اكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

ويتذكر في نفس الوقت الفرق بين هذا السخف وبين قصيدة أبي تمام في فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

أين الابتكار يا استاذ ثم أين هو الشعر المطبوع في هذه القصيدة ؟

من يصدق أن هذه الخطبة المنبرية هي ذات نفس فتاة في الثامنة عشرة من عمرها تعيش في هذا العصر ؟

وهل يمكن أن تعطى جائزة الشعر لفتاة لا تعرف الفرق بين الدول والامم

فتقول دالت أمم يعني انقرضت .

والامم لا تنقرض ولا تذهب . . وانما الدول هي التي تصاب بهذا الداء .

والفتاة الصغيرة بكل سذاجتها تقول للغربيين انكم لستم ندا لنا فى علم ولا أدب . . وهذا طبعا صراخ اطفال لم يكن من الواجب تشجيعه بجائزة أولى وبالقائه في مهرجان الشعر العربي ثم بالكتابة عنه كدليل يرشح الفتاة لمستقبل ثابت في مجال الشعر المبتكر المطبوع .

ومع ذلك لقد سمعنا في المهرجان قصائد جيدة . . صحيح انها لا تبلغ هذا العدد الذي أعلنه العقاد جزافا وليس هذا عيبا في المهرجان . . وانما العيب ان يلقى الى جوارها هذا للركام الهائل الذي زاد عن خمسين قصيدة في مهرجان الشعر العربي .

وإلى العدد القادم لنتحدث عن الشعر الحقيقي الذي القي في المهرجان . . فأما الزبد فيذهب جفاء . . وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

. لكن على الرغم من ذلك لا ننسى للشاعر احمد عبد المعطي حجازي موقفه المؤيد للعقاد وثقافته الموسوعية . . حين هاجمه ابراهيم الورداني . . وهو ما ذكرناه في الصفحات السابقة فيبدو ان جماعة الشعر الحديث كانوا يريدون ارضاء العقاد . . لكن العقاد لم يستطع ان يتراجع عن موقفه المهاجم للشعر الحر . . وهذه عادته دائماً .

صلاح عبد الصبور

موقف العقاد من الشاعر صلاح عبد الصبور . . هو نفس موقفه من الشعر الحديث بصفة عامة فهو لا يرى هذا الاتجاه في الشعر تجديدا . . بل يراه على العكس من ذلك تخريباً في الشعر ويقول عن هذا الشعر في حديث له بمجلة الجيل نشر بتاريخ ٢٧/١٠/٥٨ هذا الكلام الذي يكتب الآن ليس شعرا مجددا او غير مجدد انه كالغناء بلا أنغام ولا فن ولا طرب فكيف ندعي انه غناء .

وهكذا يرى العقاد أن الشعر الحديث ليس شعرا لأنه ليس موزونا ولانه مقتنع بوجهه نظره هذه لا يستمع الى الذين يثبتون له ان هذا الشعر . . شعر موزون مقفى ولكن على غير نظام الوزن والتقفية في الشعر التقليدي .

وفي مقدمة هؤلاء الذين يؤكدون للعقاد أن الشعر الحديث . . شعر موزون ومقفى صلاح عبد الصبور لكن العقاد لا يقتنع أيضا بما يقوله صلاح عبد الصبور اوحتى بشخص صلاح عبد الصبور لهذا نراه يقول عنه في حديث صحفي بمجلة روز اليوسف نشر في ١٥ مايو ١٩٦١ حين يسأل عن الشعر الحديث وهل قرأه فيرد متسائلا : قرأت ماذا . . هل

تريد مني أن أقرأ الكلام الذي يكتبه (البتاع اللي اسمه صلاح عبد الصبور) . . إنني أتحدى عبد الصبور هذا ان يقرأ عشرة أسطر من النثر دون أن يخطى في تشكيل او نطق بعض كلماتها . . » .

ويستمر العقاد في هجومه على الشعر الحديث وأنصاره وفي مقدمتهم صلاح عبد الصبور في كل مناسبة وفي كل مقال يكتبه عن الشعر الى أن يكتب في يومياته بالأخبار موضوعا عن الشعر الشعبي فيه يهاجم الشعر الحديث حيث يقول في المقدمة : من الحجج الواهية التي يتمسح بها أنصار الشعر السايب وأعداء الوزن والقافية انهم يتعللون بالغيرة الشعبية فيزعمون ان الغاء الوزن والقافية يقرب الادب من الشعب ويقولون ويعيدون في ان الشعر الموزون المقفى ترف بورجوازي يتعالى على المدارك الشعبية ويصعب على السامع الشعبي أن يتتبعه بالفهم أو بالحفظ والرواية .

وقد رد صلاح عبد الصبور مدافعا عن نفسه كواحد من جماعة الشعراء المحدثين وعن الشعر الحديث في مقال نشره بجريدة الاخبار بتاريخ ١٧ يوليو ١٩٦١ هذا نصه .

عبثا نحاول نحن الشعراء المحدثين أن نؤكد لبعض الادباء والنقاد أن شعرنا الحديث موزون ، تجري موسيقاه العروضية على نفس الأوزان التي دونها الخليل بن احمد . وكنت أظن أننا لن نحتاج الى هذا التاكيد وأن بعض أساتذتنا وزملائنا من الأدباء والنقاد سوف يعفوننا من هذا البيان لو قرأوا ما كتبنا وتتبعوا انتاجنا الفني دون تحيز سابق او ميل قديم ولكن الهوى في حياتنا الادبية يغلب الحجة الى حين ويوشك ان يحجب وجه الحق فيقف انصار الشعر الجديد عندئذ وظهورهم إلى الحائط وكيف لا يقفون هذا الموقف وهم متهمون بالتخلي عن الوزن والقافية وبالكلام السايب .

والاستاذ العقاد يكتب في اخبار اليوم ، مقالا ممتعا عن الشعر الشعبي ، لا نستطيع أن نعترض عليه ولا نستطيع كذلك أن نعترض على قوله ان السليقة الشعبية تأبى أن يكون الشعر « سايبا »، ان لها اوجها في التهنن حين تنظم وتشعر فتلتزم هذه الموسيقية العروضية التزاما قد يجاوز المدى الذي يصطنعه الشعر المعرب الفصيح .

ولكن الواقع أنه لا صلة بين بحثه ذاك وبين قضية الشعر الجديد الا ما القاه الأستاذ العقاد في السطور فهناك أكثر من نقطة في هذه الكلمة القصيرة يحلو لي ان اناقشه فيها دون ان اتعرض للمقال القيم الذي كتبه العقاد عن الشعر الشعبي .

واولها :

ـ أن الشعراء المحدثين أعداء الوزن والقافية . .

والاستاذ العقاد ، وهو من هو ، سعة اطلاع لعلـه أول ما يتميز به بين كبار أدبائنا قد قرأ ولا شك دواوين نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وفدوى طوقان ونزار قبانـي وسلمـى الخضراء الجيوسي وكمال ناصر وأحمد حجازي ويشرفنـي أنني أرسلت اليه بالبريد ديواني الأول ويسعدني لو كان قد اجال فيه نظرة . . الأستاذ العقاد يعلم ان كل ما حوته هذه الدواوين موزون احكم الوزن وأرعا لتفعيلات الخليل بن احمد ، وأن قصائد كل هذه الدواوين تجري على أبحر الكامـل والوافـر والمتقارب والرجـز والخفيف الى آخـر هذه الابحر ، وان كل ما فيها من مخالفة للنمط الشعري المتوارث هو اعتبار التفعيلة الواحدة بنيانا عروضيا متكاملا يستطيع الشاعر في انائه ان يسكب انفعاله الشعري وان ينسق هذه الآنية كما يوحي له سيل هذا الانفعال او قطره . . وهذا التجديد ليس مبتور الصلة بتراثنا العربي الشعري ففي باب المجزوءات في العروض العربي مدخل واضح إلى هذه الخطوة التجديدية ، ولفت من القدماء الى امكانية تنويع عدد التفعيلات في القصيدة الشعـرية واذكر الآن قصيدة للعقاد في ديوانه عابر سبيل عنوانها « سلع الدكاكين في يوم البطالة » يقول فى مطلعها :

مقفرات

كل أبواب الدكاكين على كل الجهات

تركوها أهملوها .

يوم عيد عيدوه

ومضوا في الخلوات

والوزن العروضي لهذه القصيدة هو

فاعلات

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلات

فاعلاتن فاعلاتن

فاعلاتن فاعلاتن

فاعلاتن فاعلاتن

فعداؤ نا اذن للوزن ليس أشد من عداء الأستاذ العقاد له واغلب ظني أن المتنبي لو بعث من مرقده ورأى ما فعل الاستاذ العقاد بالعروض بل بالشعـر كلـه ، في هذه القصيدة ، لكانت لهجته في الحديث عن هذه القصيدة اكثر من لهجة الأستاذ العقاد في الحديث عن الشعر « السايب »!

أما القافية فالقدماء انفسهم لهم محاولات في التحلل منها وان كانت الأمثلة قليلة ولكن الأهم هو تنويعها الذي عرفته الموشحة والرباعية والخماسية والارجوزة وغيرها ، وقد كان هذا التنويع اقرارا من القدماء على اختلاف العصور بأن القافية الموحدة كثيرا ما تكون قيدا يحول دون الوفاء للمعنى .

والقافية ليست جوهرا مقصودا لذاته في الشعر بل هي اجتهاد لخلق نوع من الموسيقى يتعاون مع الوزن في معاونة الانفعال الشعبي على الوصول الى الاذن ثم القلب وفي النماذج الجيدة من شعرنا الحديث يتوافر هذا العنصر الموسيقى عن طريقي الوزن والقافية المتراوحة ، غير المتعمدة ، حتى لتوشك موسيقية بعض النماذج أن تصل في مستواها النغمي الى احفل ابيات الشعر القديم بالموسيقية .

وليسمح لي الاستاذ العقاد ان استشهد بهذا المقال من قصيدة « شنق زهران » لصلاح عبد الصبور

شب زهران قويا .
ونقيا
يطأ الارض خفيفا
وأنيقا
كان ضحاكا ولوعا بالغناء
وسماع الشعر في ليل الشتاء
ونمت في قلب زهران زهيرة
ساقها خضراء من ماء الحياة
تاجها أحمر كالنار التي تصنع قبله
حينما مر بظهر السوق يوما
ذات يوم
مر زهران بظهر السوق يوما
واشترى شالاً منمنم
ومشى يختال عجبا مثل تركي معمم
ويجيل الطرف ما احلى الشباب
عندما يصنع حبا
عندما يجهد ان يصطاد قلبا

وثانيهما قول العقاد .

ان الشعراء المحدثين يتعللون بالغيرة الشعبية ويزعمون أن الشعر الموزون المقفى ترف بورجوازي هذا كلام تفوح منه رائحة السياسة وأنا اؤثر ان يظل حديثنا في مستوى الفن ، ولكني اوضح حقيقة قد تعني الكثيرين ممن يعرضون لهذا الموضوع .

وهذه الحقيقة هي ان حركة الشعر الجديد حركة واسعة لها شعراؤها في كل أرض العروبة ، وان هؤلاء الشعراء كبشر وأناس يعيشون على هذه الارض يختلفون في منازعهم . . وحقيقة اخرى هي ان هذا الاختلاف نفسه نلمحه في شعرائنا الكلاسيكيين أنفسهم ومن هذا يتضح أن اعتناق مذهب فني لا يعني اطلاقا اعتناق مذهب سياسي مناظر له ، والتجديد في اللغة والادب ليس وقفا على فئة بعينها .

فليكف اذن المتحكون بالسياسة عن فتح بابها لأننا لو فتحنا هذا الباب في نقاشنا الادبي لما امكن أن ينسد إلا بمشقة .

ولنتحدث في مستوى الفن
وفي مستوى الفن نقول :

ان الهدف من التجديد الشعري ليس ان يصل الشعب الى فهم الشعر فنحن ندرك أن كل فن من الفنون له رأي عام يتتبع هذاالفن ويعرف قيم رجاله وأقدارهم وثبات قدمهم في هذا الفن وأنا كشاعر يعنيني ان يقرأ لي الأستاذ العقاد ويرى في شعري رايا حسنا أكثر مما يعنيني أن يقرأ لي ويرى شعري هذا الرأي الحسن عشرة آلاف من غير المتتبعين للشعر او العارفين بقيم رجاله واقدارهم .

والشعر الحديث لا يتجه إلى الانسان « المستمع » بقدر ما يتجه إلى الانسان القارىء والانسان المستمع يكون عادة مستمعا وسط جماعة أما الانسان القارىء فهو يواجه العمل الفني مواجهة شخصية . وهذا الاختلاف في رأيي بين جمهور الشاعر القديم وجمهور الشاعر المحدث هو الذي جعل الآنية القديمة تضيق عن الخمر الجديدة فتتكسر الآنية ثم يعاد تشكيلها طمعا في الوصول إلى التعبير العربي الذاتي الذي يخاطب به الشاعر الفرد الذاتي الذي يخاطب به الشاعر الفرد قارئه المفرد وليس في المسألة اذن بورجوازي ولا يحزنون بل شعر أصيل . . ويفرحون .

ولم تمنع الخصومة التي كانت بين العقاد وجماعة الشعر الحديث وفي مقدمتهم صلاح عبد

الصبور من ان يعترفوا بعظمة العقاد وبانه حقا ترك فراغا كبيرا بوفاته . . فها هو صلاح عبد الصبور يكتب في الاهرام اكثر من مرة مؤ بنا الفقيد العظيم ويستوقفنا هذا المقال الذي كتبه في ٢٠ مارس ١٩٦٤ بجريدة الاهرام والذي انهاه بهذه السطور التي تعبر عن عرفانه بالجميل لهذا الرجل حيث يقول :

لقد شرفت بخصومة العقاد العظيم واني لأنظر الآن خلفي تاركا تراث العقاد الفكري للتاريخ ولأناة الزمن وانصافه ، اما العقاد سيرة الحياة ، فاني لأرى معانيها الجليلة وهي تبرز أمام ناظري وتضيء لي معارج المستقبل فأهتف بهتاف ابن الرومي الشاعر الذي احبه العقاد وانصفه

انا الى الله راجعون فقد غال الردى سيرة من السير .

القسم الخامس

وثائق تاريخية

نص الحديث الصحفي مع سعد زغلول

نص كلمة العقاد لمناسبة منحه جائزة الدولة التقديرية

نص أول حديث صحفي
مع ناظر المعارف
سعد زغلول باشا
عام ١٩٠٨

مسألة التعليم الان هي المسألة التي شغلت الاذهان وأفاضت الجرائد في فحصها وتقليبها من جميع وجوهها .

وفي الحقيقة انها المسألة التي يجب على كل ذي بصر أن يضرب فيها بسهم وينقب عما يفتح مغلقها ويزيل عقباتها مع إخلاص العامل الذي لا هم له إلا ترقية بلاده وخدمة وطنه بكل ما في وسعه .

فاذا بحث فيها فانما يبحث عن كل ما يستحق البحث في مصر وعلى قدر اخلاص الباحثين أو خبث نيتهم تكون النتيجة حسنة أو سيئة على هذه البلاد التي تفتخر بأننا ابناؤ ها دون غيرنا المسؤولون مام الله وأمام ضمائرنا عما يسعدها او يشقيها وكل زلة يأتيها الباحث في هذا الموضوع تبعده عن الف حقيقة مقررة وتدنيه من عاقبة وخيمة عليه بصفته مصرياً يسوءه ما يسوء البلاد التي ينتسب اليها .

ولقد تضاربت الآراء في أمر التعليم ، فذهب الناس مشرقين ومغربين فمنهم من يمم الكعبة ومنهم من خاض في بحر الظلمات وأصبحوا يتساءلون عن تلك الضجة القائمة حول التعليم ومبلغها من الصدق والاخلاص لأن عليها يتوقف مستقبل أبنائهم فاذا بهم يسترشدون ولا يرشدون .

لذلك أردت أن أرجع الى رجل أعتقد فيه الصدق والغيرة على مصلحة هذا البلد وأرى أن في قوله خير حاسم لهذا النزاع الذي استطار شرره واستفحل ضرره. ذلك الرجل هو سعد زغلول باشا ناظر المعارف الحالي ـ فكتبت اليه استأذنه في مقابلة صحفية فأذن وحدد

لذلك الساعة العاشرة من صباح أمس - يوم الخميس وقد كان . . فدخلت عليه وهو منكب على عمله وبعد أن استقر بي المكان بدأت الحديث كما يأتي .

قلت : ان بعض الجرائد أشارت إلى أن نظارة المعارف طلبت من المالية زيادة ميزانية هذا العام فأبت عليها ذلك ، واحتجت بقلة المال عندها . فهل هذا صحيح ؟

قال : نعم هو صحيح وقد كانت حجة نظارة المالية في ذلك مقبولة لان ما لديها كان حقيقة لا يفي بما أطلب منها .

قلت : وما هو رأيكم في عرض لوائح التعليم على مجلس الشورى قبل تقريرها ؟

قال : ان هذه المسألة قد عرضتها علينا الحكومة ونحن نفحصها الآن ونعد الجواب عليها ولكن لم يتقرر شيء من ذلك رسمياً حتى الآن .

قلت : حادثت بعض نظار المدارس الابتدائية فاذا هم يتخذون تسهيل الامتحانات في اللغة العربية دليلا على ميل النظارة الى إهمالها والأشتغال بغيرها من المواد الاخرى وقد سمعت مثل هذا من غير واحد منهم .

فرأيت أنهم يكادون يجمعون على هذا القول وفي ذلك ما يدعوهم الى اهمالها حقيقة جرياً على ما يظنونه رغبة نظارة المعارف ، فهل تجدون في سهولة الامتحانات ما يحملهم على هذا الظن .

قال : ارى أن كل عمل في هذا العالم لا يخلو ممن ينتقده ويستنتج معنى غير معناه الحقيقي ، ولقد كان الامتحان في أول الأمر على شيء من الصعوبة فما سلمت نظارة المعارف ممن يرميها بأنها تتعمد سقاط النابغين من التلامذة فلما توخت تسهيله قام بعضهم يتهمها بأنها ارادت صرف التلامذة عن الاشتغال باللغة العربية إلى غيرها من العلوم وهو امـر غريب يحار به من يريد التوفيق بين ميول الجميع . . وعندي أن الأفضل نبذ هذه الأقاويل والاشتغال بما يفيد الفائدة المطلوبة وان في اهتمام نظارة المعارف بامر اللغة العربية والفات نظر المفتشين والمعلمين الى وجوب التدقيق فيها ما يغنيها عن طلب المستحيل والجمع بين النقيضين وكل ما تكلف به الان ان تقوم بواجبها المناط بها ثم لا يعنيها بعد ذلك ما يقول الناس فيها .

قلت : كان بعض وجهاء الصعيد قد طلبوا من الحكومة انشاء مدرسة ثانوية في اسيوط لتكفي ابناءهم مشقة السفر الى العاصمة في طلب العلم فهل في نية النظارة انشاء هذه المدرسة ؟

قال : ان النظارة تود لو أمكنها إجابة وجهاء الصعيد إلى مطالبهم ولكنها تجد أمامها صعوبات تحول دون ما تريد فإن المال لديها قليل ، والرجال أقل ، إلا إذا أتت بهم من الخارج وهو ما تتحاشاه الان بقدر ما في استطاعتها ومما يؤسف له أنها لم تجد من المصريين من يدرس مادتين في السنة الأولى من القسم التجهيزي إلا بعد جهد جهيد .

فاذا ذللت هذه الصعوبات هان عليها تنفيذ كثير من المشروعات التي يحول دون تنفيذها قلة المال والرجال .

قلت : الا يسمح سعادة الناظر ببيان الخطة التي وضعها لتسير عليها نظارة المعارف فيما يختص باللغة العربية ؟

قال : إن خطتي لم تتغير ولن تتغير وقد قلت في مذكرة المعارف التي رددت بها على الجمعية العمومية في هذا الشأن : ان من اعظم أماني تعليم المواد المختلفة في المدارس المنوعة باللغة العربية ، وقد اهتممت بهذا الأمر من يوم اسناد نظارة المعارف الى عهدتي وبحثت فيه بحثاً دقيقاً فتبين لي أن هنالك صعوبات تحول دون تحقيق هذه الأمنية في الحال . وأشرت إلى بعض هذه الصعوبات في الخطبة التي تشرفت بالقائها على الجمعية العمومية . ويسرني أن حضرات أعضائها قد قدروا هذه الصعوبات حق قدرها فعدلوا اقتراحهم بأن قرروا أن يكون التعليم في المدارس باللغة العربية تدريجياً لا أن يحصل جملة مرة واحدة .

وقلت في تلك الخطبة ايضاً : اني أتمنى بصفة كوني مصرياً أن يكون التعليم في المدارس جميعها بلغة بلادنا ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه لأن هناك صعوبات كثيرة تحول بيننا وبين بلوغ هذه الامنية الآن وهذه الصعوبات وإن كان يجب السعي لتذليلها وصرف العناية لتسهيلها إلا أنه يلزم أن نحسب الآن حسابها ولم أقل مرة واحدة أن اللغة العربية غير صالحة للتعليم وإنما كل ما يستفاد من كلامي أن الشروع في التعليم بها وقت عرض الاقتراح مستحيل وأن الواجب تذليل الصعوبات التي تقف في سبيل المشروع حتى نتمكن من جعلها لغة التعليم تدريجياً .

وقد سردت بعض هذه الصعوبات على اعضاء الجمعية العمومية فقدروها قدرها ووافقوا على جعل التعليم باللغة العربية تدريجياً فأنت ترى أني لم أعارض الجمعية العمومية رغبة ولم احاول رفض اقتراحها هذا ولكني اريت اعضاءها وجه الصعوبة فصدقوا عليه واقتنعوا به .

أما ما ذلل من تلك الصعوبات حتى الآن فهو كثير : منه تعليم المواد كلها في المدارس الابتدائية باللغة العربية وتعليم الحساب والهندسة والجبر بمدرسة الزراعة باللغة العربية أيضاً كما أن بعض الدروس في القسم الابتدائي من مدرسة المعلمين الخديوية وفي مدرسة الحقوق قد أصبحت تدرس بتلك اللغة وصرح للنابهين من تلامذة المدارس الثانوية الامتحان بها في أي عام أرادوا ولعل نظارة المعارف تتعدى حدود التدريج إذا هي قررت أكثر من ذلك في عام واحد فإنه لا معنى لكونها تقرر تدريس العلوم كلها في كل المدارس مرة واحدة باللغة العربية وبين كونها تراعي قاعدة التدرج وتذليل الصعوبات شيئاً فشيئاً .

قلت : إلى هنا اراني عرفت ما فوق الكفاية رأيكم في شؤ وننظارة المعارف فهل تسمح لي بابداء رأيكم عن الجامعة المصرية ؟

قال : بلى واني اقول لك ان رايي في كل معهد علمي صغيراً كان او كبيراً فان مصر في حاجة الى العلوم ولا يستهان باقل معهد علمي يكفل لها اداء هذه الحاجة .

قلت : هل كنتم تعلمون أيام توليتم رئاسة الجامعة أنها ستقرر تدريس الآداب الانكليزية والفرنسية عند تأسيسها ؟

قال : اننا لم نبحث اذ ذاك في هذه التفصيلات ولكن الذي كنا نرمي اليه من انشاء الجامعة واعلمناه للامة انها تعلم التلاميذ ما لا يتعلمونه في المدارس العالية ، وآداب اللغتين الانكليزية والفرنسوية مما يدخل في هذا الباب .

ولكن لجنة الجامعة لا تكتفي بذلك الا في أول الامر وقد أشرت عليها باضافة اداب اللغة العربية الى هاتين المادتين وهي تتناقش في ذلك الآن .

وقد علمت أن حضرات اعضاء اللجنة يبذلون كل الجهد في ابلاغ هذه الجامعة أقصى ما تبلغ اليه وكل من يعلم من هم أعضاء هذه اللجنة يثق ثقة تامة بنجاح المشروع على أيديهم وأن من الغريب أن يكون في الناس من يثبط همم العاملين والمكتتبين لهذا العمل الجليل .

إن الهمم فاترة من طبيعتها فليست هي في حاجة إلى من يثبطها ، ولكن هذه الأقوال ربما دفعت الخجول الذي تحمله الغيرة على الاقتداء بأمثاله إلى قبض يده عن الاكتتاب فان فيها مسوغاً يبرر عمله ويظهره في أعين الناس بمظهر الغيور على مصلحة بلاده . . يقولون ان الجامعة وقعت في أيدي الموظفين فانتشلوها منهم .

ولكن ألا يتدبرون في عاقبة ذلك ؟

من يقوم مقام رشدي باشا وزكي بك وعلي باشا والمسيو ماسيرو من غير الموظفين اذا عولّنا على انقاذ الجامعة من يد هؤلاء وتسليمها إلى غيرهم . . ؟

لست أنكر أن الجامعة كما هي الآن ليست كجامعات أوروبا ولكن الحالة الحاضرة تقضي علينا بالابتداء لا بالغاية فاذا ما كانت لنا اليوم جامعة صغيرة فقد تكون كبيرة ولا يبعثنا كونها كذلك على احتقارها ونفض أيدينا منها لأن في ذلك جناية كبرى ونحن في حاجة الى ما هو دون الجامعة بكثير .

اذكر أنه لما انشئت الجمعية الخيرية الاسلامية قام بعضهم واستضعف شأنها لانها نشأت حقيرة كما ستنشأ الجامعة فما هي الا سنوات قلائل حتى اتسعت دائرتها وأخصب موردها وكثر عدد مدارسها حتى بلغ ما تراه ولو ان القائمين بها جبنوا امام الانتقاد لقبرت في المهد ولم تبلغ ما بلغته الان . وفضلا عن ذلك المال الذي جمع إلى اليوم لا يفي بالحاجة لأن ستة وعشرين الف جنيه لا تكفي لانشاء جامعة كبرى كجامعات اوروبا .

هذا لو دفع كل مكتتب ما تبرع به ولم يقصر الأمر على العشرة الآف التي دفعت حتى الآن ولو قدرنا ما ينتجه هذا المبلغ بأجمعه في السنة لما زاد عن الف جنيه مصري وهو ما لا يكفي للانفاق على الجامعة في حالتها الحاضرة .

كل هذا والدين يريدون اخراج الجامعة من قبضة الحكومة يجهلون أنها دفعت مرة واحدة خمسة أضعاف ما دفعه المتبرعون في أنحاء القطر المصري بأجمعه .

وليس هذا كله ما أمدت به الحكومة هذه الجامعة فان اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس إلى الاقبال عليها إقبالا لا تظفر بمثله إذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل وربما لا ننسى أن بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة اعانة المشروع مادياً ، فرفضهم الآن اشرافها عليه بعد أن أدت الحكومة ما طلبوه منها يعد من الغرابة بمكان ويدل على تناقض لا يمكن الجمع بين أطرافه .

وهب ان اشراف الحكومة على الجامعة مضر بها كما يقولون أفهذا يحملنا على حض الناس على عدم الاكتتاب واسترداد ما تبرعوا به ؟

لا أظن ذلك لأن إنقاذها من يد الموظفين وتوسيع نطاقها عما هي عليه الآن من الممكنات وليس من المستحيلات وانما يكون ممكناً بكثرة المال والمتبرعين فهي في هذه الحالة أحوج الى المال منها وهي بعيدة عن الحكومة ومهما يكن من مخامرة اليأس للنفوس فلن يبلغ إلى درجة يجزم معها بأن الجامعة لن تفلت من يد الحكومة الى الأبد فمن العبث على كل حال العمل على اسقاطها وحرمان البلاد منها . .

أقول هذا وأنا على يقين من أن الحكومة لا تقصد سوءاً بهذه الجامعة ولم تفكر في إعاقة سيرها وان مراقبتها لها على هذه الصورة تفيدها فائدة قد لا تتيسر بغير ذلك . وأود لو نفيت كل ريبة بشأنها من الأذهان فإنها علي أي صورة ظهرت معهد علمي يفيد البلاد ظهوره بقدر ما يضرها احتجابه .

وانتهى الحديث لأن زائرا جاء لمقابلة الباشا فالتمست الاذن منه بالانصراف وخرجت من حضرته وكلي ألسنة ناطقة بشكره .

نص كلمة العقاد
لمناسبة فوزه بجائزة الدولة التقديرية

في هذه الهالة من حضرة الرئاسة السامية . .

وفي ملأ من هداة العرفان والمهتدين بهداه . .

وعلى مسمع من العالم العربي - حاضراً حياً وماضياً خالداً ، ومستقبلا موعوداً - بالمزيد من جد الحياة ومجد الخلود .

وبين أعياد العلم وتهاني العلماء والمتعلمين . . إنني لفي محراب . .

انني لفي المحراب الذي يملي دعاء الشكر فريضة واجبة ، بل فريضتين واجبتين لانهما فريضة في الأعناق وفريضة في الرؤوس أقربهما مني ، وأولاهما بي فريضة الشكر على النعمة التي تخصني ، وتنهى الي ، ولست اطيل فيها ، ولا أحمد لنفسي أن أطيلها ، خشية أن يسبق الى الخاطر أن الاطالة تؤدي حقاً لا يؤديه الايجاز ، وانني اطلت فوفيت ، وفرغت من قضاء الشكر على ما تلقيت ، وانه لمقام يستوي فيه الاطناب والاقتضاب ، ويتلاقى فيه الابتعاد والاقتراب فمهما يكن من وفاء واحد من الاحاد . . فما هو بكفاء حق الألوف شاهدين وغائبين ، وحق المستمعين اليوم والمستمعين بعد حين . ولا بأس في حيلة اذا قصر الحول عن بلوغ مداها ، ومن الحيلة ان أتجه بالشكر فرداً الى كل فرد من أصحاب الايادي المشكورة على حدة . فعسى أن يقال واحد أسدى وواحد شكر . . ولو تردد التكرار والتعداد آحاداً بعد آحاد . .

والفريضة الاخرى بل الاولى ، فريضة الشكر على النعمة الكبرى واليد الطولى : نعمة الوعي القومي الذي وعانا فوعيناه ورعانا فرعيناه وعي - بحمد الله يقوم القيم في عالم الفكر والثقافة ، ويحكم لنفسه فيزكيه أهل الذكر والحصافة ويشملنا جميعاً ، في من يختارهم لجوائز الدولة والامة تبرزهم جمهرة القراء ويؤيدهم صفوة العلماء .

وقديما كانت قيم الدنيا والدين وقيم العلم والمال ، وكل قيمة يعتز بها الحاكم والمحكوم

تبعاً لسلطان القاهر يلقي بها من عل فيتلقاها الناس طائعين خاضعين بل مطرقين مغمضين .

كان زمن من الازمان . . ينعم فيه السلطان بطيالسة المجد والعظمة ، بل بمسوح الزهد والتقوى ، فاذا بالمنعم مجيداً ولو كان في ذل العبيد ، واذا بالغوي العصى زاهداً منضوياً وان كان في الزهد والتصوف زهيداً أو دون الزهيد .

فالحمد لله على ما ألهم هذه الامة من وعي يقوم القيم في موازين الادب ، ومن رأي عام يجتهد بالرأي دائباً فيسمع له فيما اجتهد ودأب ، وحسبنا من شرف أن يحسبنا علامة من علاماته ، وعنواناً من عناوينه ، وأن يختارنا ـ كرماً منه ـ سبباً من أسبابه لتسجيل حكمه ، وإعلان فضله وانه لفي يد الله ـ حل وعلا ـ أن يؤ هلنا لهذا الحق ، وأن يجعلنا كفؤ اًله فيما نصنع ان شاء الله ، وفيما صنعنا كما شاء .

ان اسعد عيد من أعياد صاحب القلم ان يكتب بقلم تحمله معه بنان القارىء ، وأن يخط على قرطاس تبسطه أمامه عين المتصفح وأن يكون تقديره من قبل امته اشتراكاً معه في الفهم والافهام ، ومعاونة له على الفيض والالهام ، وأن يسمع فيه صوت الاختصاص ملبياً لصوت العام والخاص ، وتأتي فيه موازين الفنون رجحاناً لموازين الاذواق ، قدراً من الامة واليها ، وفضلا محسوباً لها ومحسوباً عليها ، وتلك هي جمهورية الفكر خير قرين لجمهورية الحكم .

والان . . وقد بلغ الكتاب تمامه واشرفت صفحاته على غايتها . . لعلنا نسأل . . وهل فرغ الحديث عن العقاد فارس المعارك الادبية ؟

بالقطع لا

فالحديث عن العقاد ومعاركه سيبقى ما بقي فكر العقاد وأدبه ما بقي احترامنا للكلمة وقدسيتها . . ما بقي تقديرنا للشرف وعظمته ما بقي حبنا للثقافة وشموخها .

لن ينتهي الحديث عن العقاد فارس المعارك الادبية . . فربما تشعل صفحات هذا الكتاب او كتاب غيره من العقاد النار في معركة جديدة موضوعها العقاد وفكره .

يتم هذا الكتاب وتشرف صفحاته على غايتها . . وقد حاولت قدر المستطاع ـ عبر هذه الرحلة القصيرة أن لا أخلع على العقاد صفة أريدها . ولم اكلفه تفسيراً لا يريده . . بل تركته هكذا يدلي بأقواله الى الزمان . . ولم يكن دوري بأكثر من القارىء الذي يختار ويتمنى أن يشاركه الاخرون متعة ما يدرك من هذا الفكر الشامخ . . وإن تطاول هذا الدور فلن يكون بأكثر من تعميق الغرض من الكتاب واظهاره للناس وهو توضيح قسمات وملامح شخصية العقاد كفارسٍ في المعارك الادبية وكفى .

يتم هذا الكتاب وتشرف صفحاته على الانتهاء مع اعتراف للقراء وهذا للأمانة ـ واقول لكم انني لم اسجل كل معارك العقاد وكذلك لم أرصد كل مواقفه . . وهذا يضع على عاتقي مسؤولية تقديم كتاب آخر يهتم بتسجيل بقية المعارك ويرصد بقية المواقف . . خاصة تلك التي تهتم بالجانب السياسي في حياة العقاد . .

لذلك أقول إن هذا الجهد الذي اسعفه توفيق من الله وعونه . . ليس سوى تسجيل لجانب من معارك العقاد ورصد لبعض مواقفه . . بعدها سيأتي كتاب آخر يهتم ببقية الجوانب .

المصادر

مؤلفات العقاد

مع العقاد — د. شوقي ضيف

العقاد معاركه في السياسة والادب — عامر العقاد

لمحات من حياة العقاد المجهولة — عامر العقاد

آخر كلمات العقاد — عامر العقاد

العقاد بين اليمين واليسار — رجاء النقاش

أدباء ومواقف — رجاء النقاش

من ذكرياتي في صحبة العقاد — محمد طاهر الجبلاوي

يسقط الحائط الرابع — أنيس منصور

الجمال والحرية والشخصية الانسانية في ادب العقاد — د. نعمات فؤاد

قمم ادبية — نعمات فؤاد

نظرات في فكر العقاد — د. عثمان أمين

عبقرية العقاد — د. عبد الفتاح الديدي

النقد والجمال عند العقاد — د. عبد الفتاح الديدي

عصر ورجال — فتحي رضوان

عمالقة الصحافة — حافظ محمود

عباس العقاد ناقداً — د. عبد الحي دياب

فصول من النقد عند العقاد — محمد خليفة التونسي

في أعقاب ثورة ١٩١٩ — عبد الرحمن الرافعي

المذاهب السياسية المعاصرة — علي ادهم

العقاد دراسة وتحية — لتلاميذ العقاد

عدد خاص عن العقاد — الهلال ابريل ١٩٦٧

دراسة عن العقاد	الاداب يونيو ١٩٦٧
دراسة عن العقاد	المجلة ابريل ١٩٦٦
ملزمة عن العقاد لانيس منصور	آخر ساعة
اعداد من مجلة الخرطوم	
اعداد من مجلة العربي	
اعداد من مجلة الثقافة	
اعداد من مجلة الجديد	
اعداد من جريدة الاهرام	
اعداد من جريدة الاخبار	
اعداد من جريدة الجمهورية	
أعداد من مجلة الجيل	
أعداد من مجلة حواء	
اعداد من مجلة المصور	
الموسوعة العربية الميسرة	
دائرة المعارف الاسلامية	
العقاد أعمال ومواقف	سامح كريم
طه حسين في معاركه الفكرية والادبية	سامح كريم
ماذا يبقى من طه حسين	سامح كريم

الفهرس

الموضوع

تقديم ٧

القسم الاول

موافقه من المرأة ٣٦

القسم الثانى

القضايا الثقافية ٥٩

التجديد ٦١

التراث ٦٦

العامية ٦٨

الرجعية ٧٠

القسم الثالث

الاتجاهات الادبية والنقدية ٧٥

الشعر ٨٢

القصة ٨٣

النقد ٨٦

القسم الرابع

معارك مع الادباء والمثقفين ٩٣

مصطفى لطفى المنفلوطى ٩٧

مصطفى صادق الرافعى ٩٩

احمد شوقى ١٠١

د. طه حسين ١٠٣

سلامه موسى ١٠٧

جميل صدقى الزهاوى ١١٠

الدكتور محمد حسين هيكل ١١١

الشيخ على يوسف ١١٢

امين الرافعى ١١٥
د. زكى مبارك ١١٧
د. احمد زكى ابو شادى ١١٩
توفيق دياب ١٢١
توفيق الحكيم ١٢٤
د. محمد كامل حسين ١٣٢
الشيخ امين الخولى ١٣٦
د. بنت الشاطىء ١٤٥
د. محمد مندور ١٥٠
د. عبد العظيم انيس ومحمود العالم ١٥٨
د. رشاد رشدى ١٦١
د. ابراهيم مدكور ١٦٥
ابراهيم الوردانى ١٦٩
رجاء النقاش ١٧٦
احمد عبد المعطى حجازى ١٩٤
صلاح عبد الصبور ٢٠٣

القسم الخامس

- وثائق تاريخية- نص اول حديث صحفى مع سعد زغلول ٢١١
- نص كلمة العقاد لمناسبة فوزه بجائزة الدولة ٢١٧
المصادر ٢٢١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٣٧١ / ٢٠٠٢

I.S.B.N . 977 - 01 - 8114 - 5



لقد أدركنا منذ البداية أن تكوين ثقافة المجتمع تبدأ بتأصيل عادة القراءة، وحب المعرفة، وأن المعرفة وسيلتها الأساسية هى الكتاب، وأن الحق في القراءة يماثل تماماً الحق فى التعليم والحق فى الصحة.. بل الحق فى الحياة نفسها.

سوزان مبارك

الثمن ١٥٠ قرشاً